الأزهر في ألف عام

١٣٧٤ هـ

تصـــدير

الأزهر هو النشيد الإسلامي الخالد ، الذى تردده الأجيال ، وتتناقله الألسن من جيل إلى جيل ، على مر العصور . .

والجامع الأزهر هو الدعامة الأولى التى استطاع الفاطميون من ألف سنة أن يحققوا بها أهدافهم الدينية والسياسية ، وأن يهيمنوا بها على الشعوب الاسلامية ، ولا يزال المحراب الرابع الذى يقدسه ويجله المسلمون كافة ، فى مشارق الأرض ومغاربها

والجامعة الأزهرية هى أقدم وأعرق الجامعات العلمية فى العالم كله حتى اليوم .

وإن هذا التاريخ الخالد ، والتراث العظيم ، والمشاركة الجبارة ، للأزهر الشريف ، فى الحياة المصرية والاسلامية عامة . . لهى الدافع الأكبر لنا على إخراج هذا التاريخ الحافل للأزهر ، فى ذكرى بنائه الألفية .

وإنه لمن دواعى الفخر للأزهر الشريف أن ينظر إليه المسلمون كافة خلال العشرة القرون الماضية ، نظرة مملوءة بالاكبار والاجلال ، وأن يعتبروه كعبتهم الثانية التى استبدت بشرف المحافظة على التراث الاسلامى المجيد .

وفى هذه الدراسة تأريخ لحياة هذه الجامعة العريقة ، من شتى جوانبها الروحية والعقلية والعلمية والتاريخية . . والله ولى التوفيق ، وواهب السداد ، وما توفيقى إلا بالله . .

المؤلف

المقدمة

الأزهر فى مقدمة الجامعات العلمية التى سارت مع التاريخ أجيالا طوالا ، فهو أطولها عمرا ، وأجلها أثرا فى تاريخ الفكر العربى والاسلامى ؛ وإن ألف سنة أو تزيد ، قضاها الأزهر الجامعى ، وشاهد أحداثها الضخمة ، واشترك فيها فى هذه الأحداث مؤثرا وموجها وبانيا ؛ لتاريخ ممعن فى الطول ، لا يمكن استيعاب حياة جامعة علمية لم تدون أخبارها فيه ، إلا بمشقة وعسر وجهد وإرهاق شديد . . ولم تعمر فى الشرق جامعات علمية غير الأزهر فى القاهرة ، والزيتونة فى تونس .. ولكن الأزهر ينفرد بضخامة ما أحدث من آثار فى تاريخ العرب والمسلمين ، من شتى النواحى الروحية والثقافية والفكرية والسياسية والقومية والاجتماعية ، بل والاقتصادية كذلك

والأزهر ـ طول عصور التاريخ ـ حارس التراث العربى ، ومجدد الثقافة الاسلامية ، والمشعل الذى يضىء ولا يخبو ، والملاذ الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل . . . والأزهر اليوم يتدثر برداء هذا المجد الخالد ، وذلك التاريخ القديم المجيد ، وإن كان قد أصبح وئيد الأثر والتأثير فى حياة الناس ، فى المادية المظلمة التى يعيش فيها عصرنا الحاضر ، وسار وراء المتنافسين فى ميدان التجديد والابتكار واليقظة الفكرية ، وقيدته أغلال ثقيلة من الركود وفقدان الحيوية ، وأساءت إلى سمعته بين الناس التيارات السياسية التى كانت تدخل فى العصور السابقة إلى أروقته ومحاريبه ومعاهده ، هدامة ، قاطعة ما بين الأزهر والناس من أسباب ، واستغلال بعض النـــاس له ، حفاظا على منصب ، أو تملقا لذى سلطان .

ولكن الأزهر ـ مع ما انتابه فى بعض الأحايين من الحيرة والتردد ـ يسير اليوم منطلقا إلى غاياته وأهدافه ومثله ، يتطلع فى نظرة الواثق إلى المستقبل ، ويحتقر هؤلاء المترددين والحائرين والمعوقين ، وتنظر مئذنته الشماء فى سخرية وإشفاق واحتقار ، إلى الذين يحاولون أن يبنوا وأن يهدموا ، فلا يستطيعون هدما ولا بناء .

والأزهر اليوم يأبى النوم والحياة حوله صاخبة مضطربة متحركة ، وهو يكره اللهو وقد خلقه الله وخلق الحياة للعمل والجد والحيوية والنشاط .

وإذا كانت أول خطوة لفهم الانسان لنفسه ولرسالته فى الحياة هى أن يعرف تاريخه ، ويعى ماضيه ، ويدرس ما يتصل به من مقومات وخصائص وتراث ، فإن هذا الكتاب لمما يساعد على هذه الدراسة وتلك المعرفة وهذا الوعى ؛ التى هى العنصر الأول فى البعث واليقظة والاحياء . . وإنى لأقدمه إلى القارىء ، معتزا بأنى أقدم له ثمرة مجهود شاق ، وبتوفيق الله الذي لاينسانى ، وما توفيقى إلا بالله . . .

المؤلف

الباب الأول

الأزهر خلال التاريخ

الفصل الأول

مصر الإسلامية قبل إنشاء الأزهر

— ١ —

فتحت مصر فى عهد عمر بن الخطاب عام ١٨ ه على يد عمرو بن العاص ، وبنى بها مسجده الجامع المعروف اليوم باسم « جامع عمرو بن العاص » عام ٢١ ه (١) ، واختط الجيزة فى هذه السنة أيضا ، كما اختط مدينة الفسطاط حول مسجده الجامع ، واتخذها عاصمة مصر ، وحفر خليج أمير المؤمنين الموصل للنيل بالبحر الأحمر(٢)

ووفد كثير من القبائل العربية على مصر زرافات ووحدانا ، وأقاموا بها ، وذاعت اللغة العربية بين أهليها ، بسبب اتصال العرب بأهل مصر واختلاطهم بهم .

وقد استقر بمصر كثير من الصحابة(٣) ومشاهير التابعين(٤) وأتباع التابعين(٥) ، ونشأت بها طبقة من المجتهدين كالليث بن سعد المتوفى(٦) عام ١٧٥ ه ، وهاجر إليها الامام الشافعى(٧) المتوفى عام ٢٠٤ ه ، وخلفه البويطى المصرى المتوفى عام ٢٣١ ه (٨) .

---

(١) ١٣٣ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٢) راجع الجزء الأول من حسن المحاضرة للسيوطى .

(٣) راجع ٧٢ ج ١ حسن المحاضرة وما بعدها .

(٤) « ١٠٥ » » » » »

(٥) « ١١٢ » » » » »

(٦) « ١٢٠ » » » » »

(٧) « ١٢١ » » » » ، ١٣٨ ج ١ ابن خلكان .

(٨) « ١٢٣ » » »

وقد نمت الحركة العلمية فى الفسطاط ، وكثرت الحلقات فى مسجد عمرو الذى كان مركزا علميا لنشر الدين الاسلامى وتعاليمه السمحة . . وكبرت هذه الحركة العلمية واتسعت ، ونمت وازدهرت ، وأم هذا المسجد الجامع كثير من العلماء الأعلام ، والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الاسلامى ، وأدوا له خدمة صادقة فى ميادين الدين والشريعة ، واللغة والعلوم . . وأشهر هؤلاء : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن لهيعة ، ثم الليث بن سعد . . وقد كان للإمام محمد بن إدريس الشافعى بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الفضلاء الذين دونوا مذهبه ، ونشروا علمه : كالربيع بن سليمان ، والمازنى ، والبويطى ، وغيرهم .. وكان أبو تمام يسقى الماء فى جامع عمرو ، وفيه كانت دراسته الأولى

وقد انتشر المذهب الشافعى فى مصر على يدى الشافعى وتلاميذه ، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكى ، الذى كان أول من أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامى(١) المتوفى عام ١٦٣ هـ . كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يد القاضى إسماعيل بن سميع الكندى(٢)، الذى ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٦٤هـ، فعمل على نشر مذهب أبى حنيفة فيها ، وكرهه المصريون من أجل ذلك كرها شديدا

ويذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة كثيرا ممن كانوا بمصر من حفاظ الحديث ونقاده(٣) ، ومن المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ(٤) ، كما يذكر من كان بها من الفقهاء الشافعية(٥) والمالكية(٦) والحنفية(٧) . . أما الحنابلة فكانوا قليلين فيها ، ولم يسمع السيوطى كما يقول بخبرهم إلا فى القرن السابع وما بعده(٨) . . كما يذكر من كان بها من أئمة القراءات(٩) ، ومن الصلحاء والزهاد والصوفية(١٠) وأئمة

(١) ١٩٠ جـ ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٩٦ جـ ١ المرجع
(٣) ١٤٥ « « « وما بعدها .
(٤) ١٥٥ « « « « «
(٥) ١٦٧ « « « « «
(٦) ١٩٠ « « « « «
(٧) ١٩٧ « « « « «
(٨) ٢٠٥ « « « « «
(٩) ٢٠٧ « « « « «
(١٠) ٢١٨ « « « « «

النحو واللغة(١)، وأرباب المعقولات وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء والمنجمين(٢)، وقد ظل التدريس فى الجامع العتيق عامر الحلقات، مدة طويلة .

خضعت مصر ـ أول ماخضعت للحكم الاسلامى ـ للخلفاء الراشدين، ثم لدولة بنى أمية، ثم لدولة بنى العباس، وكان يختار لها ولاة يثق بهم الخلفاء .

— ٢ —

واستقل بمصر أحمد بن طولون وكان قد ولى الحكم فيها سنة ٢٥٣ ﻫ، ثم أضيفت إليه نيابة الشام والعواصم والثغور وإفريقية، فاقام بها مدة طويلة، وبنى جامعه المشهور، وكان ميلاده فى بغداد عام ٢١٤ ﻫ، وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح السامانى عامل بخارى إلى المأمون . واستمر ابن طولون أميرا على مصر حتى مات بها عام ٢٧٠ ﻫ(٣)، وولى بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، وظل أميرا على مصر حتى قتل عام ٢٨٢ ﻫ، وولى بعده ابنه « جيش » فأقام تسعة أشهر قتل بعدها، وخلفه أخوه هارون بن خمارويه الذى ظل أميرا على مصر حتى قتل عام ٢٩٢ ﻫ، وولى عمه أبو المغانم شيبان، فورد من قبل المكتفى بعد اثنى عشر يوما من ولايته محمد بن سليمان الواثق الذى سلم إليه شيبان الأمر، واستصفى أموال آل طولون، وانقضت الدولة الطولونية، وامحت أيامها من تاريخ مصر السياسى .

كان من البدهى أن تكون عاصمة الملك فى أيام الدولة الطولونية هى مدينة أحمد ابن طولون، وأصبح مسجده المشهور محط الرحال، ومجلس العلماء، ومستقرا للحلقات العلمية الكثيرة التى تدرس فيها علوم الدين واللغة والأدب . . وظهر فى مصر وفى حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء والأئمة والادباء والشعراء

ومع ذلك فقد ظل « مسجد عمرو » يؤدى رسالته بجانب المسجد الطولونى الكبير، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات والعلماء، حتى ليروى أنه كان فيه قبل عام ٧٤٩ ﻫ بضع وأربعون حلقة، لاقراء العلم لاتكاد تبرح منه(٤) .

أسس جامع ابن طولون(٤) عام ٢٦٣ ﻫ، فى مدينة احمد بن طولون التى سماها « القطائع »، وفرغ من بنائه عام ٢٦٦ ﻫ . وصلى فيه القاضى بكار إماما وخطب

---

(١) ٢٢٨ ج ١ حسن المحاضرة وما بعدها .

(٢) ٢٣٢ « « «

(٣) راجع ٩ و ١٠ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ١٣٦ ج ٢ حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧ .

فيه بويعقوب البلخى ، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الامام الشافعى(١)، وظلت الحلقات العلمية فيه إلى أمد بعيد ، فكانت فيه دروس للتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات(٢) . . وكان أعمر مايكون فى دولة بنى طولون .

— ٣ —

وفى عام ٣٢١هـ ولى على مصر من قبل خلفاء بنى العباس محمد بن طغج الاخشيدى الذى أقام الدولة الاخشيدية فى مصر والشام ، ومات فى ذى الحجة عام ٣٣٤ هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيرا ، فأقيم أستاذه كافور الاخشيدى وصيا عليه ، وحكم المملكة باسمه ، ومات أنوجور عام ٣٤٩هـ ، فقام أخوه على مقامه حتى مات عام ٣٥٥هـ ، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعى له على المنابر فى مصر والشام ، ومات عام ٣٥٧هـ ، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد ، فأقام شهورا حتى فتح الفاطميون مصر ، وانتزعها جوهر الصقلى منه عام ٣٥٨ هـ

وفى عهد الدولة الاخشيدية ظل المسجد العتيق ومسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية

كانت الحلقات العلمية فى هذين المسجدين حافلة بالعلماء والمتعلمين ، وكانت تعقد حلقات خاصة فى منازل أكابر العلماء والفقهاء ، حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم، يقرأون ويدرسون بعض شروح الفقه الاسلامى ، وبعض كتب العبادات والتصوف واللغة والأدب ، ومن ذلك حلقة بيت عبد الله بن الحكم الفقيه المالكى وولديه عبد الرحمن ومحمد ، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث ... وهذه الأسرة هى التى أكرمت وفادة الامام الشافعى فى مصر . . وفى القرن الرابع كان العلماء فى المسجد العتيق والمسجد الطولونى عديدين ، وكان من أشهرهم : أبو القاسم ابن قديد ، وتلميذه الكندى صاحب الكتاب المشهور فى تاريخ ولاة مصر وقضاتها وأبو القاسم بن طباطبا الحسنى الشاعر . . وكانت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة المصرية العالية ، وشجع الاخشيدى وخلفاؤه العلوم والآداب ودراسة الشريعة ، وكانت حلقة المتنبى الذى وفد إلى مصر عام ٣٤٦هـ — ٩٥٧م من أحفل مجالس الأدب والشعر والنقد .

ولقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو .

---

(١) ١٣٧ج ٢ المرجع السابق

(٢) ١٣٨ » » »

الفصل الثانى

مصر فى ظلال الدولة الفاطمية

تمهيد :

إن شيعة على كرم الله وجهه بعد قتل على ظلت تتوارث الدعوة إلى خلافة آل البيت ، لاعادة الملك والخلافة للعلويين ، وزعم الكثير منهم أن الخلافة لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد على . . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم ، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا : إن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا أن ذلك الامام هو المهدى المنتظر ، الذى يبيد المغتصبين ، ويحيي مجد بيت رسول الله .

بدء الدعوة للفاطمية :

فى عام ٢٨٠هـ — ٨٩٣م ذهب أحد دعاة الشيعة ، واسمه « أبو عبد الله الشيعى » إلى بلاد البربر بشمالى إفريقية ، داعيا لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح فى دعوته ، وطرد الأمير الأغلبى الحاكم لتلك البلاد التابع للدولة العباسية ، وذلك عام ٢٩٦هـ — ٩٠٨م ، وأعلن أن الخليفة الحقيقى للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه « عبيد الله » الملقب بالمهدى ، من نسل السيدة فاطمة بنت رسول الله ، ولذلك سميت سلالته بالفاطميين .

قيام الدولة الفاطمية :

حضر عبيد الله إلى بلاد المغرب ، وظل ملكا عليها مدة كبيرة (٢٩٧ — ٣٢٢هـ : ٩١٠ — ٩٣٤م) ، كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب ، والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة صقلية ، وجاهد فى سبيل نشر الدين ومحاربة البدع فى تلك البلاد ، وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش : اثنين منها بقيادة ابنه « أبى القاسم » ، فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة فى المغرب حدثت عام ٣١٦هـ ، ووباء فشا فى أحد هذه الجيوش ، وفتكت عدواه بأهل المغرب . . وشغل عبد الله بالأمور الداخلية باقى حياته .

وفى عام ٣٢٢هـ — ٩٣٤م خلفه ابنه الأكبر « القائم بأمر الله أبو القاسم محمد » ،

فبذل غاية همته فى توسيع نطاق ملكه، وأرسل أسطولا أغار على شواطىء إيطاليا وفرنسا والأندلس، وأرسل جيشا إلى مصر هزمه الاخشيد، ووطد ملكه فى شمال إفريقية.

وخلفه «المنصور إسماعيل» سنة ٣٣٣هـ — ٩٤٥م، فسار فى الملك سيرة أبيه نحو سبع سنوات.

ولما مات خلفه ابنه «المعز لدين الله أبو تميم معد» سنة ٣٤١هـ — ٩٥٣م، فكانت أيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين، وكان مثقفا ثقافة عالية، سياسيا داهية، وطد ملكه فى بلاد المغرب، فدانت له جميع رؤساء القبائل المغربية، وخضعت له مراكش بأكلها حتى شواطىء المحيط الأطلسى.. ثم صرف همه لفتح مصر، لحفر الآبار، وبنى أماكن للاستراحة فى الطريق الموصل إليها، وكانت مصر وقتئذ فى اضطراب لحقها عقب وفاة كافور، ولم يكن فى وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد غارات القرامطة، وكان دعاة المعز ينشرون دعوتهم فى أنحاء كثيرة من القطر المصرى.. ووكل المعز قيادة الجيش الفاتح إلى أكبر قواده، وهو جوهر الصقلى الرومى الأصل، وكان تحت إمرته مائة ألف مقاتل مزودين بالآلات الحربية، وبالمال الكثير.

جوهر الصقلى فاتح مصر :

ولد جوهر بجزيرة صقلية نحو عام ٣٠٠هـ، ومع أنه رومى الأصل إلا أنه نشأ فى صقلية نشأة إسلامية خالصة، فقد دخل الاسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ، ويرجح المؤرخون ان أباه كان مسلما(١).

واتصل جوهر ببلاط المعز، ويبدو أنه كان فى حاشيته العسكرية، وقد قربه الخليفة الفاطمى، لما توسمه فيه من الاخلاص للدين، ولمواهبه الفذة وثقافته الواسعة، وظل يتدرج فى سلك المناصب فى دولة المعز، حتى اتخذه المعز كاتبا له عام ٣٤١هـ — ٩٥٣م، وهى السنة التى ولى المعز فيها الخلافة، ثم رقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧هـ، وولاه قيادة جيش كثيف لتوسيع ملك المعز فى شمالى إفريقية، وقد انتصر جوهر، وتوغل فى فتوحه حتى وصل إلى شاطىء المحيط الأطلسى.

ولما فكر المعز فى فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح، ولما رحل

(١) تاريخ جوهر الصقلى لعلى ابراهيم حسن ط ١٩٣٣

جوهر من القيروان إلى مصر فى يوم السبت ١٤ ربيع الثانى عام ٣٥٨ هـ — فبراير ٩٦٩م ، خرج الخليفة لتوديعه بنفسه ، وقال : والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تقهر الدنيا ، وانشد ابن هانىء الاندلسى المعز قصيدته :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم ادر إذ ودعت كيف أودع ولم ادر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار من أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المال حيث محله وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ورق كما رق الصباح الملسع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل بالذى انت تجمع
فإن يك فى مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر إلى برقة ، ومنها سار حتى دخل الاسكندرية فى رجب ٣٥٨ هـ ، ثم استمر فى سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين ، وجاء فى وثيقة الصلح الرسمية (١) : انه يتعهد بـ « نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ورفع الحزن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والاحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة وافتقاد الأحوال ، وحياطه أهل البلد فى ليلهم ونهارهم الخ » .

واتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سرورا عظيما ، ونظم ابن هانىء أمامه قصيدته :

تقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟ فقل لبنى العباس . قد قضى الأمر

وأخذ جوهر يعمل على بث الدعوة للمعز الفاطمى فى مصر خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة ، واختط مدينة القاهرة المعزية ، وبنى الازهر الشريف ، وصار جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر مراكز للدعاية لعقائد العلويين

---

(١) ٦٧ — ٨٠ اتعاظ الحنفا .

الفاطميين ودعوتهم ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يدى داعى الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

خطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ - ٩٦٩ م ، وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حادثا خطيرا فى تاريخ مصر ، وفى يوم الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ٣٥٨ ﻫ دعا الخطيب لآل البيت وزاد فى الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء امير المؤمنين الهادين المهديين » . . . وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ ﻫ صلى جوهر بجامع ابن طولون وأذن المؤذنون : « حى على خير العمل » . . أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية .

ولا ننسى ان نذكر أن جوهرا قد وضع أساس المدينة الجديدة « القاهرة المعزية » فى الليلة التى دخل فيها مدينة الفسطاط ، أى فى ١٧ شعبان ٣٥٨ ﻫ - ١٧ يوليو ٩٦٩ م وأقام فيها قصر الخليفة المعز ، ووضع أساسه فى اليوم التالى .. وتشمل القاهرة المعزية على ماورواه المقريزى احياء : الجامع الازهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، وكانت بولاق هى ميناء القاهرة ، وقد أصبحت بولاق بعد ذلك بمـــدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ ﻫ ، عند ما أمر الملك الناصر بعمارتها وبنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس وعمروها . وقـــد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح

وبعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية (١) ، ودخل القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ - نصف يونيو ٩٧٣ م ، وظل ملكا على مصر حتى توفى عام ٣٦٥ ﻫ ، وتوفى بعده جوهر بمدة كبيرة ، وذلك عام ٣٨١ ﻫ (٢٠/١ ابن خلكان)

---

(١) راجع الحديث عنها فى كتاب « المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزى ٣٦٦ ج ١ . وهذا الاسم أطلقه اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين على مدينة « صبرة » وتتصل بالقيروان وقد بناها المنصور الفاطمى فى سنة ٣٣٧ ﻫ واستوطنها وسماها المنصورية (ص ٢٥ البكرى) .

المعز الملك الفاطمى :

هو الخليفة الفاطمى الرابع ، ينتسب إلى رسول الله عن طريق ابنته فاطمة الزهراء وإلى على بن ابى طالب ابن عم الرسول .

ولد بمدينة المهدية قرب القيروان ، وهى عاصمة الفاطميين ، وذلك فى ١١ رمضان سنة ٣١٧ ه ، وأمه أم ولد . وربى تربية عالية ، وكان ولى عهد أبيه المنصور ، وولى الخــلافة عام ٣٤١ ه . . وفى عام ٣٤٨ فتحت جيوشه بقيادة جوهر مصر خرج المعز من المنصورية دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ ه : ٥ أغسطس عام ٩٧٢ . . ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ ه : ٢٩ مايو ٩٧٣ م .

وقد دخل القاهرة عام ٣٦٢ ه ـ ٩٧٣ م ، وتوفى فى ١٤ ربيع الثانى ٣٦٥ ه ـ ٢٠ ديسمبر ٩٧٥ م ، بعد أن وسع دولته ، وصبغها بصبغة عالية من الحضارة والرقى والنهضة ، وكانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم .

كان نقش خاتم المعز يحمل شعار دولته وهو « لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد ، لتوحيد الإله العظيم دعا الامام أبو تميم » .

وقد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحــدهما مصرى والآخر مغربى . . وكان عهده على قصره من أزهى عصور مصر وأزهرها ، وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت فى الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفى لاستعراض ١٠٠٠٠ جندى ، وكان ثروة الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق مايتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها مايعادل ٢٠٠٠٠٠٠ دينارا ، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير كثيرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضى مطعم .

وقد بذل «المعز» غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس واحترامهم له ، بعدله ، وحسن إدارته والتفاته إلى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء فى المدينة بعد الغروب ، اجتنابا لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التى كانت تلحق البــلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين .

وكان للمعز عدة أبناء ، ومن بناته رشيدة بنت المعز ، وعبدة بنت المعز(١) .

(١) ١١٤ ج ٥ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان .

وقد خلف المعز ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار(١) ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ : ٩٧٥ - ٩٩٦ م ، وكان يعقوب بن كلس أكبر وزرائه .

وبعده تولى حكم مصر الحاكم بأمر الله أبو على منصور ٣٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦ - ١٠٢١ م ، وقدمات مقتولا .

وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على ٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ - ١٠٣٦ م .

وتولى بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ : ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م .. وظل الفاطميون يتوارثون حكم مصر(٢) ، حتى انتهى ملكهم منها عام ٥٦٧ هـ

الفصل الثالث

تأسيس الأزهر وبدء حياته الجامعية

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قروناً متصلة ، وحفظ التراث الاسلامى ديناً ولغة من عاديات الزمن ، ونشره على الآفاق ، ولم يبخل به على أى طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة ـ وما يزال حتى اليوم ـ كعبة العلم والدين ، ومعقد آمال المسلمين ، وقد تخرج فيه أفواج وأفواج من جلة العلماء انتشروا فى بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التى تزودوا بها فى الأزهر، فأضاءوا جنبات الأرض علماً ونوراً وتقى .

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى قائد الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » ، وشرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأول (٣) سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ ٢٢ يونيو ٩٧٢ م ، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ، ومنبراً

---

(١) ولد فى المهدية عام ٣٤٤ هـ .

(٢) وهم : المستعلى بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، والآمر بأحكام الله المنصور (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، ثم الآمر بأحكام الله عبد المجيد (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ، ثم الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) ، ثم الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ)

(٣) يذكر بعض المؤرخين أنه شرع فى بنائه فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان عام ٣٥٩ هـ (٢٧٣ ج ٢ المقريزى ، ٣٦٤ ج ٣ القلقشندى) .

للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وقد كتب بدائرة القبة التى فى الرواق الاول وهى على يمين المحراب والمنبر مانصبه بعد البسملة : مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة ،

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء التى ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور فخمة ، تسمى بالقصور الزهراء ، أو لأنه يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة ورواء ، أو التفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا .

وضع يوم السبت ٢٤ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ ه الحجر الاساسى له ، وظل العمال والمهندسون يعملون فى بنائه عامين تقريبا حتى جاءت أول جمعة رمضان سنة ٣٦١ ه ، فجمعت فيه ، باحتفال رسمى هائل ، تجلت فيه أبهة الملك وسؤدده وعظمته ، التى اشتهر بها الفاطميون أكثر من سواهم . والمقريزى يصف لنا هذا الاحتفال وصفا شائقا يفيض روعة وجلالا .

وبعد أن استقر سلطان المعز ، وتم بناء المعقل الذى أقامه للدعوة ، أفرغ جهده فى إحكام دولته وتنظيمها ، ووفق فى ذلك أكثر توفيق ، وقطع المعز الفاطمى كل علاقة بينه وبين الخليفة العباسى ، وقضى على كل صلة روحية له فى مصر ، فقصر التدريس فى الأزهر على المذهب الفاطمى فى الفقه ، وتعاليم الفقه ، وتعاليم الشيعة فى الدين والفلسفة والتوحيد ، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء ونطاحل الفقهاء فى عصره ، وكان عددهم ثلاثين عالما ، أجزل لهم العطاء وبنى لهم منازل فخمة ألحقت بالأزهر فيما بعد ، وصارت من أروقته ، وشرعوا يدرسون ويتفقهون فى مذاهب الفاطميين وتعاليمهم ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التى كانت شائعة فى بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الاسلامية ، وكانت هذه النخبة الممتازة من الأساتذة وعلى رأسها كبير العلماء « أبو يعقوب قاضى الخندق » سببا من الاسباب التى جعلت الأزهر يصبح قبلة كل طالب من أقاصى الارض بعد أن ذاع صيته فى الآفاق . وذكر المقريزى ان أول مادرس فى الأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، فانه فى صفر سنة ٣٦٥ ه جلس قاضى مصر « أبو الحسن على بن النعمان بن محمد بن حيون » وأملى مختصر أبيه فى الفقه على أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار ، وكان جمعاً عظيما أثبتت فيه

أسماء الحاضرين .. فكأن الأزهر على ذلك ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدريس حتى جاء صفر سنة ٣٦٥هـ وافتتحت الدراسة فيـــه باجتماع عظيم حضره كثيرون ، وقيدوا أسماءهم .

واستوزر (المعز) وابنه (العزيز) من بعده الوزير يعقوب بن كلس ، وهو يهودي الأصل ثم أسلم ، ولعل الخليفة تخيره لما اشتهر عن اليهود من الحذق فى الدعاية وإتقانها ، وقد نشط الوزير فألف كتابا فى الفقه ، يتضمن ماسمعه من الخليفة المعز وابنه من بعده . وهذا الكتاب مبوب على أبواب الفقه الفاطمى ، وكان يقرؤه على الناس ، وكان يجلس بنفسه يوم الجمعة يقرأ على الناس فى مجلس خاص به مصنفاته كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل .

قام المعز بتأسيس الأزهر إذن ، واستوزر ابن كلس وعمل على استجلاب أكابر العلماء ، وأوعز اليهم تدريس الفقه الفاطمى ، ولم تقتصر هذه الدعوة فى اتجاهها على هذه الناحية فقط ، بل هناك ناحية سرية كان يقوم بها (داعى الدعاة) وأعوانه ، من قبل الحكومة ، ليبثوا تعاليم الشيعة ومبادئهم ودعوتهم من طريق السر والخفاء أحيانا ومن الجهر والعلانية فى غالب الاحيان . وكان لهذا الداعى مجلس يفرده فى الازهر للنساء ، وهذه الدعوة كما يقول المقريزى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علماً من العلوم المدونة ، ثم اضمحلت وذهبت بذهاب أهلها .

سلك الفاطميون فى دعوتهم طريق الجهر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وسلكوا الخفاء والتستر إذا أعوزتهم الحاجة ، وكانوا يدرسون الفقه الفاطمى علانية لأنه الوسيلة المناسبة التى يستطيعون بها الدخول على سائر الشعب المصرى ، الذى كانت تهيمن عليه السنة ومذاهبها سيما المذهب الشافعى منها ، ولأن حاجة الناس إلى الفقه ماسة ، ينظمون به شئونهم ويحددون به أحوالهم الشخصية وما يتبعها من حقوق وواجبات ، سيما وأن هذا الفقه فى قضاياه ليس بعيد الخلاف مع السنة ، بعد التعاليم الشيعية وفلسفتها مع مبادىء التوحيد الاسلامى . وكان يقوم بكل هذا العلماء المعينون وأتباعهم وكانوا يمنحون مرتبات شهرية ، وجعلوا ذلك بابا من أبواب الدعوة .. وكان القائم بهذه الدعوة هو داعى الدعاة ، وهو من كبار الموظفين ، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيى بزيه ، وكانت وظيفة قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان فى كثير من الأحيان إلى رجل واحد ، وقد خصص لداعى الدعاة قسم كبير من قصر الخلفاء الفاطميين ،

وكان يساعده فى نشر تعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى البلاد بلغ عددهم مائة وواحداً وخمسين ، وكان فقهاء الدولة البارزون فى الشريعة الاسلامية تحت نفوذه وله مكان خاص بالقصر هو (دار العلم) ، فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ويقدمون إليه فى يوم الاثنين ويوم الخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الفاطمى ، وكانت المحاضرات تعرض قبل إلقائها على الخليفة فيقرؤها ويذيلها بإمضائه ثم تبلغ اليهم عن طريق (داعى الدعاة) وهو الذى يعرضها بنفسه على الخليفة . وكان الداعى فوق هذا يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، وكان يجلس على كرسى الدعوة فى الايوان الكبير فيحاضر الناس ، ويعقد للنساء مجلساً خاصا بالازهر ، وفيه يلقنهن أصول مذهب الاسماعيلية أو الفاطمية .

ولم يكن ذلك كل ماقام به الفاطميون فى نشر مذهبهم ، فكانت هناك مجالس تعرض على الناس كل على حسب طبقته . فكان لأهل البيت مجلس ، وللخاصة مجلس . وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، والوافدين من البلاد الاجنبية مجلس

وكان عند ما يفرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات أقبلوا عليه فقبلوا يديه فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة ، وكان من اختصاص (داعى الدعاة) جمع النجوى وتدوين اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر ، والنجوى نوع من الصدقة مقدارها ثلاثة دراهم وثلث درهم ، أما السادة الاسماعيلية فكان الواحد منهم يدفع ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثى دينار ويمتازون عن عامة الناس فيعطى الواحد منهم رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة وفيها هذه العبارة (بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك) .. وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية والدينية نجاحا عظيما فى خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد بذل هذا الخليفة مجهوداً كبيراً فى نشرها حتى أرغم الناس عليها لقوانينه الجائرة وانضموا إليها مكرهين .

وأهم الكتب التى تبحث فى هذه التعاليم كما يقول الأستاذ أحمد توفيق عياد كتاب « أسرار الباطنية للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ » و « الملل والنحل » للشهرستانى و « رسائل إخوان الصفا » : ويجب أن يشار إلى وثيقة هامة فى هذا الموضوع وهى المخطوط الموجود بدار الكتب بالقاهرة وعنوانها (رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته) . كما أنه يوجد مخطوط آخر فى أربعة مجلدات بالمكتبة الأهلية بباريس عنوانه (المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا الحاكم) .

ومنها يتبين أن الدعوة قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة .

والفلسفة وهى أساس الشريعة عند الفاطميين قد حلت فى عهد الحاكم فى محل القرآن والسنة ، ومنها يتضح كيف بلغت هذه الدعوة وعملت فى عقول الأهالى حتى تجاسر الحاكم أن يدعى الألوهية وأن الله قد تجسم فى شخصه . وهذه الدعوة تلخص لنا تعاليمهم ، والأصل فيها أنهم أخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعى تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله إخوان الصفا فى رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطونى .

ودعوتهم مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة ، حتى تبلغ هذه الدعوات تسعا يبدأ الداعى أولا باستدراج المدعو بعد أن يكون قد وقف على هذه التعاليم ومبلغ إيمانه بدينه ، ويستهويه إلى حالته العقلية، ويشرع يشككه فى أفكاره بأسئلة إنكارية : ما معنى العدو بين الصفا والمروة ؟ ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة وما بال الله قد خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا والكاتبين الحافظين ؟ أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون وأقام علينا الشهود وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة ؟ .

وهكذا يستمر يلقى الأسئلة سراعا وينفث سموم الريب فى النفس ، ثم يعقب على هذه الأسئلة بأسئلة الغرض منها استواء المدعو إلى حظيرة الفلسفة والهرطقة التى كانوا يقولون بها : أين أرواحكم ؟ وكيف صورها وأين مستقرها ، وما أول أمرها ؟ والانسان ماهو ؟ وما حقيقته ؟ وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ؟ وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير والعالم إنسان كبير ؟ وأمثالها حتى إذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تتعجل فإن دين الله أعلا وأجل من أن يبذل لغير أهله ، ثم بعد حديث وإغواء يأخذ عليه عهدا الا يفشى سراً ، ولا يظاهر أحدا عليهم ، ولا يطلب لهم غيلة ، ولا يكتمهم نصحا ! ولا يوالى عدوا لهم ، فإذا أعطى العهد طلب منه جعلا من المال يجعله مقدمة أمام كشفه له الأمور وتعريفه إياها .

وينتقل إلى الدعوة الثانية ومرماها إثبات ضرورة وجوب الامام الذى ينصبه الله للناس ، وإلى تقرير أن الأئمة السبعة آخرهم محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو صاحب ذلك الزمان، وعنده علم المستورات وبواطن المعلومات التى لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد إليه والتسليم له ؛ لأن الهداية فى موافقته واتباعه والضلال والحيرة فى العدول عنه . . ثم ينتقل إلى

تعليل اعتقادهم فى الأئمة والنقباء الاثنى عشر .

وهنا يكون الداعى قد تمكن من نفس المدعو فيعمل على تعمير منطقه العقلى ويدعوه إلى النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ، وينهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات .

ثم ينتقل إلى إثبات معجزة النبى الصادق والوحى على طريقة تعاليمهم الشيعية . وقد ظلت الدعوة قائمة إلى هـــذه المبادىء ، وكان من زعمائها فى القرن الخامس الهجرى « الحسن بن محمد الصباح » .

وهذه التعاليم تظهر بجلاء فى رسائل إخوان الصفا ، وتوهم أن الروح التى أملتها روح عالية تتسع آفاقها لاستيعاب حيز كبير من حقائق هذا الوجود ، وأن العقلية التى أخرجتها عملية حرة جريئة . والواقع ربما خالف هذا فإن الفاطميين وإن كان يشم من كلامهم الدعوة إلى وحدة الوجود ، والنظر إلى هذا العالم بعين الحكمة والاعتبار والتفلسف ، إلا أنهم أفسدوا هذه النظرة السامية بحجرهم على العقول فى الاعتقاد بأئمتهم ، وأفسدوا كل شىء حينما حاولوا أن يستغلوا مافى هذه التعاليم من طرافة وطلاوة لمصلحتهم الخاصة ، بمحاولة تطبيقها على ماتبتغى أهواؤهم السياسية ، وأنهم حاولوا فرض شىء كثير من الاستبداد على عقول الناس ومشاعرهم لحد يكاد يبلغ الجمود ، وآية ذلك ظاهرة فى الفقه فى هذا العصر ، وتوقف التفكير فيه عند حد التقليد وعجزه عن الابتكار والرأى والقياس . وآية ذلك ظاهرة فى بعض شعراء هذا العصر الذين أفسدت عليهم شاعريتهم حتى صاروا يؤلهون الحاكم ويعتقدون أن الله قد يتجسم فى شخص الأئمة والخلفاء : من ذلك ماقاله ابن هانىء الأندلسى فى المعز :

ماشئت لاما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار
وهو الذى تجدى شفاعته غدا حقا وتخمد إذ تراه النار

إنهم استمدوا تعاليمهم من الأفلاطونية الحديثة وأخذوا ما نقله إخوان الصفا عنها وعن الفلسفة اليونانية فأفسدوها حينما أرادوا تطبيقها على الناس ، يبتغون من وراء ذلك تشكيل عقائدهم بأسلوب يضمن لهم السلطان والامامة . ومثل هذا الأسلوب فى التفكير والاعتقاد أقرب إلى أن يكون فارسيا منه إلى أى شىء آخر ، وقد كان للشيعة أكبر عضد فى فارس ، ولعل المذهب تأثر كثيرا بعقلية الفرس الواقعية واعتقادهم فى الحلول وتأليه الأكاسرة . ومثل هذا الأسلوب أبعد مايكون عن النفسية المصرية

فقد صعب تمثيله وهضمه فنبذته ولو أنها أكرهت عليه مدة طويلة .

« ولا يمكننا أن نقدر مقدار النجاح فى شيوع المذهب الاسماعيلى بمصر وقدر الذين انتحلوه من خاصة الأمة ، إلا أنا نعلم أن أثره فى العامة كان قليلا جدا لما يروى من أخبار نفورهم من مظاهر الاسماعيلية ومن عقائدهم ، ويظهر أن بيئة الفقهاء لم تتقبله ، ووسموه بميسم الكفر والالحاد ، فنفر الجمهور منه ، وزاد نفرته السرية التى كانت تحيط بالدعوة ، فزاد ذلك فى تأييد اعتقادهم أنه خارج عن الدين توارثوه عن أئمتهم وعن علمائهم » .

وهذه العبودية التى فرضها الفاطميون على العلماء بنشر تعاليهم وحدها وتأييد مذهبهم الفاطمى فى الفقه ومحاجتهم الناس ، أثرت أثرا بليغا فى تطور التشريع الاسلامى ، فقد سار التشريع فى هذا العهد فى دور التقليد وعدم الاجتهاد . فإن الجو، لايساعد العلماء على الابتكار والتجديد .

ولكن نلاحظ من ناحية أخرى أن نشاطهم فى بث الدعوة أدى إلى خلق هذا النوع الجديد من العلوم الذى أطلق عليها «أدب البحث» وألفت فى قواعدها الكتب ، وكثرت مجالس النظر وشاعت المناظرات والمجادلات شيوعا .

وبقى مذهب الشيعة منتشرا فى مصر قضاء وفى الأزهر دراسة ، إلى أن انقرضت دولة الفاطميين . . .

وعادت لمصر حينئذ السنة المحمدية ، وأول مذهب سنى درس بالأزهر المذهب الشافعى وانقرض من ذلك الحين المذهب الشيعى ، ولم يبق له من أثر بالأزهر سوى الجراية ، تعطى لمن هو متمذهب بهذا المذهب ، وهذه الجراية كانت تصرف لأصحابها الوقت قريب . هذا وتعاليم الشيعة الآن معمول بها فى فارس وبمصر متحف خاص (بالبهائية) التى تعمل على حد هذه التعاليم ، ويقرر الأستاذ (بيرم) فى رسالة وضعها عن الأزهر وقدمها لمؤتمر المستشرقين المنعقد بمدينة (هامبورج) فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٠٢ ان العلوم الرياضية كانت تدرس بالأزهر ، كالعلوم الفلكية والطبيعية والجغرافية ، ولكنه استند فى تقريره هذا إلى أنه استنتج ذلك من عناية الفاطميين بهذه العلوم وعنايتهم بالكتب وجمعها واستبعد ألا تكون هذه العلوم قد درست بالأزهر ، والأزهر كان متأثرا فى حياته بكثير من العوامل السياسية التى ظهرت وقتذاك . وان ما كان يدرس فيه فى عهد الفاطميين هو التعاليم الشيعية الاسماعيلية والدعوة إليها ، والمذهب الفاطمى فى الفقه .. وكان لهذه التعاليم أثر واضح فى الحياة الخلقية فى ذلك العصر، وقد عدد آفاتها الغزالى

وآفات عقلية أوقفت التشريع الاسلامى عند حد التقليد وعدم الاجتهاد ، وأصبح التشريع الاسلامى فى هذا العصر هو المرحلة الأخيرة لتطوره . ولم يكن للعقول فى ذلك الوقت سبيل إلى الاجتهاد والقياس . واحتاجوا إلى تنظير المسائل فى الالحاق وتفرقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على هذا النوع من التنظير والتفرقة .

ومن هذا كله نعلم أن الأزهر اتخذ أول ماأنشىء مسجدا لعبادة الله والدعاية للفاطميين ودولتهم ، ثم عقدت فى جنباته حلقات الدروس العامة ، فكان الأساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لالقاء دروسهم على كل من يحضرها فى الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعيات والرياضيات .

وأول كتاب قرىء فى الأزهر على ماذكرناه هو « الاقتصار » فى فقه آل البيت لأبى حنيفة النعمان بن أبى عبدالله بن محمد القيروانى قاضى المعزلدين الله ، وكان مالكى المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلى فأخلص له ، وكان من دعائم الدعوة الفاطمية . وكتابه « الدعائم » من أصول المذهب الاسماعيلى ، ونهج على منهاجه الوزير يعقوب ابن كلس فى كتابه « مصنف الوزير » ، وله كتاب اسمه « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الأطهار(١) » ، ومن كتبه أيضا : « الينبوع » « والمجالس والمسايرات . وتوفى النعمان هذا فى شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣ ﻫ ، وصلى عليه المعز لدين الله

وكان يتولى درسة كتاب « الاقتصار » فى الأزهر ابن النعمان واسمه أبو الحسن على بن النعمان(٢) . . وكتبه الأخرى كان بعضها يقرأ فى الأزهر ، والبعض الآخر

(١) منه نسخة خطية فى الفاتيكان رقم ٥ - ١١٠٤ .

(٢) كان على شيعيا غاليا ، وشاعرا مجودا (٨٤ ج ٣ شذرات الذهب) وتوفى أبو الحسن هذا عام ٣٧٤ ﻫ - فولى القضاء بعده أخوه أبو عبد الله محمد وتوفى عام ٣٨٩ ﻫ (٥٥ ج ٤ ابن خلدون) .

ولأبى الحسن على بن النعمان شعر فى اليتيمة (٣٨٤ و ٣٨٥ ج ١) . . وكذلك لأخيه القاضى أبى عبد الله محمد بن النعمان شعر (٣٨٥ و ٣٨٦ ج ١ اليتيمة) .

وكان أبو الحسن على بن النعمان أول من لقب بقاضى القضاة فى مصر (٩١ ج ٢ حسن المحاضرة) .

وكان على بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثانى خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، إلى أن قلد القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع

يقرأ فى حلقات خاصة للذين يريدون التخصص فى فقه الشيعة والدعوة الفاطمية .

وظل الجامع الأزهر مثابة لحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ٣٦٩ هـ ، إذ بدأت حلقات الازهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة ، فقد بدأ يعقوب ابن كلس(١) وزير المعز لدين الله يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى ، وكان يجلس بنفسه لقراءته فى الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع لسماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر ورجالات الدولة والدعوة ،

مملكته ، والخطابة والامامة ، ودار الضرب . وقرىء مرسوم توليته هذه الأشياء بالجامع الأزهر وبجامع عمرو ، وكان أمرهما إليه . وكان من عادة الدولة وقتئذ أن من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة ، ويقلد السيف ، ويتم له ذلك بلا طبل ولا بوق ، إلا إذا ولى أمر الدعوة مع الحكم ، فلقد كان للدعوة فى خلعها الطبل ، والبوق والبنود ، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق الصوفية ، وهى بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر .

وكانت رتبة قاضى القضاة وقتئذ أجل رتب أرباب العمائم بمصر . ويكون فى بعض الأوقات داعيا فيقال له حينئذ : قاضى القضاة وداعى الدعاة . وكانت العادة ألا يحضر لاملاك ولا جنازة إلا بإذن . وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره .

(١) كان يعقوب يهوديا ، ولد فى بغداد ، وجاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور ، وأسلم فى شعبان ٣٥٦ هـ ، ثم سار إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز وكان رائدا لجيشه فى فتح مصر ، وحضر مع المعز إلى مصر عام ٣٦٢ هـ ، ولما توفى رثاه مائة شاعر (٣٩١ - ٣٩٧ جـ ٣ ابن خلكان) .

ويروى أنه تسابق العزيز بالله الفاطمى مع وزيره يعقوب بن كلس بالحمام ، فسبق حمام الوزير ، فعز ذلك على العزيز ، ووجد أعداء يعقوب إلى الطعن فيه سبيلا فقالوا للعزيز : إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ، ولم يبق منه إلا أدناه حتى الحمام ، وراموا بذلك أن يغروه به حسداً منهم لعله يتغير عليه ، فاتصل ذلك بالوزير فكتب إلى العزيز :

قل لأمير المؤمنين الذى   له العلا والمثل الثاقب
طائرك السابق لكنه   جاء وفى خدمته حاجب

فأعجبه ذلك منه ، وسكن غضبه .

وكانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الأهداف العلمية ، وبذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر .

وفى عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، وكان رئيسهم ومنظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم فى يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضا رزقا من ماله الخاص(١) .

وفى عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ، وبذلك صار الأزهر معهدا جامعيا للعلم والتعليم والدراسة ، وكان هؤلاء الأساتذة الذى رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة المدرسين الذين عينوا بالجامع الأزهر الشريف ، ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته الجامعية العلمية الصحيحة . . وفى الحق أن هذا يدل على أن ابن كلس كان وزيرا عظيما وعالما جليلا وأديبا كبيرا .

وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء (٢) ، وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك فى أعمالها ، ويغدق العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن فى التأليف والكتابة فوضع كتابا فى القراءات ، وكتابا فى الفقه ، وكتابا فى آداب رسول الله ، وكتابا فى علم الأبدان والصحة ، ومختصرا فى فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله . وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم ، وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة فى جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده ، ومن ذلك ماقاله أحدهم حين أصابت الوزير علة فى يده :

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت   رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته   من أجله واسأل القرطاس والقلما

---

(١) صبح الأعشى عن المسبحى ٢٦٧ ج ٣ ، وخطط المقريزى ص ٤٩ ج ٤
(٢) ٤٧ تاريخ الأزهر لعنان .

ومرض ابن كلس فى شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فجزع عليه العزيز أيما جزع ، ولبث يعوده ويرعاه ، حتى توفى فى الخامس من ذى الحجة ، فحزن عليه حزناً شديدا ، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره فى موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكى بدمع غزير واحتجب فى داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته ، والحزن يشمل الخاصة والقصر كله ، وأفاض الشعراء فى رثاء الوزير الراحل ومديحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ، وعلى الجملة لقد سما ابن كلس فى ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة .. ومهما كان فإن تلك الخطوة الأولى فى ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير فى تطور الغاية التى علقتها الخلافة الفاطمية بادىء ذى بدء على إنشاء الجامع الأزهر ، فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبرا لدعوتها(١) .

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً . ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب ، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع ، فيحدثنا المقريزى أن العزيز بالله « خلع عليهم فى يوم عيد فطر وحملهم على بغلات » . ولم يكن الأزهر فى ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب ، بل كان للمرأة فيه نصيب فكن يفردن فيه بمجلس خاص(٢) .

وهكذا آلت تلك الحركة العلمية الميمونة إلى الأزهر ، وازدهرت فيه وترعرعت حتى تخرج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الاسلامى عامة ، ومصر خاصة .

ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلعة بمهمتها ، حتى نبه ذكرها وذاع صيتها ، وأمها الطلاب من كل فج ، ليغترفوا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ، وانحدر إليها العلماء من كل صوب ، ليسهموا فى النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت فيها أنواع العلوم

---

(١) راجع فى هذا البحث وما يتعلق به : خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ج ٣ ص ٧ — ١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ؛ والاشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦ .

والفنون ، وأمدت العالم الاسلامى بما هو فى حاجة إليه .

ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه بالعناية والرعاية ، ويغدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات، ويذهبون إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، مما كان له الأثر البالغ فى حفزهم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للعلم .

الفصل الرابع

الأزهر فى ظلال الفاطميين

تمهيـــد :

مما تقدم نعلم أن الأزهر بدىء فى بنائه فى ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ - إبريل ٩٧٠ م ، وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة ٧ رمضان ٣٦١ هـ : ٩٧٢ م ، وبدأ نظام الحلقات العلمية فيه من عام ٣٦٥ هـ : ٩٧٦ هـ ، وصار جامعة إسلامية كبيرة من عام ٣٧٨ هـ : ٩٨٨ م .

وإن الفضل فى ذلك يرجع إلى المعز وقائده جوهر ، ثم إلى أسرة القاضى النعمان الشيعى ، ثم إلى الوزير يعقوب بن كلس .

وكان المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة ، وقد تكون تسميته بالجامع الأزهر قد تأخرت قليلا عن التسمية الأولى ، ويرجع عنان(١) أن اسم « الجامع الأزهر » أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمى اسم الجامع الأزهر ، واستمر مسجد القاهرة الجامع يعرف باسم جامع القاهرة(٢) أو الجامع الأزهر ، حتى عصر المقريزى فى أوائل القرن التاسع ، ثم تقلص الاسم القديم - جامع القاهرة - شيئا فشيئا وغلب عليه اسم الجامع الأزهر ، أو جامع الأزهر حتى عصرنا .

ولا بد أن يكون الأزهر قد أسـهم فى الحركة العقلية والعلمية فى عصر المعز

---

(١) ٢٠ تاريخ الجامع الأزهر لعنان .

(٢) ورد فى أخبار العزيز بالله أنه أقام طعاما فى جامع القاهرة - وهو الأزهر الشريف - لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان .

والعزيز بالله ، وأن يكون أعلام الدين واللغة والأدب قد اتخذوا منه حلقة علمية منظمة .

فلقد جاء قوم من علماء المغاربة فى ركب المعز ، ومن أشهرهم النعمان بن محمد الذى تولى القضاء فى مصر هو وأولاده وأسرته عهدا طويلا فى ظلال الحكم الفاطمى ، وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة والتأليف فى المذهب الشيعى ، وتتخذ من الأزهر مكانا مختارا لنشاطها العلمى ، وكذلك ابن كلس الذى أشرف على تنظيم الأزهر تنظيما جامعيا علميا عاليا .

ومن أشهر العلماء الذين شهدوا عصر المعز والعزيز : ابن زولاق المصرى المؤرخ(١) (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ) ، وعبد الغنى المصرى (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ) وكان حافظ مصر فى عصره(٢) ، والحسن بن الهيثم المصرى الفيلسوف(٣) واشتهر بعد عصر العزيز وتوفى عام ٤٣٠ هـ ، وابن يونس المصرى المنجم المتوفى عام ٣٩٩هـ(٤) والحوفى النحوى المتوفى عام ٤٣٠ هـ(٥) . . ولاشك أن هؤلاء العلماء وغيرهم قد كانت لهم حلقات فى الأزهر .

ومن الأدباء والشعراء فى هذا العهد أبو الرقعمق المتوفى عام ٣٩٩ هـ الشاعر(٦) وابن وكيع الشاعر المتوفى عام ٣٩٣ هـ(٧) ، والتهامى الشاعر المتوفى عام ٤١٦هـ(٨) والمسبحى المصرى الكاتب (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ)(٩) ، وأبو القاسم(١٠) عبد الغفار شاعر دولة العزيز والحاكم وقتله الحاكم عام ٣٩٥ هـ .. ولا شك أن هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا يحفلون بإلقاء ثمرات قرائحهم على تلاميذهم فى حلقات الأزهر العلمية الحافلة(١١)

---

(١) ٢٣٨ جـ ١ ابن خلكان ، ٢٢٥ - ٢٣٠ جـ ٧ معجم الأدباء . . وله كتاب فى سيرة المعز وآخر فى سيرة العزيز . (٢) ٥٤٧ جـ ١ ابن خلكان .

(٣) ١١٤ و ١١٥ أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى .

(٤) ٨٥ و ٨٦ جـ ٢ ابن خلكان . (٥) ٦ جـ ٢ المرجع نفسه .

(٦) ٧٠ و ٧١ جـ ١ المرجع نفسه ، ٣١٠ - ٢٣٤ جـ ١ اليتيمة .

(٧) ٢٤٣و٢٤٤ جـ ١ « « ، ٣٥٦ - ٣٨٤ جـ ١ «

(٨) ٥٣ - ٥٥ جـ ٢ « « (٩) ٣٤٢ - ٣٤٣ جـ ٢ المرجع نفسه .

(١٠) ٣٩٦ جـ ٣ المرجع نفسه .

(١١) ويروى أن النساء كن يحضرن فى الجامع الازهر (٢٢٦ جـ ٢ الخطط للمقريزى)

الأزهر فى عصر الحاكم :

وفى عصر الحاكم(١) استمر الازهر يؤدى مهمته العلمية ، وإن كان الازهر فوجىء بإقامة الخليفة جامعة جديدة سماها « دار الحكمة » أو دار العلم الشهيرة فى سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م .

ولكن الأزهركان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التى أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ، ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فإنها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها فى الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها وضعف نفوذها العلمى ، هذا بينما كان الأزهر يسير فى سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ولكن محققة ، ويسير فى نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التى كادت فى البداية أن تقضى على صبغته الجامعية الصحيحة :

وقد وقف الحاكم وقفية على الأزهر ودارالحكمة وغيرهامن المساجد ، وجامع الحاكم ، وجامع المقس ، وجامع راشدة ، لإقامة الشعائر الدينية فيها ، وصيانة مبانيها وهذا هو نص الاشهاد الشرعى على هذه الوقفية :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر ، ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم — أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها ، والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم : ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها . فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشده ودار الحكمة بالقاهرة

(١) ولد بالقاهرة عام ٣٧٥ هـ وتولى الخلافة عام ٣٨٦ هـ وقتل عام ٤١١ هـ

المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذى كله بفســطاط مصر . ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار . ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى بحدود ذلك كله وأرضه ، وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ، ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة ، لايجوز بيعها ولاهبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسماوات ، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى اليه ولايتها ويرجع إليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها ، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته ، من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوما على ستين سهما .

من ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الاشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته ، وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار ، ومن ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا ، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر دينارا ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس

هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة خمسة دنانير ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار ، ومن ذلك لثمن إردبين ملحا للقناديل ربع دينار ومن ذلك ماقدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا ، ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ، ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون دينارا ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف ، منها للمصلين ، ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة ولكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هـذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا . ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل مايخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هـذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن بوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينارا ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا » .

وإلى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر ، وأخذ فى ذكر الجامع براشدة ، ودار العلم ، وجامع المقس ، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا من الفضة ، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ، وشرط أن تعلق فى شهر رمضان ، وتعاد إلى مكان جرت العادة أن تحفظ فيه .. وشرط بعد ذلك فى الوقف شروطا كثيرة ليس هنا مقام ذكرها

وقد أسس الحاكم جامعه المشهور عام ٣٩٣ هـ ، وخطب فيه وصلى فيه بالناس الجمعة

وكانت دار الحكمة التى أنشأها مدرس فيها علوم القرآن واللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها ، واجتذبت الجامعة الجديدة إليها كثيرا من أعلام المشرق كالرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر مدى قرن من الزمان ، حتى أغلقت .

مشاركة الأزهر فى الحياة العقلية فى عصر الفاطميين

كان للأزهر نشاط ضخم فى الحياة العقلية والعلمية فى العصر الفاطمى كله حتى نهايته عام ٥٦٧ هـ .

ولقد جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر مع نفوذها السياسى بحركة علمية قوية فقدمت حركة العلم والأدب والفن فى مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئا بجانبها ما كان فى العهد الطولونى والأخشيدى ، ويصح أن توازن بما كان فى العراق ولا سيما العلوم العقلية والفلسفية ، فقد ازدهرت فى مصر وسارت شوطا بعيدا . . نعم نشطت الحركة العقلية فى مصر والشام فى هذا العصر نشاطا كبيرا ، وذلك بفضل الأزهر ودار العلم وحلقاتهما العلمية ؛ وعنيت الدولة بدور الكتب ونشر العلم ، وتشجيع العلماء ، فظهر الكثير من المؤرخين والفلاسفة والعلماء والرياضيين واللغويين والنحويين والأدباء ، ومنهم الأدفوى تلميذ أبى جعفر النحاس(١) المصرى ، الذى توفى عام ٣٨٨ هـ ، وابن بابشاذ(٢) ، وابن القطاع النحوى م ٥١٥ هـ(٢) المتوفى عام ٤٦٩ هـ وسواهم .

ويقول المقريزى : « إن أول مادرس بالأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة » ولقد كان ممن ألقى محاضراته فى الأزهر المؤيد الشيرازى داعى الدعاة الذى ناظر فيها المعرى فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى ، وكان الشيرازى شاعرا كتب إلى المستنصر لما حسده الحساد باحتجاب الخليفة عنه بعد قدوم الشيرازى إلى مصر :

كتب المؤيد الشيرازى :

أقسم لو أنك توجتنى ... بتاج كسرى ملك المشرق
وأنلتنى كل امور الورى ... من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لانلتقى ساعة ... أجبت يامولاى أن نلتقى

---

(١) توفى أبو جعفر النحاس عام ٣٣٨ هـ (٢٢٨ جـ ١ حسن المحاضرة) .
(٢) ٢٢٨ جـ ١ حسن المحاضرة .

لأن إبعادك لى ساعة شيب فودىّ مع المفرق

فأجاب المستنصر بالله بخطه :

ياحجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى
ماغلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملالا فثق بودنا وارجع إلى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهم ماشئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخراً فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لايوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى

وللشيرازى محاضراته التى ألقاها فى الأزهر مناظرا أبا العلاء المعرى .

وله مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها : كتاب الابتداء والانتهاء ، وكتاب المسألة والجواب ، وكتاب نهج العبادة ، وشرح المعاد ، والمسائل السبعون ، ونهج الهداية للمهتدين ، وأساس التأويل بالفارسية ، والسبح السبع ، والإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ، وتأويل الأرواح ، والمجالس المستنصرية . وقد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة ، إنما كانت ملخصاً لدروس طويلة فيما يظهر فلعله كان يكتبها بعد إلقاء الدرس وتفهيمه على سبيل التسجيل والحفظ ، لتكون هامة لينتفع القارىء ، كما استفاد السامع .

وهذه هى المحاضرة الأولى من محاضراته :

الحمد لله الذى نظم بين الإنسان والبهائم أن خلقهم من طين ، ثم جعل نسلهما من ماء مهين ، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى فى أخلاط الصورة الانسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ، ماعرج به أعلا المعارج من الفضل والعلياء ، فصار ممن قال الله سبحانه فيه ـ ومن أصدق منه قيلا ـ « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، فاستنزل بتدبيره الطير من الهواء واستخلص الحدث من لج الماء ، واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعا ، فمنها ما انتفع بلحومها ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعا ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصورا فى سرادق فكره ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصورا فى سرادق ملكته وأسره ،

فهذا منفوعه الذى نفعه الله به فى الدار الأولى ، ثم جعله سلما يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى . فلولا نور استبصاره بالعقل ، لما كانت رسالة عن مرسل تقبل، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد خير رسول ، استنار بنور سراجه ، وسار على واضح منهاجه ، وعلى وصيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلا معراجه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله ممن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم ، إن قوما من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التى هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة على غير العقل موضوعها . وفى سوى موقعه وقوعها فلو أنهم أنعموا النظر ، وجردوا من شوب العصبية والهوى الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شىء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله ، إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه ، لاستشاط من ذلك غضبا ، ولقام له مكذبا ، وفى مثل هذه المواجهة مستذنبا ، فكيف يرضون للأنبياء الذين هم سادات دينهم ، والوسائط بينهم وبين ربهم مالو قابلهم بمثله مقابل لكرهوه ، أم كيف لا يتدبرون أن الخطاب فى كتاب الله كله مع أولى الألباب بقوله الله تعالى : « فاتقوا الله يا أولى الألباب » وقوله « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » ، وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية ليس لها برهان من العقل عند الرسول عليه السلام ، لأتى بها نفسه أو كون البرهان عنده فلم يشعر به ، فإن كان لا برهان لها عنده فهو خشن ، فلو أن سائلا سأله عن العلة التى اقتضت أن يجعل الصلاة خمسا ، ولا يجعلها ستا ، فكان يقول لا أدرى ، لكفاه طعنا أن يأتى بشىء لا يدرى العلة فيه إذا سئل عنها ، وإن كان لها برهان عند نفسه عقلى — والبرهان مما يحمل الأقوال والأفعال — ثم لم يظهره فلم يقم إذن بحق البلاغ ، وهذا منتف عن الرسول عليه السلام ، لأنه بلغ وقال فى النادى : « اللهم اشهد أنى بلغت » وسوى هذا فمعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكلف تكليف الشريعة إلا ذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه على غير عقل ، لأن ما كان موضوعه

على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل ، وما السبب فى تولية العقل أولا وعزله آخرا ؟ ولماذا لا تكون التولية آخرا ككونها أولا ، أو العزل أولا ككونه آخرا ؟ وهذا مما لاخفاء به على منصف .

والمعلوم أن الفلاسفة يدعون العلوم العقلية والأمور الحقيقية ، وأن المسلمين يكفرونهم مع ذلك ، لانقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم أنهم غنوا عن الأنبياء فى معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة إليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحصين الدماء والأموال ، ومنع القوى عن الضعيف . واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التى منها العقليات التى يدعونها فى علوم الأنبياء اجتمعت ، ومنها تشعبت وتفرعت ، وتصديقهم قول الله سبحانه « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وقوله جل جلاله « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ، فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، يسأله عن الملائكة ، والعرش ، والكرسى ، والجنة ، والنار ، وأوضاع شريعته : من صلاتها ، وزكاتها ، وصومها ، وحجها ، وجهادها ، من حيث يدل عليه البرهان العقلى ، أكان يقول النبى ﷺ ، لاقبل لى ببرهان ذلك ! حاشا لله .. وقول آخر مأثور عن النبى ﷺ أنه قال « أول ماخلق الله تعالى العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أجل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب » .. فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها ، فلا ثواب لها ولا عقاب على مقتضى الخبر ، « بك أثيب وبك أعاقب » .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف ، فإنهم أشياع غى بقول الله تعالى لنبيه ﷺ « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » : وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت بالأهلة ، وأصلحوا أموالكم ، وطهروا سرابالكم واحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصارا والناس عنها عمون ، وكشف لكم حجبا فانتم فى رياضها تتنعمون . واجروا فى مضمار التائبين العابدين واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الافعال صامتين وقوموا آناء الليل قانتين . جعلكم الله من الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وأوزعكم شكر عارفيه . إذ ألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا . والحمد لله القاهر سلطانه . الباهر برهانه . العظيم شانه . الواسع إحسانه . وصلى الله على محمد المنزل عليه فرقانه . المزلزل للشرك بنيانه . وعلى وصيه الذى هو مستودع علمه وترجمانه على بن أبى طالب بيده يد الحق . والناطق بلسانه لسانه . وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه . وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولقد أصيبت الحياة العقلية فى مصر الاسلامية بكثير من الاضطراب والضعف فى أواسط القرن الخامس الهجرى كما يقول عنان ، أى منذ اضطربت شئون الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر بالله ، ونكبت مصر بالشدة العظمى ، وعانت عسف القحط والوباء أعواما طويلة (٤٤٦ — ٤٦٤هـ) ، وشغل المجتمع المصرى حينا بما توالى عليه من الأرزاء والمحن ، وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وتدبير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهد الحركة الفكرية ، وقترت الدولة على معاهد التعليم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة وكانت من أنفس وأعظم ما عرف العالم الاسلامى(١) . . وكان لهذا الاضطراب أثره فى الأزهر ودار الحكمة فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعا لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة . وفى أواخر القرن الخامس فى عصر أمير الجيوش بدر الجمالى المتغلب على الدولة (٤٦٥ — ٤٨٧هـ) وولده الأفضل شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) عاد النظام والأمن والرخاء إلى البلاد ، وانتظمت الحياة العامة ، واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية ، وما بذل للانفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق .

ويقول عنان : كان نظام الحلقات العلمية وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة فى مصر الاسلامية وفى معظم الأقطار الاسلامية الأخرى ، وكان قوام الحياة الجامعية والفكرية فى العالم الاسلامى ... وكان طبيعيا أن الأزهر حينما أتيح له أن يدخل هذا الميدان الدراسى ، أن تقوم الدراسة فيه وفقا لهذا النظام التقليدى المتوارث . ولم يك ثمة نظام آخر يمكن التفكير فيه فى عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس بعد .. وهكذا بدأت الدراسة فى الأزهر فى حلقات علمية وأدبية ، واستمرت كذلك على كر العصور . وعقدت أول حلقة للدرس بالأزهر فى صفر سنة ٣٦٥ هـ كما تقدم ، وعقدها قاضى القضاة على بن النعمان وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو الكتاب المسمى « الاقتصار » فى جمع حافل أثبتت فيه أسماء الحاضرين . وفى سنة ٣٧٨هـ أذن العزيز بالله لوزيره ابن كلس أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة ، وكانوا يعقدون « حلقاتهم » الدراسية بالجامع يوم الجمعة من بعد الصلاة إلى العصر ، وهم أول أساتذة أجريت عليهم من الدولة رواتب خاصة حسبما قدمنا . وفى هذين النصين القديمين ما يوضح لنا نظم الدراسة الأساسية بالأزهر ، وهى نظم

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥٤ .

كان قوامها الحلقة الدراسية ، فيجلس الأستاذ ليقرأ درســه فى حلقة من تلاميذه والمستمعين إليه ، وتنظم الحلقات فى الزمان والمكان طبقا للمواد التى تدرس، ويجلس أستاذ المادة من فقه أو حديث أو تفسير أو نحو أو بيان أو منطق أو غيرها فى المكان المخصص لذلك من أروقة الجامع أو أبهائه ، وأمامه الطلبة والمستمعون يصغون إليه ويناقشونه .

وكان الأزهر مذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم يقصد اليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يضم بين طلبته دائما إلى جانب الطلاب المصريين عددا كبيرا من أبناء الأمم الاسلامية يتلقون الدراسة ، وتجرى عليهم الارزاق ، وتقيم كل جماعة منهم فى مكان خاص بها . وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذى نعتقد أنه بدأ فى عصر مبكر جدا(١) ، والذى استمر قائما حتى العصر الاخير ، وما زالت منه إلى اليوم بقية بالجامع الازهر . ومعظم سكان الاروقة الباقية اليوم من الطلبة الغرباء . ويذكر المقريزى أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلازمون الإقامة بالازهر فى الاروقة الخاصة بهم فى عصره - أعنى فى أوائل القرن التاسع - بلغ سبعمائة وخمسين ، مابين « عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة » ، وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد الذى كان يضمه الازهر بصفة عامة من طلاب مصر وطلاب الامم الاسلامية المختلفة فى تلك العصور .

أما مواد الدراسة بالازهر فى هذا العصر فلا ريب — كما يقول عنان — أن علوم الدين واللغة كانت فى المقدمة دائما ، وكان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر قسط ، فعلوم القرآن والحديث والكلام والأصول والفقه على مختلف المذاهب ، وكذلك علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ثم الأدب والتاريخ، هذه كلها كانت زاهرة بالازهر خلال العصور الوسطى .

وقد كانت الصبغة المذهبية تغلب كما رأينا على الدراسة بالازهر ولا سيما فى بداية عهدها ، ولم يك ذلك غريبا فى ظل دولة كالدولة الفاطمية تتشح بثوبها المذهبى العميق وكان من الطبيعى أيضا أن تحتل علوم الشيعة وفقه آل البيت من حلقاته الدينية المقام الأول ، بيد أنه يمكن أن يقال من جهة أخرى إن هذه الصبغة المذهبية لم تكن دائما

(١) يستفاد من أقوال المقريزى أن نظام الاروقة قد بدأ بالازهر منذ بناء الجامع ذاته (الخطط ج٤ ص٥٤)

مطلقة ، ولم تكن دائما لزاما على الطلاب . ونحن نعرف أن الخلافة الفاطمية على الرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصرى إلى جانبها فى هذا المضمار ، ولم تحاول دائما أن تجرى على سياسة الارغام فى طبعه بطابعها ، وفى فرض لونها المذهبى على عقائده ، بل نراها فى أحيان كثيرة تلجأ فى ذلك إلى سياسة الرفق والتسامح . ولنا فى ذلك دليل فى المرسوم الدينى الذى أصدره الحاكم بأمر الله — وهو من غلاة الخلفاء الفاطميين — فى سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٨م) وفيه يقرر بعض الاحكام ويفسرها على أثر ماوقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف فى فهمها ، ويحاول أن يوفق فى ذلك بين المذاهب المختلفة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة :

« يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين بما جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده ، وعنده كتابه وعليه حسابه . ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمد ، من جميع مانصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) .

وكانت الدراسة فى دار الحكمة ذاتها وهى الجامعة الفاطمية المذهبية حرة تدرس فيها علوم السنة إلى جانب علوم الشيعة ، وقد تحررت كثيرا من صبغتها المذهبية حينما أعيدت بعد إغلاقها فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ، فمن الواضح إذاً ان الدراسة بالازهر كانت حتى فى الوقت الذى يشتد فيه تيار الدعوة المذهبية تحظى دائما بقسط من الحرية تزيد أو ينقص وفقا للظروف والاحوال . وكانت دار الحكمة تستأثر بعد ذلك بتدريس العلوم الدينية . بيد ان هذه الصبغة المذهبية خفت وطأتها ... وأخذ الازهر بنصيبه من العلوم بجانب الدين .

هذا وأما عن الكتب الدراسية التى كانت تدرس بالازهر فى العصر الفاطمى ،

---

(١) راجع نص هذا المرسوم بأكمله فى ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

فليس لدينا أيضا سوى إشارات موجزة جدا . وأول كتاب درس بالازهر هو كتاب «الإقتصار» الذى وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه آل البيت ، وكان يتولى قراءته وتدريسه بالأزهر ولده أبو الحسين على بن النعمان كما قدمنا . واستمر فى قراءته مدى حين على يد بنى النعمان الذين تعاقبوا فى قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان للنعمان القيروانى كتب أخرى فى فقه الإمامية (الشيعة) ذكر ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله أسماءها وهى كتاب « دعائم الاسلام » ، الذى عنى بتدريسه فى الأزهر فيما بعد عناية خاصة ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » وكتاب « الأخبار » وكتاب اختلاف الفقهاء » ومن المرجح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالازهر إلى جانب كتاب « الاقتصار » حتى أواخر القرن الرابع (١) .

وقد انتهى إلينا بعض هذه المؤلفات الشيعية التى افتتحت بها الدعوة إلى دراسة فقه الامامية بمصر . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة من المجلد الاول من كتاب « دعائم الاسلام » ، وعنوانه الكامل « دعائم الاسلام فى الحلال والحرام والقضايا والاحكام ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله » . ويقول النعمان القيروانى فى ديباجته : «إنه لما اضطربت الاحكام واختلفت المذاهب وانقلبت أوضاعها ، رأى عملا بقول رسول الله : « إذا ظهرت البدع فى أمتى فليظهر العالم علمه » أن يضع كتاباً جامعا مختصراً بما جاء عن الائمة من أهل بيت رسول الله ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم فى دعائم الاسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والاحكام . وهذه الدعائم حسبما ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق هى « الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد» ، وهى الموضوعات التى يتناولها المجلد الأول من الكتاب .

وتوجد بدار الكتب نسخة مصورة قديمة من كتاب « الأخبار » أو « شرح الاخبار » ، وقد ذكر النعمان القيرانى موضوعه وطريقة تأليفه فى مقدمته فيما يأتى : « أثرت منه الاخبار وجمعت منه الآثار فى فضل الأئمة الابرار حسبما وجدته ، وغاية ما أمكننى واستطعته ، فصححت ما بسطته فى كتابى هذا وألفته ، بأن عرضته على ولى الأمر وصاحب الزمان والعصر ، مولاى المعز لدين الله أمير المؤمنين عليه السلام وعلى سلفه وخلفه، وأثبت منه ما أثبته وصح عنده وعرفه وأثره عن الأئمة الطاهرين

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩ .

وأجاز لى سماعه منه ، وبأن أرويه لمن يأخذه عنى وعنه عليه السلام ، فبسطت فى هذا الكتاب ما أثبته وأجازه وعرفه ، وأسقطت ما أنكره من ذلك ، وذلك مما نسبه إلى أهل الحق المبطلون وحرف من قولهم المحرفون » .

ثم قرىء بالأزهر كتاب ألفه الوزير ابن كلس فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية مما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله والعزيز بالله ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ، وكان يجلس لقراءته وتدريسه بنفسه حسبما قدمنا . وأفتى الناس بما فيه(١)

فالكتب الأولى التى قررت للتدريس بالأزهر هى كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية أعنى من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها ، وكان لها صبغة رسمية واضحة . وكان التدريس بالازهر يجرى يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية . وشدد فى ذلك بادىء ذى بدء حتى إنه فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فى عهد العزيز بالله ، قبض على رجل وجد عنده كتاب « الموطأ » للامام مالك . وجلد من أجل إحرازه (٢)

وفى سنة ست عشرة وأربعمائة ، أمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم بامر الله بأن يدرس الدعاة للناس كتاب « دعائم الإسلام » ، وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظهما مالا(٣) والدعاة هم أساتذة دار الحكمة وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر فى أحيان كثيرة(٤) وقد عرفنا موضوع كتاب « دعائم الإسلام » وعرفنا مؤلفه . أما « مختصر الوزير » فيلوح لنا أنه هو مؤلف ابن كلس أعنى « الرسالة الوزيرية » .

والمرجح أن كثيراً من الكتب الفقهية التى كانت تدرس بدار الحكمة كانت تدرس أيضاً بالأزهر كما يقول عنان ، وإن كنا لم نعثر على نصوص أو بيانات أخرى تلقى ضوءاً على أنواع الكتب التى كانت تدرس بالأزهر فى هذا العصر فى العلوم الأخرى . وكانت تشمل مصنفات أعلام الاساتذة المعاصرين الذين انتهت إليهم الرياسة فى بعض العلوم أو الذين تولوا التدريس بالأزهر يومئذ ، مثل العلامة أبى الحسن على بن إبراهيم الحوفى إمام العربية والنحو وصاحب كتاب إعراب القرآن وابن بابشاذ النحوى صاحب كتاب « المقدمة » و« شرح الجمل » ، وابن القطاع اللغوى

---

(١) راجع الاشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ، والخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٧ . (٣) الخطط ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) الخطط ج ٣ ص ٢٢٦ ، تاريخ ابن ميسر ص ٦٤ .

صاحب كتاب « الافعال » ، وأبى محمد عبد الله بن برى المصرى إمام اللغة فى عصره ، وأبى العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرىء ، وأبى القاسم الرعينى الشاطبى إمام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة فى علم القراءات « حرز الامانى ووجه التهانى »(١) ، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرياسة فى هذا العصر ، واعتبرت مصنفاتهم متونا ومراجع . بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئك الأئمة تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير مثل قصيدة الشاطبى فى القراءات .

على أن كثيراً من الكتب التى ألفت ودرست فى هذا العهد ، قد دثر بانتهاء الدولة الفاطمية وحرص الدولة الأيوبية التى خلفتها ، على محو رسومها وآثارها .

هذا وقد عنيت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمى مكتبة جامعة يفيض المؤرخون كما يقول عنان فى وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ، وكان بها ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى سائر العلوم والفنون ، فى الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . وقال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر »(٢) . وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد كبير من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة(٣) .

وكانت فى الواقع خلفاً لمكتبة الاسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الازهر مكتبة خاصة به ، وكانت المساجد الجامعة تزود فى هذه العصور بمجموعات من الكتب ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الازهر كان له من خزائن الكتب نصيب حسن ، وكانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة ، فإن

(١) توفى الحرفى سنة ٤٣٠ ه وابن بابشاذ سنة ٤٦٩ ه وابن القطاع سنة ٥١٥ ه وابن برى سنة ٤٩٩ ه وابن هاشم سنة ٤٤٥ ه . والشاطبى سنة ٥٩٠ ه .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٥ . ولعله لم يفق المكتبة الفاطمية فى ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التى بلغت ذروتها فى عهد الحكم المستنصر بالله . وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستمائة ألف مجلد .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٢٣٤ .

ابن ميسر يقول فى أخبار سنة ٥١٧ ﻫ إنه قد أسند إلى داعى الدعاة أبى الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب(١) ؛ وإسناد الإشراف على خزانة الكتب إلى داعى الدعاة ، وهو أكبر رئيس دينى بعد قاضى القضاة ، دليل على قيمتها وأهميتها .

وكان فى مقدمة الأساتذة المدرسين فى الأزهر بنو النعمان قضاة مصر ، فكان القاضى أبو الحسن على بن النعمان أول من درس بالأزهر ، وكان فوق تضلعه فى فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفى سنة ٣٧٤ ﻫ ، ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضى محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ ﻫ ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضى الحاكم بأمر الله(٢) . ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ ﻫ) ، كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صديق ولده العزيز من بعده . ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمى الجديد ، كما يقول عنان .

وهناك من أعلام الفكر والأدب فى هذا العصر من كانت لهم صلة علمية بالأزهر فتلقوا دراستهم كما يقول عنان أو تولوا التدريس فيه ، فنهم المسبحى الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ ﻫ ، وتوفى سنة ٤٢٠ ﻫ . وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ، تولى الوزارة الحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط فى مختلف علوم عصره ، ومن المعقول أن يكون المسبحى وهو من أولياء الدولة الفاطمية وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين : دار الحكمة والأزهر . وشغف المسبحى بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب ، وذكر نيلها وإقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولم يصلنا هذا الأثر الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة

---

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣ . وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨ ، وذيل قضاة مصر (ملحق كتاب الكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ .

هذا الأثر ونفاسته . وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكننا لم نتلق شيئاً منها(١) .

ومنهم أبو عبد الله القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ، وهو محمد بن سلامة ابن جعفر : ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ ه . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرة قسطنطينية سنة ٤٤٧ ه (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث وكتاب « مناقب الإمام الشافعى » و « أنباء الأنبياء » و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره(٢) .

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد وكان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل مدة طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب ، منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته فى سنة ٤٣٠ ه .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ ه .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو وألف فيهما عدة كتب ضخمة واشتغل حيناً بديوان الانشاء فى عهد المستنصر بالله وتوفى سنة ٤٦٩ ه .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى ، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٢٠ ه .

---

(١) راجع فى ترجمة المسبحى ، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) راجع فى ترجمة القضاعى ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ . والسبكى فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ ه ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ .

وبعد فقد كان الأزهر بحق أعظم مؤسس لصرح الحياة العقلية والثقافية فى عصر الفاطميين .

ونذكر فى هذه المناسبة أن ممن عهد إليهم فى التدريس فى الأزهر عند إنشائه القاضى على بن ميمون المتوفى ٣٧٤ ﻫ — ٩٨٤ م وأخوه القاضى محمد المتوفى عام ٣٨٩ ﻫ — ٩٩٨ م . وقد نبغ الحافظ السلفى المتوفى عام ٥٧٦ ﻫ ولاشك أنه كان له نشاط علمى فى الأزهر .

ونحن نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبية والفلكية والجغرافية تلك العلوم التى انشأوا لها فى عهد الحاكم سنة ٣٩٥ ﻫ مؤسسة خاصة أسموها دار الحكمة ، وهذا مما يرجح فى نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة فى الأزهر أيضا ، بالاضافة إلى العلوم الأخرى . غير أنه ليس من شك أن الصدارة والشطر الأكبر من العناية كانتا للعلوم النقلية الدينية ولاسيما علوم قانون الشريعة .

نعم إنه فى عهد الدولة الفاطمية ـ أعنى فى غضون قرنين كاملين ـ اقتصر التعليم الدينى على المذهب الشيعى ، فأصبح هو المذهب السائد فى التطبيقات العلمية والأحكام القضائية ، وصارت مذاهب أهل السنة مجهولة ، بل كانت كتبهم تصادر فى بعض الأحيان .

الأزهر جامع الدوله الرسمى :

فى يوم عيد الفطر سنه ٣٦٢ ﻫ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر عقب مقدمه إلى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، كما يقول عنان (١) ـ إلى الجامع الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس (٢) ، وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمى بالجامع الأزهر .

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمى فى ظل الدولة الفاطمية زهاء أربعين عاما تقام فيه الجمع الرسمية ، ويخطب الخليفة فيه بنفسه فى جمع رمضان وفى الأعياد ، حتى تم إنشاء الجامع الحاكمى أو الجامع الانور فى عصر الحاكم بأمر الله ، وكان الخليفة العزيز بالله قد بدأ بإنشائه منذ سنة ٣٨٠ ﻫ ، وشهد به الجمعة فى رمضان وخطب فيه غير مرة ، ولكنه توفى قبل إتمامه ، فعنى ولده الحاكم بأمر الله بإتمامه منذ سنة ٣٩٣ ﻫ ، واستغرق بناؤه عشر سنين . ولما تم بناؤه عنى الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية

(١) ص ٩٥ الأزهر لعنان .

(٢) المقريزى عن ابن زولاق فى اتعاظ الحنفاء ص ٩٢ .

كبيرة ، وزين بالستور الفخمة والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة الرسمية فى رمضان سنة ٤٠٣ هـ وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوما مشهوداً (١) ، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة فى جامع الحاكم منافساً ينازعه الصفة الرسمية التى استأثر بها حتى ذلك الحين . وكانت الجمعة الرسمية تقام أيضا من وقت إلى آخر فى بعض المساجد الفاطمية الأخرى ، مثل جامعى راشده والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله ، وكانت الخطب الخلافية تلقى فى الأزهر والجامع الحاكمى ، وكذلك فى جامعى عمرو وابن طولون اللذين لبثا يحتفظان دائما بهيبتهما القديمة (٢) . بيد أن الجامع الأزهر لم يفقد من جراء هذه المنافسة مكانته الخاصة ، بل كان دائماً يعتبر فى نظر الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة مسجد الدولة الأول .

وكانت إقامة الجمعة والصلوات الموسمية الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبية الرسمية التى أسبغتها عليه الخلافة الفاطمية ، وقد رأينا فيما تقدم أن الجامع الأزهر أنشىء ليكون رمزاً لإمامة الدولة الجديدة ومنبرا لدعوتها ، وقد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظا بهذه الصفة بالرغم من قيام عدة أخرى من المساجد الفاطمية الجامعة التى نافسته فيما بعد فى إقامة الجمعة والصلوات الموسمية ، وكان الخليفة يشهد الصلاة أيام الجمع والأعياد الموسمية ، ويخطب فيها بنفسه فى أحيان كثيرة ، وكانت خطبة الجمعة الرسمية ماتزال على عهدها تلقى بالجامع الأزهر حتى أواخر الدولة الفاطمية (٣) .

وكان الخليفة يلقى خطب الجمعة فى شهر رمضان بالجامع الأزهر قبل إنشاء الجامع الحاكمى وغيره من المساجد الفاطمية الجامعة ، وكان يستريح الجمعة الاولى ويلقى الخطبة فى الجمع الثلاث الأخيرة . وكان يركب إلى الصلاة فى هيئة مخصوصة ويؤديها وفقاً لرسوم وتقاليد معينة ، وقد انتهت إلينا من أقوال المؤرخين المعاصرين نبذ شائقة فى وصف هذه المواكب والرسوم المذهبية الفخمة ، فمثلا يقول لنا المسبحى فى حوادث سنة ٣٨٠ هـ ما يأتى :

« وفى يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله إلى جامع القاهرة بالمظلة الذهبية ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش وبيده القضيب ، وعليه الطيلسان

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٣) راجع النجوم الزاهرة ٥ ص ١٧٦ حيث يذكر ان خطبة الجمعة كانت تلقى بالازهر حتى عهد الآمر باحكام الله (٤٩٦ - ٥٢٥ هـ) .

والسيف ، فخطب وصلى صلاة الجمعة وانصرف ، فأخذ رقاع المتظلمين بيده وقرأمنها عدة فى الطريق ، وكان يوما عظيما ذكرته الشعراء » (١)

وكان الجامع الأزهر يستأثر منذ عهد المعز لدين الله حتى قيام الجامع الحاكمى بالخطب الرسمية الثلاث فى جمع رمضان ، ثم كانت تلقى هذه الخطب بعد ذلك على الترتيب الآتى : الأولى بالجامع الحاكمى (أو الجامع الانور) ، والثانية بالجامع الازهر ، والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو ، وقد نقل المؤرخون المتأخرون عن ابن الطوير وغيره من المؤرخين المعاصرين هيئة صلاة الجمعة فى هذه الأيام المشهودة . وبيان ذلك - كما يقول عنان - أن يركب الخليفة فى موكبه الفخم إلى الجامع ويخرج من باب الذهب والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه ، وقد ارتدى ثياب الحرير الابيض الساذجة توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة ، وبين يديه القراء يرتلون منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركابية . وإذا كانت الصلاة بالجامع الأزهر فإنه يخرج فى موكبه إلى الجامع من باب الديلم الذى غدا باب المشهد الحسينى فيما بعد ، ويعبر « الخوخ » (الدروب) السبع إلى رحبة الجامع الأزهر ، وكانت هذه الرحبة ساحة شاسعة تقع فى الجهة البحرية من الجامع ، وكان يحتشد فيها الجند كلما قصد الخليفة إلى الأزهر ، ثم يدخل الخليفة الجامع من بابه البحرى ، ويجوز إلى الدهليز الأول الصغير ، ومنه إلى القاعة المعلقة التى كانت برسم جلوسه فيجلس فى مجلسه ، وترخى المقرمة الحرير وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم . ويقرأ المقرئون وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ، ووضع الحجاب عليها قبل مقدم الخليفة ، وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتى صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولا بأيدى الفراشين المميزين ، ملفوفاً فى العراضى الديبقية ، فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات فاخرات واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمنة ويسرة يكتب فى أولها بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب فى الستر الثانى سورة المنافقين كتابة واضحة ، فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ، وعندئذ يصعد قاضى القضاة إلى المنبر وفى يده مدخنة لطيفة من

---

(١) المقريزى عن المسبحى فى الخطط جـ ٤ صـ ٦١ .

الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ، ويبخر بها أعلى المنبر وهو يقبل درجاته . ثم يدخل مقصورة الخليفة مسلماً بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف — القاضى — الخطيب ورحمة الله وبركاته والصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الاساتذة المحنكون والوزراء والامراء والحرس المسلح ، ويصعد إلى أعلى المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه إليه ، فإذا جلس أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا للخليفة . ويقف ضابطاً للمنبر ، وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الانشاء يتلو فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلى على أبيه على بن أبى طالب وجده النبى عليه الصلاة والسلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ويتوسل بدعوات فخمة تليق به ، ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ، ثم يختتم بقوله : « أذكروا الله يذكركم » فيصعد اليه الوزير ، ويفك أزرة القبة ويعود القهقرى ، فينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحات المذكورة فى المحراب وحده إماما ، وخلفه الوزير والقاضى ومن ورائهما الاساتذة والامراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين فأسمعوا الناس ، ويقرأ الخليفة فى الركعة الاولى ماهو مكتوب على الستر الايمن ، وفى الركعة الثانية ماهو مكتوب على الستر الايسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تباعا ، ثم يعود الخليفة بموكبه إلى القصر والبوقات تضرب ذهابا وإياباً ، ويتكرر هذا الترتيب والنظام فى الجمعتين الأخريين (١)

وقد لبث الازهر فى العهد الفاطمى فضلا عن صبغته الجامعية وعن إقامة الجمع والصلوات الرسمية فيه مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى .

فمن ذلك أنه كان مركز المحتسب ، وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينيه فى الدولة الفاطمية ، وهو الثالث عندهم بعد قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعده الحسبة ، وله نواب فى جميع

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ - وراجع أيضا صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

أنحاء القطر ، ويجلس بالجامع الأزهر وجامع مصر (جامع عمرو) يوما بعد يوم(١) ، وكانت مجالس القضاء تعقد قبل قيام الجامع الأزهر بجامع عمرو والجامع الطولونى

ومن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمى بالمولد النبوى الكريم ، ففى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة صوانى الحلوى التى أعدت بالقصر لتفرق فى أرباب الرسوم : كقاضى القضاة وداعى الدعاة وقراء الحضرة والخطباء وغيرهم ، فيجلسون فى الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يعودون فى موكبهم إلى القصر ، وينتظرون تحت المنظرة التى يجلس فيها الخليفة ، ثم تفتح إحدى طاقات المنظرة ويبدو منها وجه الخليفة ، ثم يخرج أحد الأستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء بترتيب معلوم ، فإذا انتهى الحفل أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس(٢) .

وكان الاحتفال المحزن بيوم عاشوراء ، أو مأتم عاشوراء ، يقام بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسينى فى سنة ٥٤٩ هـ ، وكان هـــذا الحفل من أجمل المظاهر المذهبية التى رتبتها الدولة الفاطمية لاحياء ذكرى الحسين . ففى العاشر من المحرم يحتجب الخليفة عن الناس ، وفى الضحى يركب قاضى القضاة والشهود ، وقد ارتدوا ثياب الحداد ، إلى الجامع الازهر (أو المشهد الحسينى فيما بعد) فى حفل من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والعلماء ، ثم يأتى الوزير فيتبوأ صدر المجلس ، ويجلس إلى جانبيه قاضى القضاة وداعى الدعاة ، والقراء يتلون القرآن ، ثم ينشد قوم من الشعراء أشعاراً فى رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ويضج الحضور بالبكاء والعويل ، ثم ينصرف الوزير إلى داره ويستدعى القوم إلى القصر وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، فيجدون صاحب الباب فى انتظارهم فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه والناس على اختلاف مراتبهم ، ويقرأ القراء وينشد المنشدون على النحو السابق . ثم يمد فى القاعة سماط الحزن عند الظهر ، وليس فيه سوى العدس والالبان والاجبان الساذجة والاعسال النحل والخبز الاسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام ، فإذا انتهى القوم انصرفوا إلى دورهم . ويعم الحزن والنواح القاهرة فى ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق

---

(١) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الاسواق وتسترد العاصمة شيئا من نشاطها ومظهرها العادى (١) .

وفى ليالى الوقود الاربع ، وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، كان الخليفة يقصد مساء إلى منظرة الجامع الازهر ، وكانت بجواره من الجهة القبلية وتشرف عليه ويجلس الخليفة فى هذه المنظرة ومعه حرمه ، وذلك لمشاهدة الزينات المضيئة والاحتفالات الفخمة التى كانت تقام فى تلك الليالى الشهيرة (٢) .

وإليك وصف المسبحى لبعض هذه الليالى . قال فى حوادث شهر رجب سنة ٣٨٠ ه ، وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة (يعنى الجامع الازهر) عوضا عن القرافة ، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة ، والاطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضى محمد بن النعمان ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء وغيرهم المنشدون والنائحة وأقام إلى نصف الليل ، وانصرف إلى داره بعد أن قدم إلى من معه طعمة من عنده وبخرهم . وقال فى حوادث شعبان من نفس السنة : وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ووقد التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء ، وحمل إليهم العزيز بالله الاطعمة والحلوى ، والبخور فكان جمعاً عظيما ،(٣)

وهكذا كانت ليالى الوقود من المناسبات العامة التى يتبوأ فيها الجامع الازهر مكانة خاصة فيخرج الناس إليه من كل نحو ويبدو فى المسجد شهيركأنه شعلة من النور وتضاء فى جوانبه وعلى حافاته المشاعل والمدات الساطعة ، وتعقد فى صحنه مجالس حافلة من القضاة والعلماء برياسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الأطعمة والحلوى الفاخرة ، وتضاء جميع المساجد الاخرى وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلل بديعة من الأنوار الساطعة .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٩ — ١٩١ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ . (٢) الخطط ج ٢ ص ١٨١ و ٣٤٥ .

(٣) المقريزى عن المسبحى — الخطط ج ٢ ص ٣٤٥ .

هـذا وقد وصف مؤرخو الدولة الفاطمية أيضاً الموكب الرسمى الذى كان ينظم فى ليالى الوقود، عقب الغروب، ويتقدمه القاضى، ومن حوله القراء والمؤذنون ويسيرون على ضوء المشاعل والشموع الساطعة إلى القصر، ثم ينتظمون فى ميدان بين القصرين تجاه باب الزمرد، أحد أبواب القصر الغربية، وينتظرون هنالك حتى يطل عليهم الخليفة ويحييهم من إحدى طاقات المنظرة الخلافية (١).

كذلك كان الجامع الأزهر أيام المعز والعزيز والحاكم، مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية. وكانت هذه المجالس الشهيرة التى رتبتها الخلافة الفاطمية لبث دعوتها وتوطيد إمامتها تتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها؛ وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس أيام المعز بنو النعمان، وهم أسرة مغربية نابهة قدمت فى ركاب الخليفة الفاطمى، وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن؛ وكانت مجالس الحكمة تعقد أحياناً فى القصر وأحياناً فى الجامع الأزهر، ويشترك فى القائها بعض كبراء الدولة مثل الوزير ابن كلس وزير المعز ثم ولده العزيز، ثم عهد بعد ذلك إلى داعى الدعاة بالإشراف على تنظيم هذه الدعوة وبثها، ووضعت لها نظم ورسوم خاصة، وأحيطت مجالس الحكمة يومئذ بشىء من التحفظ واستحالت إلى نوع من الدعوة السرية تلقى فى الخاصة قبل كل شىء، وتعقد مجالسها فى القصر، وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس، فيعقد للرجال مجلس بالقصر، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر. وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعا بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه، وكانت الدعوة تنظم طبقا لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقى الكافة سوى مبادئها وأصولها العامة ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا (٢).

ولا تعرف أية مناسبة أخرى غير مجالس الحكمة الفاطمية يمثل فيها النساء فى الجامع الأزهر فى ذلك العصر لشهود نوع من القراءة والدرس، بيد أنه يوجد مايدل على أن النساء كن يظهرن أحيانا فى بعض العصور المتأخرة فى حلقات الأزهر الدراسية، وقد كان من هؤلاء أم زينب فاطمة بنت عباس المعروفة بالبغدادية،

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٦، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و٥٠٢.

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و٢٢٦، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧. وراجع كتاب الحاكم بأمر الله لعنان ص ١٦١ — ١٦٣.

التى توفيت سنة ٧١٤ هـ ، وكانت فقيهة وافرة العلم وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ودمشق (١) وذكر الجبرتى أيضا ما يفيد أنه كان ثمة سيدة فقيهة عمياء تحضر دروس الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (٢)

الأزهر وتجديد مبانيه :

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة فى فرص عدة ، ففى سنة ٣٧٨ هـ جدد فيه العزيز بالله أشياء ، ثم جدده ولده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التنانير الفضية ، ورتب له فى سنة ٤٠٠ هـ مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى أوقافا ينفق من ريعها على إدارته وشئونه ، فكانت أول وقفية رتبت للجامع الأزهر . وقام الخليفة المستنصر بالله أيضا بتجديد الأزهر ، وجدده من بعده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مما يلى الباب الغربى مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء ... وفى عهد الملك الظاهر بيبرس ، قام الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطة بعمارته وتجديده تجديداً شاملا ، وكان الخراب قد تطرق اليه ، فأنفق على عمارته وإصلاحه وتجميله أموالا عظيمة ، وسعى فى إعادة خطبة الجمعة اليه كما سنذكر ، وفى سنة ٧٠٢ هـ فى عهد السلطان الملك الناصر وقعت بمصر زلزلة عظيمة ، وسقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر ، فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت ، وتولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلار ، وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش مدرسته التى عرفت باسمه « الطيبرسية » بجوار الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية لتكون ملحقا له ، وكمل بناءها فى سنة ٧٠٩ هـ وقرر بها درسا للشافعية ، وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد ، استادار الملك الناصر مدرسته المقابلة لها فى الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر ، مكان دار الأمير عز الدين أيدمر الحلى وقد تم بناؤها عام ٧٤٠ هـ ، وأنشأ بها دروسا للشافعية والحنفية وملجأ للصوفية . وقد حجبت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية وما زالتا قائمتين فى مكانهما إلى اليوم . وفى سنة ٧٢٥ هـ قام بتجديد الجامع الأزهر

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٩٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) راجع ذلك فى ترجمة الشيخ عبدالله الشرقاوى فى حوادث سنة ١٢٢٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٢) .

وعمارته القاضي نجم الدين محتسب القـاهرة ، ثم جددت عمارته سنة إحدى وستين وسبعمائة فى عهد السلطان الملك الناصر حسن على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار ، وكان يسكن على مقربة من الأزهر ، فاستأذن السلطان فى إصـلاحه وقام فيه بعمارة شاملة ، وأنشأ فيه دروسا جديدة للفقه الحنفى ، ورتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم ؛ وأوقف على ذلك أوقافا جليلة . وفى سنة ٨٨١ ﻫ فى عهد الملك الأشرف قايتباى أمر السلطان بإزالة الخلوات التى كانت بسطح الأزهر وفقا لفتوى صدرت بذلك ، ورسم بتجديد الجامع وعمارة ماتشعث منه ، وأمر بإنشاء المنارة الواقعة فى الجهة البحرية الغربية إلى يمـين المدرسة الأقبغاوية والباب الذى تعـلوه ، حسبما نقش على أحجار هذا الباب ، وتمتاز هذه المنارة برشاقتها وزخارفها الجميلة . وفى أواخر عهد الأشرف أيضا ، قام الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى بعمارة الجامع الأزهر وتجديده ، وأنفق عليه من أمواله جملة كبيرة ، وانتهت هذه العمارة فى سنة ٩٠٠ ﻫ . وأنشأ السلطان الغورى بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين التى مازالت قائمة إلى الآن فى الجهة الغربية إلى جانب منارة الأشرف قايتباى .

وفى أثناء العهـد التركى قام عدة من الولاة والأكابر بتجديد الأزهر ، فجدده فى سنة ١٠٠٤ ﻫ الشريف محمد باشا والى مصر ورتب به أطعمة للفقراء . وعمر به الوزير حسن باشا الوالى مقام الحنفية فى سنة ١٠١٤ ﻫ ، ثم جدده الأمير إسماعيل بك ابن الأمير إيواظ بك القاسمى فى أوائل القرن الثانى عشر . على أن أعظم عمارة أجريت بالجـامع الأزهر فى ذلك العهد هى التى قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلى فى أواخر القرن الثانى عشر ، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير فى الناحية الشرقية القبلية من الجامع بهواً كبيراً يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلهـا من البوائك المقوصرة ، وأنشأ للجامع محراباً ومنبراً جديدين ، وبنى فى أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وأنشأ أيضا بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيما ، وأنشأ له داخل هذه الرحبة مدفنا عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقا خاصا بطلاب الصعيد ، وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها هى والمدرسة الأقبغاوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما بابا عظيما بالهيئة التى نراها اليوم ، وأنشأ للجامع منارتين جديدتين ، وتقع إحداها فى الجهة الشرقية القبلية والأخرى فى الجهة الشرقية ، وعلى الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم ماشهد الجامع الأزهر منذ قرون ، ورتب هذا الأمير الكبير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة ، ومازال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التى جدده بها

عبد الرحمن كتخدا ، ما عدا تغييرات وإضافات قليلة أجريت فى العهد الأخير (١) .

وهكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية والرعاية من الخلفاء والسلاطين والأمراء ، يتعهدونه بالتجديد والإصلاح والنفقة المستمرة ، ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ماحظى به الأزهر من رعاية ، وقد يرجع أكبر الفضل فى ذلك إلى مايتمتع به الأزهر من الصفات العلمية إلى جانب صفته الدينية ، ومازال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة يحتفظ بفخامته ورونقه وجدته بالرغم من عمره الألفى .

ومما يذكر بالاغتباط أن الأمراء الذين كانوا يبذلون الغالى والرخيص فى تشييد هذا الجامع وتكبيره كانوا لا يبغون بذلك سوى وجه الله تعالى وخدمة العلم ، لاحب الظهور والرياء ، فقد ذكر المؤرخون أن الامير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية التى هى الآن من ملحقات الأزهر ، لما فرغ من بناء مدرسته وأحضروا اليه حساب نفقاتها ، استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شىء منها ، وقال : شىء خرجنا عنه لله لانحاسب عليه !

وما زال الجامع الازهر يحتل الموقع الذى أقيم فيه منذ ألف عام . وما زالت فيه بقية من أبنية الفاطميين الأولى تحتل مكانها الأول داخل الصرح القائم ، وهى تكاد تبلغ نصف المسجد الحالى ، وقد وفقت إدارة الآثار العربية أخيرا إلى الكشف عن رأس المحراب الفاطمى القديم ، وقد كان مغطى بغطاء خشبى يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فظهر بانتزاعه زخارف ونقوش فاطمية يرجح أنها ترجع إلى عهد إنشاء المسجد الأول ، أى فى عهد جوهر والمعز .

ومقصورة الجامع الازهر تنقسم إلى قسمين : المقصورة الأصلية الكبيرة التى هى من إنشاء القائد جوهر وبها ٧٦ عمودا من الرخام الأبيض الجيد على صفوف متسامتة ، والمقصورة الجديدة التى أحدثها الامير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ وبها خمسون عمودا من الرخام : فمجموع أعمدة المقصورتين ١٢٦ عمودا ، وإذا أضيف إلى هذا العدد ما بملحقات الجامع من الأعمدة بلغ عددها كلها ٣٧٥ عمودا ،

---

(١) راجع ترجمة الأمير عبد الرحمن كتخدا وتفاصيل منشآته الكثيرة بالازهر وغيره من المساجد والمدارس فى عجائب الآثار للجبرتى ج ٢ ص ٥ وما بعدها

وأرض المقصورة الجديدة مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وقد أنشأ جوهر القنبقائى مدرســـة رواق الجوهرية فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، ودفن بها سنة ٧٤٤ ه .

وأنشىء فى عهد عباس الثانى الرواق العباسى ، واحتفل بافتتاحه فى ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ ه . وهو غاية فى الدقة والفن .

وأعظم زيادة دخلت فيه هى كما ذكرنا بناية الأمير عبد الرحمن كتخدا حسن جاويش القازدغلى سنة ١١٦٧ هجرية ، فزادت فى سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريبا . وهو عمل تاريخى جليل .

وبالأزهر الآن خمس منارات يؤذن عليها فى الأوقات الخمس وفى الأسحار ، وتضاء بالكهرباء فى ليالى رمضان والمواسم ، منها ثلاث منارات من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها منارة الأقبغاوية عن يسار الداخل إلى الأزهر أنشأها الأمير علاء الدين أقبغاعبد الواحد مع مدرسة الأقبغاوية واثنتان عن يمين الداخل ، فالتى بجانب الباب مما يلى الداخل أنشأها السلطان الأشرف قايتباى ، والتى تليها من إنشاء السلطان الغورى وهى أعلى مناراته وأعظمها ، والرابعة بباب الصعايدة ، والخامسة بباب الشربة ، وهما من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا

ولقد كان الأزهر الشريف فى أول نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين فى مصر ، ومن بعدهم من الملوك والأمراء والوزراء ، وذوى الجاه منها ، يتنافسون فى خدمة هذا الجامع ، ويتعهدون أهله ، ويشرفون على حلقات الدروس فيـــه ، وينشئون الأروقة لسكنى الطلبة ، ويشيدون دور الكتب فى علوم الدين والحكمة والفلسفة ، مما كان له الأثر فى حفزهم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للتعلم والتعليم . وقد استمر الازهر يتسع نطاقه حتى بلغت مساحته الآن سوى ملحقاته ١١٣٨٠ مترا مربعاً .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله دراز من كلمة نشرها فى مجلة الأزهر عام ١٩٥٢ : البيت المعمور الذى أرسيت قواعده فى عهـــد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على يدى قائده جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٩ ه – ٩٧٠ م – كان يتألف فى أول إنشائه من قسمين : « فناء » فسيح يحيط به نطاق من الأعمدة المعقودة ، و « مقصورة » أو

« مصلى » لاتقل عنه اتساعا ، يشقها « مجاز » يمتد من بابها إلى المحراب . ولا تزال معالم القسمين قائمة إلى يومنا هذا لم ينلها تغيير جوهرى .

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شيء من الترميم استجابة لضرورة حفظها وصيانتها . ولكن سائر أجزائها لاتزال كما وضعت أول يوم ، ولا سيما « المحراب » الذى تراه الآن بنقوشه ورسومه العتيدة ، و « المجاز » الذى نشاهد أعمدته بنقوشها ورسومها الأولى . وكذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تنسنه ، وإنما أضيف إليها فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها .

ولقد بقى الأزهر قرونا عدة مكتفياً بحدوده الأولى هذه ، حتى كانت بداية القرن الثامن الهجرى ، فهنالك أخذت تضاف إليه فى عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت فى مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب ، حتى صار « فناؤه » الخارجى « صحنا » داخليا ، وحتى بلغت مساحة المسجد الآن ١١٣٨٠ مترا مربعا ، لايدخل فيها حساب الملحقات .

أولى هذه الاضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا فى المسجد عند دخولنا من الباب الكبير الشمالى الغربى المطل على الميدان . ذلك أننا نجد أنفسنا فى دهليز متوسط الاتساع ، فاصل بين جناحين من الأبنية عن يمين وشمال ، ونجد أمامنا باباً كبيراً آخر داخليا يفتح على صحن المسجد . فهذا الباب الداخلى الذى يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخى . أما كل هذه الأبنية عن اليمين والشمال فيما بين البابين ، وكذلك الأرض التى أقيمت عليها هذه الأبنية ، فإنها من الزيادات التى ضمت إلى الجامع فى القرن الثامن الهجرى وما بعده .

فالجناح الأيمن (ماعدا منارتيه) أنشاه الامير طيبرس فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا فى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . والباب الداخلى والمنارة الرشيقة التى فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) والمنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين وهى التى تلى هذه على اليمين أيضا من صنع السلطان الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) .

ولقد كان الجناحان فى نظر مؤسسيهما مدرستين ، ولكن التثقيف العقلى فى رأيهما ـ وكذلك هو دائما فى نظر كل سياسة رشيدة ـ لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحى

ولذلك أقام كل منهما فى مدرسته محرابا(١) أنيقا دقيقاً من الرخام والذهب لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته ، كأنما صنع أمس .

والجناحان(٢) اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الازهرية التى تعد من أنفس المكتبات فى العالم ، بما فيها من المخطوطات النادرة ، والمجلدات التى تبلغ زهاء مائة ألف مجلد . . فلنغادر الآن هذه الزيادات ، ولنعبر « الصحن » فى خط مستقيم ، ولندخل المقصورة مجتازها إلى المحراب . . . هنالك سنشعر بشىء من الدهشة ، إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب ، بل نراه منعزلا تمام العزلة فى وسط المصلى ، ونلاحظ فوق ذلك أن الأرض التى تمتد من خلف هذا المحراب ، والتى تكاد تعادل مساحة الأرض التى أمامه ، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد اليها بدرجتين ، ونرى أخيرا أن هناك محراباً ثانيا مستندا كالعادة إلى الجدار الجنوبى الشرقى ، الذى هو جدار القبلة .

غير أن هذه الدهشة ستزايلنا متى عرفنا أن هذا الإيوان المرتفع قليلا ، والمحراب الذى عليه ، المتصل بالجدار ، وكذلك البابان اللذان فى هذا الجدار ، والمنارتان المقامتان فوقهما ، كل هذه زيادات جديدة فى المقصورة أضيفت اليها أخيرا على يد الأمير(٣) عبدالرحمن كتخدا فى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) . ومن السهل حينئذ أن نعرف إلى أى حد بلغ ورع هذا الأمير وتقواه فى المحافظة على تراث سلفه الصالح ، وعدم الجرأة على تغيير شىء من معالمه بغير ضرورة مادية . . وهذا هو ما يسمى فى لغة العصر الحاضر : احترام الماضى وصيانة آثار القدماء .

وقبل أن نتأهب للانصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقترب من جدارها الشمالى الشرقى ... فسنجد فيه بابا صغيرا ننفذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر القانقبای المتوفى سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ م) . لقد بناه هذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة ، ولكنه جمع فيها كل عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق ودقة الفن . وفيها قبة تقوم على قبر بانيها .

---

(١) بل إن مدرسة أقبغا تحتوى محرابين اثنين .

(٢) الجناح الأيسر حول إلى مكتبة منذ سنة ١١١٤ هـ (١٨٩٦ م) . والجناح الايمن شغل جانب منه ببعض خزائن الكتب فى عهد قريب .

(٣) إلى هذا الأمير يرجع الفضل ايضا فى بناء الباب الكبير الذى فى المدخل على الميدان ، وفى تجديد واجهته اليمنى ، وهى جدار المدرسة الطيبرسية .

وقد جدد فى عهد الخديوى إسماعيل فى سنة ١٢٨٢ ﻫ (١٨٦٥ م) بناء أحد البابين اللذين فى جدار القبلة ، كما أنه فى عهد توفيق جدد فى سنة ١٣٠٦ ﻫ (١٨٨٨ م) بناء الإيوان الذى ينتهى بهذا الجدار ، وهاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كتخدا كما يعلم مما أسلفناه .

على أن أحدث الزيادات وأفخمها هى المنشآت التى أقيمت منذ عام ١٩٣٢ وتم بعضها فى ذلك الحين ، ولا يزال العمل جاريا فى تكميل باقيها . وهى مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد، ولكنها تشرف عليه من الشمال والشمال الشرقى ، ومن الشرق والجنوب الشرقى ، وقد برز إلى الوجود فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م أربع عمارات كبيرة ، خصصت واحدة منها لادارة الجامعة ، والثلاثة الباقية لسكنى الطلاب . وأما فى عهدنا هذا فقد تم حتى اليوم :

١ — مدرج فخم على أحدث طراز يتسع لألفى مستمع .

٢ — كلية الشريعة الاسلامية .

٣ — كلية اللغة العربية ، والكلية الباقية وهى كلية أصول الدين فى دور الانشاء ، ومن الاعمال المتوقع البدء فيها إنشاء :

١ — مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد .

٢ — معهد ابتدائى وثانوى يحضر للكليات الأزهرية .

٣ — مستشفى . ٤ — حديقة .

ولما كانت أزمة المساكن لا تزال فى حدتها ، فإنه ينظر الآن فى مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب ، ولاسيما الوافدين منهم من الاقطار الخارجية الاسلامية ، بحيث يتألف منها ومن المساكن القائمـــة الآن مدينة جامعية حقيقية تتصل بحرم المسجد ومنشآته .

الفصل الخامس

الأزهر فى عهد الدولة الأيوبية

التاريخ السياسى للدولة :

قامت الدولة الأيوبية فى مصر من عام ٥٦٧ ﻫ على يدى مؤسسها : السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد دعم كيان دولته ، ومحا من مصر المذهب الفاطمى ، وأحل محله المذهب السنى ، وعنى بنشر العلم وتشجيع العلماء ، ووقف فى

وجه الصليبيين وقفات خالدات فى تاريخ الشرق الاسلامى . : وكان عادلا محببا من قلوب الناس ، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز(١) ، ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط بين البرية وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء ، مع الدين والورع والزهد والعلم ، وهو الذى ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم(٢) وأصبحت عاصمة البلاد فى عهده ، ويذكر السيوطى أنه رحل بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى(٣) . وتوفى عام ٥٨٩ هـ عن سبعة وخمسين عاما .

مات السلطان فخلفه على عرش مصر ابنه العزيز عماد الدين عثمان فسار سيرة حسنة ومات سنة ٥٩٥ هـ ودفن فى قبة الامام الشافعى ، فأقيم ولده المنصور مكانه ، ولكن عم أبيه الملك العادل نزعه عام ٥٩٦ هـ وتولى مكانه .

والملك العادل أبو بكر بن أيوب هو أخو السلطان صلاح الدين ، وكان شديد الحب للعلماء ، وأبلى بلاء حسنا فى مقاومة الغزو الصليبى للبلاد ومات عام ٦١٦ هـ .

وخلفه ابنه الملك الكامل محمد ، (٦١٦ هـ - ٦٣٥ هـ) وقد حكم مصر حوالى أربعين عاما ، كان فى العشرين عاما الأولى نائبا عن أبيه ، وكان فى العشرين عاما الأخيرة يحكم بنفسه بعد موت أبيه ، وكان الكامل معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا فى نشرها والتمسك بها ، مؤثرا الاجتماع مع العلماء ، والكلام معهم حضرا وسفرا(٤) ، وقد أنشأ دار الحديث بالقاهرة ، وعمر القبة على ضريح الشافعى وكان معظما للسنة وأهلها(٥) ، وتوفى يوم الأربعاء حادى عشر من رجب عام ٦٣٥ هـ ، وأقيم بعده ابنه الملك العادل أبو بكر ، ولكن الملك الصالح أيوب نزع الملك منه وتولى حكم مصر عام ٦٣٧ هـ .

كان الملك الصالح مهيبا جدا ، دبر المملكة على أحسن وجه ، وبنى المدارس الاربعة بين القصرين ، وعمر قلعة بالروضة ، وهو الذى أكثر من شراء الترك وعتقهم

---

(١) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٢) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٣) ٢٦ جـ ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ٢٣٠ جـ ٦ النجوم الزاهرة .

(٥) ٣٣ جـ ٢ حسن المحاضرة .

وتأميرهم ، ولم يكن ذلك قبله فقام الشيخ عزالدين بن عبدالسلام القومة الكبرى فى بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين(١) ، ومات فى ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧ هـ ، وهو مستعد لقتال الصليبين فى المنصورة ، فأخفت زوجته شجرة الدر موته ، حتى حضر ابنه الملك المعظم توران شاه فتولى الملك فى ذى القعدة عام ٦٤٧ هـ ، وقاتل الافرنج وكسرهم ، وكان فى عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، وأسر الملك لويس السادس ملك فرنسا . وحبس فى دار ابن لقمان بالمنصورة ثم نفرت قلوب الجيش من توران شاه فقتلوه فى ١٧ محرم عام ٦٤٨ هـ ، وولوا شجرة الدر مكانه وكان يخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسى ، ولم يل مصر امرأة فى الإسلام قبلها ، ولما وليت تكلم الشيخ عزالدين بن عبد السلام فى بعض تصانيفه على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، وأرسل الخليفة العباسى المستعصم يعاتب أهل مصر فى ذلك ، وأقامت شجرة الدر فى المملكة ثلاثة أشهر ثم عزلت نفسها ، واتفق القواد على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل فملكوه فى جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ ، وجعلوا عزالدين أيبك التركمانى مملوك الملك الصالح قيماً عليه ، وعظم شأن المماليك الأتراك من يومئذ ، وفى عام ٦٥٢ هـ خلع عز الدين الملك الأشرف واستقل بالملك ، وهو أول من ملك مصر من المماليك الأتراك ، وتزوج شجرة الدر ، ثم خطب عليها ابنة صاحب الموصل ، فقتلته شجرة الدر عام ٦٥٥ ، وخلفه ابنه المنصور ، حتى قضى على ملك الدولة الأيوبية الأمير يوسف الدين قطز الذى لقب نفسه بالملك المظفر وذلك عام ٦٥٧ هـ .

ومن الجدير بالذكر أن ملوك الدولة الأيوبية كانوا يتلقون مراسيم ولايتهم من خلفاء بغداد العباسيين ، مع استقلالهم السياسى والإدارى على خلافة بغداد .

الأزهر فى عهد الدولة الأيوبية :

بزوال الدولة الفاطمية من مصر وقيام الدولة الأيوبية مقامها ، انمحت معالم الفقه الاسماعيلى الشيعى ، فقد غالى الأيوبيون فى القضاء على كل أثر للشيعة ، وأفتوا بإبطال إقامة الجمعة فى الأزهر(٢) ولبثت إقامة الجمعة معطلة . فيه نحو مائة عام ، وذلك

---

(١) ٣٤ ج ٢ حسن المحاضرة :

(٢) أصدر قاضى القضاة الشافعى صدر الدين عبدالملك بن درباس فتوى بأنه لا يجوز إقامة الجمعة فى بلد واحد فى مكانين فأبطل إقامتها بالأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى

من عام ٥٦٧ — ٦٦٥ هـ .

وفى عهد الدولة الأيوبية أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر فى رسالته العلمية ، فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية وعرفت باسم « دار الغزل » ، ثم عرفت بالمدرسة القمحية . ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » ، كما بنى مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعى خاصة ، وهو المذهب الذى كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبى نفسه ، وكانت مدرسة منها بجوار الامام الشافعى والأخرى بجوار المشهد الحسينى . . ويحصى المقريزى المدارس التى بنيت فى القاهرة وحدها بثمانى عشرة مدرسة (١) .

وقد بنيت فى القاهرة والفسطاط معا نحو خمسة وعشرين مدرسة : منها المدرسة الكاملية وتسمى دار الحديث ، وقد أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ هـ وكملت عمارتها سنة ٦٢٢ هـ ، وتولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية (٢) ، ومن مشايخها أيضا القسطلانى الشافعى وابن دقيق العيد .

ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية وقد بناها الملك الصالح عام ٦٣٩ هـ وهى أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، وكانت من أجل مدارس القاهرة (٣) .

ومنها المدرسة الفاضلية بناها القاضى الفاضل عام ٥٨٠ هـ وكان فى مكتبتها مائة ألف كتاب مجلد (٤) .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تتخصص فى دراسة بعينها ، وكان الغرض من إنشاء هذه المدارس هو منافسة الأزهر وصرف الطلاب عنه ، وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أى حتى بعد عصر الايوبيين ، أثر كبير فى سير الدراسة فى الأزهر ، إذ نافسته هذه المدارس منافسة شديدة وجذبت إليها أعلام الأساتذة ، وقضى الأزهر فى هذه المدة عصرا من الركود الطويل .

وقد كان الأيوبيون من الغلاة فى المذهب الشافعى ، وكانوا من أتباع الاشعرى ، وكان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكرا مستقلا يناهض معسكر الاشاعرة ، وكان من نتائج تصادم الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعددة أن اشتدت روح التعصب والمغالاة ، فكان كل فريق يدفع صاحبه بما يملك من أسلحة الهجوم ، فكان أهل السنة يطعنون

---

(١) ١٩٣ — ٢١٦ جـ ٤ خطط المقريزى . (٢) ١٤٢ جـ ٢ حسن المحاضرة .
(٣) ١٤٢ جـ ٢ حسن المحاضرة : (٤) ٢٥٥ جـ ٢ الخطط للمقريزى .

الشيعة بأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، وقد أصدر بلاط بغداد فى سنة ٤٠٢هـ فى عهد الخليفة القادر بالله فتوى رسمية موقعا عليها من كبار الفقهاء والقضاة بهذا المعنى ، طعنا فى الفاطميين خلفاء مصر .

ومن ناحية أخرى لم يتوان الأشاعرة عن استعمال سلاح التكفير والتفسيق فى شتى المناسبات ، حتى بلغ الأمر فصل الحنابلة كفرقة تلز فى قرن مع النصارى واليهود والباطنية . ومن طريف ما يروى أن منشىء المدرسة الرواحية فى دمشق نص فى حجة وقفيته على هذه المدرسة نصا يمنع دخول اليهود والمسيحيين والحنابلة لهذه المدرسة .

ومن هنا ورث الأزهر التعصب المذهبي الشديد إلى حد الإفتاء بالكفر وعدم صحة الاقتداء بالمخالف فى المذهب، فقد أفتى ابن حجر الهيتمى بأن ابن تيمية العالم الفقيه كافر لاتصح الصلاة وراءه ، وأمر القاضى عياض بإحراق كتب الغزالى لما يوجد بها من أشياء لاترتضيها عقائد أهل السنة . ونقل الكمال بن الهمام عن أحد علماء الحنفية أنه لاتجوز المناكحة بين أهل السنة والاعتزال .

وظل هذا التعصب يشتد ويشغل أمره العلماء ، فاتهم كل مجتهد يخرج على التقاليد العلمية فى عصره بالزندقة والضلال . والضلال يومذاك كانت كلمة ترادف التفكير الحر الذى لا يرضى بالتقليد ، ولا يرضى أن يكون فى آرائه من العبيد . وكان الضلال عنوان نضوج العقل ، أو كما يقول الغزالى : وأستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، وأستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف .

ولما كثرت المدارس فى عهد الأيوبيين وأرادوا اجتذاب أساتذة الأزهر إليها ، أغدقوا لهم فى العطاء ، وأجزلوا فى المرتبات ، وبعد أن كان العلماء يعتمدون فى العصور الأولى على أنفسهم فى سد حاجات عيشهم عن طريق السعي وراء الرزق أو استجلاب الربح من صنعة أو حرفة ، فكان منهم فى العصر الأول البزاز والزجاج والصائغ والصباغ والفراء ، إلى مالهم من شهرة فى العلم ، أصبحوا فى هذا العهد وما تلاه من عهود المماليك يعتمدون على الدولة وما تعطيهم من إعانات ، وما تدره عليهم من غلات أوقاف ، أو نظارات فى حياتهم ، مما مكن للدولة من ضمان بقائهم فى صفها ، ولم يدع للعلماء حرية كاملة فى إبداء ما يرون من آراء على الوجه الذى يرضى الله والضمير والحق والعدل . بل كثيرا ما كان هذا النوع سببا فى تحاسد العلماء وسعي بعضهم ببعض عند الأمراء ، لتوجيه وظيفة أو إعطاء وقف .

أشهر العلماء فى عصر الدولة الأيوبية

هل للأزهر أثر فيهم ؟

نبغ فى العصر الأيوبى كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الحسن الفارسى الفقيه الحنفى العالم باللغة والادب والطب والهيئه المتوفى عام ٥٩٨ ﻫ (١).
ومنهم : ابن الحاجب النحوى (٥٦٦ — ٦٤٦ﻫ) المشهور (٢) ، والشاطبى (٥٣٨ — ٥٩٠ ﻫ) (٣) ، وابن الفارض (٥٧٦ — ٦٣٢ ﻫ) الصوفى الزاهد الشاعر المعروف (٤) ، وعز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (٥٧٧ — ٦٦٠ ﻫ)(٥) واشتهر فيه من الصوفية سيدى أحمد البدوى (٥٩٦ — ٦٧٥ ﻫ) (٦) ، وعبد الرحيم القنائى المتوفى عام ٥٩٢ ﻫ (٧) ، وسواهم .

ومن العلماء أيضا الحافظ المنذرى شيخ الاسلام (٥٨١ — ٦٦٠ ﻫ)، والسخاوى المصرى (٥٥٨ — ٦٤٣ ﻫ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية ، وابن سرايا (٥٧٠ — ٦٥١ ﻫ) المفسر العالم بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ — ٦٨٣ﻫ) وكان إماما فى النحو والادب والاصول والتفسير ..

ومنهم ابن برى المتوفى عام ٥٨٢ﻫ ، وابن معطى المتوفى عام ٦٢٨ ﻫ ، وكانا إمامين فى العربية ، وابن مالك الأندلسى المتوفى عام ٦٧٢ ﻫ وقد أقام بمصر حينا كما أقام بدمشق وحلب ، وكذلك ابن الصلاح وتوفى عام ٦٤٣ ﻫ .

ومن الأدباء ابن شيث من أدباء القرن السادس ، وابن أبى الأصبع المتوفى عام ٦٥٤ ﻫ ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ ﻫ ، وأبو الحسين الجزار الشاعر ، وأبو شامة المتوفى عام ٦٩٥ﻫ ، والتلعفرى (٥٩٣ - ٦٧٥ ﻫ) ، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ ﻫ ، والقاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦ ﻫ ، والعماد الاصبهانى المتوفى عام ٥٩٧ﻫ

ومن الحكماء الوزير القفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ ﻫ) .

ومن المؤرخين ابن شداد (٥٣٩ - ٦١٥ ﻫ) ، وابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ ﻫ) .

---

(١) ١٢٦ ج ١ حسن المحاضرة . (٢) ١٩٤ ج ١ حسن المحاضرة
(٣) ٢١٢ ج ١ » » (٤) ٢٢١ ج ١ » »
(٥) ١٢٧ ج ١ » » (٦) ٢٢٣ ج ١ » »
(٧) ٢٢٠ ج ١ » »

ولا شك أنه كان لكثير من هؤلاء العلماء تلمذة على أساتذة الأزهر وحلقاته العلمية فى العصر الفاطمى ، فإذا كان الأزهر قد أوقف نشاطه العلمى فى هذا العصر فأثره الروحى كان باقيا مستمرا .

وقد اشتهر فى هذا العصر الكثير من الشعراء ، منهم : البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) ، وابن مطروح (٥٩٢ - ٦٤٩ هـ) ، وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ هـ ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ ، وابن التعاويذى (٥١٩ - ٥٨٤ هـ) ، وسراج الدين الوراق المتوفى عام ٦٥٥ هـ . ولا شك أن نشأتهم الأدبية كانت أثرا لثقافة الأزهر اللغوية والأدبية التى ظلت متوارثة فى عهد الأيوبيين .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر فى تلك الحقبة لم يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة . ومع أنه لم يكن يحظى فى ذلك العصر بكثير من الرعاية الرسمية ، فإنه لبث مع ذلك محتفظاً بكثير من هيبته العلمية القديمة ، فنواه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادى الذى وفد على مصر فى سنة ٥٨٩ هـ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز فى سنة ٥٩٥ هـ(١) .

الفصل السادس

الأزهر فى ظلال دولتى المماليك

٦٥٧ — ٩٢٣ هـ

التاريخ السياسى لهذا العصر :

ينقسم هـــذا العصر إلى عهدين :

١ - عهد دولة المماليك البحرية وينتهى عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م

٢ - وعهد دولة المماليك الشراكسة - أو المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ : ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) .

أما دولة المماليك البحرية فتبدأ شكلا من عام ٦٥٧ هـ وإن كان بدؤها الحقيقى هو عام ٦٤٨ هـ : ١٢٥٠ م ، حينما قتل توران شاه ودخلت مصر بعدها فى نفوذ مماليك

---

(١) كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (مصر) فى المقدمة .

هذه الدولة ، الذين كان الصالح أيوب يكثر من شرائهم وينزلهم فى قلعة الروضة التى شيدها بجزيرة الروضة ، حتى سموا لذلك بالمماليك البحرية ، وقد بقى الملك فى أيديهم إلى عام ٧٨٤ ﻫ ، وكان عدد ملوكهم أربعة وعشرين سلطانا :

أولهم السلطان « عز الدين أيبك التركمانى الذى ولى الحكم عام ٦٤٨ ﻫ ، وتزوج شجرة الدر ، وقتل عام ٦٥٥ ﻫ ، فخلفه ابنه المنصور ، الذى تولى الوصاية عليه « سيف الدين قطز » ، ثم أعلن قطز توليه الملك وخلع المنصور عام ٦٥٧ﻫ - ١٢٥٩م وبذلك تبدأ دولة المماليك البحرية فى تاريخ مصر .

كان « قطز » هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، تولى الملك عام ٦٥٧ ﻫ ، ولما سقطت بغداد عام ٦٥٦ ﻫ - ١٢٥٨ م فى أيدى التتار ، وزحفوا نحو مصر ، التقى بهم « قطز » فى « عين جالوت » بفلسطين ثم فى « بيسان » وهزمهم هزيمة ساحقة ، وكان الفضل فى ذلك لقائده « الأمير ركن الدين بيبرس » ، وفى عودتهم إلى مصر قتل « بيبرس » السلطان « قطز (١) » وتولى مكانه حكم البلاد .

تقلد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى حكم مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ ﻫ : ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) وكان أشهر سلاطين المماليك البحرية ، وقد نظم أمور الدولة والجيش ، وأنشأ الأساطيل ، وعنى بتحصين الشام . . ولكى يعزز زعامته للاسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، واستمد سلطة الملك منه نائبا عنه عام ٦٥٩ ﻫ - ١٢٦١ م (٢) ، وكان أول من بايع الخليفة العباسى شيخ الاسلام عز الدين ابن عبد السلام (٣) ، وقد ذهب الخليفة لمحاربة التتار على رأس جيش مصرى فقتل قرب دمشق عام ٦٦٠ ﻫ فتولى بعده لقب الخلافة العباسية فى مصر الخليفة العباسى

---

(١) كان قطز فى أول ولايته قد عزم على فرض ضرائب جديدة على المصريين لينفقها على الجيش الذى سيوجهه إلى حرب التتار ، فجمع العلماء لذلك ، فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصاح : لايجوز أن يؤخذ شىء من الرعية حتى لايبقى فى بيت المال شىء وتبيعون مالكم من الحوائص فى الآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا فى ذلك هم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء مافى أيدى الجندى من الأموال والآلات الفاخرة فلا (٣٦ جـ ٢ حسن المحاضرة)

(٢) راجع صفحة ٤٠ ومابعدها جـ ٢ من كتاب « حسن المحاضرة » للسيوطى

(٣) ٤٤ جـ ٢ حسن المحاضرة

أبو العباس أحمد ولقب الحاكم بأمر الله (١) .

وكان للسلطان « الظاهر بيبرس » أعمال حربية ، وإصلاحات داخلية ، محمودة وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة عام ٦٧٥ هـ ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية .

وبعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر ولم تطل مدتهما ، وانتهى الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) ، فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنه ، وساد فى عهده العدل والسكينة .

وخلفه ابنه الأشرف خليل وكان شجاعا مقداما مظفرا عادلا ، فقتل بعد ثلاث سنوات ، ومما يذكر له أنه هو الذى قضى على إمارات الصليبيين بالشام .

وخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١م) ، وقد هزم التتار قرب دمشق عام ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ هـ هزيمة ساحقة أثناء محاولتهم التقدم لفتح مصر ، وعنى الناصر بشئون بلاده الداخلية ونشر العلوم والمعارف ، وشيد المبانى الفخمة ، وتوفى الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله فى عهده عام ٧٠١ هـ ، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له ، وهو أول خليفة مات بمصر من بنى العباس ، وولى الخلافة بعده ابنه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وخطب له على المنابر فى مصر والشام(٢) ، ولم يكن السلطان قد أمضى عهد والده له بالخلافة حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد قاضى القضاة بمصر يومئذ : هل يصلح للخلافة أولا ؟ فقال الشيخ : نعم يصلح ، فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده له(٢) ومات ، فى شعبان سنة ٧٤٠ هـ فى قوص ودفن بها ، وتولى بعده الخلافة الواثق بالله رغم معارضة قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، ومات الناصر عام ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) ، ولم يترك خلفا يقدر على القيام بعبء الملك بعده ، ومن ابنائه السلطان حسن الذى بنى المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلطان أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهى المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار قلعة القاهرة ، وانتهى الامر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك

وقد عزل الخليفة الواثق وبويع لأحمد بن المستكفى ولقب المستنصر ثم لقب

---

(١) ٤٧ ج ٢ حسن المحاضرة

(٢) ٤٩ ج ٢ حسن المحاضرة .

بعد ذلك الحاكم بأمر الله - لقب جده - وذلك بحضور ابن جماعة وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وذلك عام ٧٤٢ هـ ومات الخليفة عام ٧٥٣ هـ ، وبويع بعده لأخيه المعتضد بالله وظل خليفة حتى مات عام ٧٦٣ هـ ، وظل بنو العباس في مصر يتوارثون الخلافة إلى أمد بعيد .

وأما دولة المماليك الشراكسة فقد حكمت مصر من عام ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ ، ومعظمهم من الشراكسة ، بعكس المماليك البحريين فكانوا من الترك .. ولم يكن الملك في دولة المماليك الشراكسة وراثيا كما كان في بيت قلاوون ، وعدد ملوك هذه الدولة ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم في التسع السنوات الأخرى أربعة عشر ، وقد كان ملوك هذه الدولة ولع بالعلوم والآداب والفنون ، وإن كانوا لم يحرصوا على العدل في حكمهم .

وأشهر ملوكهم وأولهم : «الملك الظاهر سيف الدين برقوق » ، وقد مات عام ٨٠١ هـ - ١٣٩٩ م ، وخلف مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق .

وخلفه ابنه فرج الذي حارب تيمورلنك ، وعقد معه صلحا .

ومن ملوك هذه الدولة « المؤيد شيخ » باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار « باب زويلة » .

ومنهم : الأشرف برسباي ٨٢٥ - ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ، وقايتباي ٨٧٣-٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م ، والغوري ٩٠٦-٩٢٢ هـ : ١٥٠١ - ١٥١٦ م ، وقد انتهى أمره بأن قتله السلطان سليم العثماني فاتح مصر عام ٩٢٣ هـ ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية .

الأزهر في هذا العصر

١ — في عهد السلطان بيبرس والسلاطين بعده :

في سنة ٦٦٥ جدده الأمير عز الدين ايدمر الحلي بسبب أنه كان مجاوراً له بالسكنى ، وكانت داره مكان الأقبغاوية المجعولة مكتبة الازهر الآن ، فراعى حرمة الجوار وانتزع له أشياء كانت مغصوبة وأحاط أموره حتى جمع له شيئا صالحا مع ما تبرع به له من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال وشرع في عمارته ، فعمر الواهي من أركانه وجدرانه وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه ، حتى عاد حرما بعد أن كان باليا ، واستجد

به مقصورة حسنة وترك فيه آثارا صالحة .. وكذا عمل فيه الامير بيلبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعى ومحدثا يسمع الحديث النبوى، ووقف على ذلك الاوقاف الدارة ورتب به سبعة لقراءة القرآن ومدرسا ، وأقيمت فيه الجمعة يومئذ ، وحضر فيه الامراء والكبراء والعلماء ، وكان يوما مشهودا ، وبعد الفراغ من الجمعة قام الامير عزالدين إلى داره ومعه الامراء فقدم لهم موائد الطعام ، وكان قد أخذ فتاوى من العلماء بجواز الجمعة فيه .

وهذا أول افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة بعد انقطاعه منه فى عصر الدولة الأيوبية .

وفى شهر الحجة سنة ٧٠٢ حدثت زلزلة شديدة بديار مصر فسقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمى وجامع عمرو، وغيرها، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع، فتولى الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمى، وتولى الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح ، وتولى الامير سلار عمارة الجامع الازهر، فجددوا مبانيها وأعادوا ما تهدم منها.. وفى ٧٠٩ بنيت فيه مدرسة الطيبرسية .

والأمير سلار كان من مماليك الصالح علاء الدين بن المنصور قلاوون ، واتصل بخدمة الاشرف وتوفى عام ٧١٠ ھ .

وفى سنة ٧٢٥ ھ جددت عمارة الجامع الازهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين ابن على الاسعردى محتسب القاهرة . . . ثم فى سنه ٧٤٠ أنشئت الاقبغاوية التى هى محل المكتبة الازهرية الآن ، وفى سنة ٧٤٤ تمت الجوهرية .

وفى سنة ٧٦١ جددت عمارة الازهر عندما سكن الامير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى فى دار الامير فخر الدين ابان الزاهرى الصالحى النجمى بخط الابارين بجوار الجامع الازهر بعدما هدمها وعمر داره التى تعرف فى ذاك الوقت بدار بشير الجمدار ، وأحب لقربه من الجامع الازهر أن يؤثر فيه أثرا صالحا. فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى عمارته وكان خصيصا به، فأذن له فى ذلك وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته، فأخرج الخزائن والصناديق ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح، حتى عادت كأنها جديدة، وبيض الجامع كله وبلطه. ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفا وجعل له قارئا ، وأنشأ على باب الجامع القبلى حانوتا لسبيل الماء العذب فى كل يوم وعمل فوقه مدرسة لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم

وأنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه ورتب فيه دروسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لالقاء الفقه فى المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافا جليلة .

وفى سنة ٧٨٤ هـ ولى الامير بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الازهر، ونجز مرسوم السلطان برقوق بأن من مات من مجاورى الجامع الازهر من غير وارث شرعى وترك شيئا فإنه يأخذه المجاورون بالجامع ، ونقش بذلك على حجر عند الباب الكبير وهو غير موجود الآن .

وكان عدد طلبة الأزهر فى أوائل القرن الثامن ٧٥٠ طالبا كما يقول المقريزى . وفى سنة ٨٠٠ هدمت منارة الأزهر وكانت قصيرة وعمرت بأطول منها وبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم ، وكملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر واوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، واجتمع القراء والوعاظ به وتلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان، ولم تزل هذه المنارة إلى شوال سنة ٨١٨ فهدمت لميل ظهر فيها وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحرى بعد ما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر وركبت المنارة فوق عقده ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل ثم هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكى والى القاهرة ومحتسبها، وتمت سنة ٨١٨ فلم تقم غير قليل ومالت حتى كادت تسقط ، فهدمت سنة ٨٢٧، وأعيدت وفى هذه السنة ابتدىء بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء ووجد أيضاً جثث أموات . وتم بناؤه فى ربيع الأول سنة ٧٢٧ هـ وعمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسيل فيه الماء وغرس بصحن الجامع أربع شجرات ولم تفلح وماتت ، ولم يكن للجامع الأزهر ميضأة عند ما بنى ، ثم عملت ميضأته

وفى سنة ٨١٨ هـ تولى نظارة الجامع الأزهر الأمير سودوب حاجب الحجاب ، فأهان طلبة الأزهر وأخرجهم منه وكان عددهم يومئذ ٧٥٠ طالبا من شتى البلاد الإسلامية وأنحاء مصر ، وكان الأزهر يومئذ عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ .

وكان الإنسان إذا دخله يجد من الانس بالله والارتياح ما لا يجده فى غيره وصار يقصده أرباب الأموال للتبرك ويصلون أهله بأنواع الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، فرأى سودوب المذكور أن يأمر بإخراجهم ومنعهم

من المبيت به فأخرجهم وما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف، وقد حل بفقراء المجاورين بلاء شديد بعد ماهجم عليهم مرة بعد العشاء الاخيرة ، هو ومن كان معه من الغلمان والأعوان وغوغاء العامة ومن يريد النهب ، فضربهم ونهبت فرشهم وعمائمهم وسلبت نقودهم فتشتت شملهم وساروا فى القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع كثيرا مما كان فيه ، فعاجل الله الأمير سودوب بالانتقام وقبض عليه السلطان وسجنه .

وفى سنة ٩٠٠ أجرى مصطفى بن محمود بن رستم الرومى عمارة الجامع الأزهر وصرف عليه من ماله نحو خمسة عشر ألف دينار وجاء فى غاية الحسن .

وأنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ميضأة بالجامع الأزهر وفسقية ومتبرة من داخلها ، وقد أبدلت بحنفيات سنة ١٣١٧ ، وأنشأ أيضاً سبيلا ومكتباً على باب الجامع وقد أزيل المكتب أيضا ، وهو الذى أنشأ رواق الشوام ورواق المغاربة ، وأنشأ المنارة العظيمة على يمين الداخل فيه .

وقد رتب الملك قانصوه الأشرف خال الناصر الخزيرة بالجامع الأزهر فى شهر رمضان ، والخزيرة عصيدة بلحم . . ثم لما جاء الملك قنصوه الغورى ضاعف ذلك فى أيامه فرتب فى شهر رمضان فى مطبخ الجامع الأزهر كل سنة ستمائة وسبعين دينارا ومائة قنطار من العسل وخمسمائة أردب قمح، وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين به سنة ٩٠٢ هـ .

وللعلماء فى سجل التاريخ الاسلامى ذكر، وللشيخ عزالدين بن عبدالسلام خاصة نصيب من هذا المجد التليد .

قدم الشيخ عزالدين إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ من دمشق،فتلقاه صاحب مصر وسلطانها الصالح نجم الدين أيوب بالاكرام والاجلال ، واحاطه علماؤها وفقهاؤها بالتقدير والاحترام ، حتى امتنع الشيخ زكى الدين المنذرى عن الافتاء تأدبا معه ، وقال : كنا نفتى قبل حضوره ، فمنصب الفتيا متعين فيه .. وبالغ السلطان نجم الدين فى اكرام الشيخ فولاه قضاء مصر والوجه القبلى ، وقبل الشيخ المنصب على أن يؤدى فيه حق الله كما يجب ، وان تكون كلمة الشرع هى الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين ، فلادالة لصاحب سلطان ، ولاتهاون مع ذى جاه ، ولكن الناس سواسية امام الحق ، وفى شرط الاسلام ، وعلى هذا تقلد الشيخ المنصب وتحمل العمل فيه .

وكان أول موقف للشيخ تجاه اصحاب النفوذ والسلطان بين الناس ، وكان موقفا

عجبا ، ذلك ان السلطان قد اكثر من شراء الترك وتأميرهم على البلاد ليكونوا أعوانه وعيونه ، وقد استشرى امر هؤلاء الاتراك وصاروا اصحاب الجاه والنفوذ على الرعية لايبالون فى ذلك بطشا ولا ظلما يقع على الناس ، وما كان فى الناس من يستطيع أن يتصدى لهم أو ينكر عليهم ، ونظر الشيخ ابن عبد السلام فرأى فى ذلك فسادا لايستقيم به حق الدين ولا واجب الحكم ، ولما بحث الشيخ الامر فى حقيقة هؤلاء الامراء الاتراك رأى انهم بحكم الشرع أرقاء لسادتهم من أبناء مصر ، وذلك لأن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة ومازال حكم الرق مستصحبا عليهم ، وكان أن جلس الشيخ وكتب فتواه بانه لم يثبت عنده ان هؤلاء الأمراء الاتراك احرار وان حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين وانه لابد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة . وكان من جملة هؤلاء الامراء نائب السلطنة ، وكلهم اصحاب حكم وسلطان .

وبلغت الفتوى اولئك الامراء ، فامتلأوا غضبا وغيظا ، وأدهشتهم تلك الجرأة من ذلك الشيخ الفقيه عليهم ، وارسلوا اليه ان يكف عن هذا الذى لايليق معهم . وهم أصحاب الحكم والسلطان ، ولكن الشيخ صمم على فتواه ، وزاد على ذلك فصار لايصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ولا أى تصريف فى أمور الناس وشئون الحكم حتى تعطلت مصالحهم ، وتوقفت اعمالهم ، وهم فى كل هذا يتعاظمون ويعجبون من جرأة ذلك الشيخ ، وما فى مقدور أحد أن ينكر عليهم أى شىء .

ورفع الامراء الأمر إلى السلطان ، وشكوا اليه من هذه الجرأة التى هوت بمكانتهم بين الناس . وأرسل السلطان إلى الشيخ ابن عبد السلام يصرفه عن غايته ، ويبين له ما فى هذه الفتوى من الاضرار بأولئك الأمراء الذين لهم شأنهم فى شئون الحكم ، وكان ابن عبد السلام يقدر تماما أنه وفد على مصر غريبا لا أهل له ، فقيرا لامال عنده وليس له من قوام الحياة إلا هذا المنصب الذى يجلس فيه ، وزمام المناصب كلها بيد السلطان ، ولكن حب الدنيا لم يكن أفسد نفوس رجال الدين فى ذلك الزمن ، وما لرجل مثل ابن عبد السلام ترك وطنه راضيا ، واحتمل السجن وشظف العيش فى سبيل الرأى والحق ، أن يثنيه عن الحق مطلب من مطالب العيش أو رغبة فى منصب مهما يكن جاهه ، فأرسل إلى السلطان بأنه لابد منفذ لفتواه لانها كلمة الشرع وحق الاسلام ، وأنه سينادى على اولئك الامراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فانه سيعزل نفسه من منصب القضاء ويترك فتواه قائمة فى اقطار الاسلام يعول عليها المسلمون فى تصريف أمورهم .

وانكمش السلطان بجبروته امام الشيخ فى إبائه وجرأته ، وتلمس نائب السلطان بابا آخر لصرف الشيخ عن اصراره ، فأرسل اليه بالملاطفة والملاينة والرجاء أن يراجع نفسه فى تلك الفتوى الجريئة وان يتصرف بما يتفق ومكانة الأمراء بين الناس ، ولكن الشيخ الذى كان لايرهبه فى الحق شدة ، كان من الأولى ألا تجدى معه فى الحق ملاطفة أو ملاينة .

وعظم الخطب على نائب السلطنة ، وثاربه الغضب ثورته ، وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ الفقيه بالبيع ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفى هذا ، فما كان حكم الناس من شأن فقيه ، ولا كانت أقدار الناس على مايفتى به ، ثم ركب فى جماعته ليثأر لنفسه ولجماعته بالسيف ، وليضع حدا لتطاوله عليهم وهم أمراء مصر وملوك الارض !

ووقف نائب السلطنة على باب الشيخ ممتطيا صهوة جواده ، والسيف فى يده قائم كأنه متأهب لميدان حرب ، وطرق الباب على الشيخ طرقات قوية عنيفة ، فخرج ولد الشيخ يستطلع الامر ، فأذهله مارأى من هيئة نائب السلطنة وجماعته وزاد من رعبه وفزعه ان سأله نائب السلطنة عن والده ليفتك به ، وليتركه بدادا بسيفه ، وأسرع ولد الشيخ إلى داخل الدار فزعا جزعا ينبىء والده بالشر المتربص بالباب ويسأله ان يختفى ، فلا يظهر نفسه حتى يدبر للهرب أو يؤذن الله بالفرج .

وابتسم الشيخ لما سمع ، وهدأ من روع ولده قائلا : لاعليك يابنى ، فأبوك اقل من أن يقتل فى سبيل الله ، ثم نهض إلى باب الدار ، شامخا كالطود ، جريئا كالاسد ثابتا يزيد من ثباته وهيبته ايمان قوى بالله يتضاءل كل مافى هذه الدنيا بجانبه ، ووقف الشيخ الاعزل إلا من قوة الحق وصدق الايمان أمام نائب السلطنة وهو فى سلاحه وعتاده وجنده ، ومازاد الشيخ على أن ارسلها نظرة حادة نافذة ، فاذا بنائب السلطنة يذعن امام هيبة الشيخ ويتضاءل فى سلاحه وجنده ، وإذا به يسرع فيغمد سيفه ، ويترجل من فوق جواده ، ويهوى على يد الشيخ يقبلها ، وأطرافه يمسحها ، ويسأله ان يغفر له ما فرط منه ، وان يتجاوز عما ارتكب فى حقه ، ويطلب منه الدعاء والرضاء ، قائلا : ايش ياسيدى تريد أن تعمل ، .

قال الشيخ : اريد أن انادى عليكم وأبيعكم . قال : وماذا تصنع بثمننا ؟ قال : اصرفه فى مصالح المسلمين ، قال : ومن يقبض الثمن قال : انا اقبضه واتولى صرفه . قال : لك ماتشاء فى امرنا .

واصبح الصباح فى اليوم الثانى ، وعقد مجلس كبير من رجالات الدولة بحضره السلطان ، وحشد الامراء الاتراك بكامل عددهم فما تأخر نفر منهم ، وأخذ قاضى القضاه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينادي عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالى فى ثمنهم لأنهم امراء .. ولانهم ملوك الأرض .. وغالى أكثر ماغالى فى ثمن نائب السلطنة ، ودفع السلطان إلى الشيخ كل ماشترط من مال ، فوزعه على وجوه الخير ومصالح المسلمين ، ثم اعتق الامراء الارقاء ، ومنحهم حق الحرية فى التصرف والبيع والشراء (١)

اعتنى الظاهر بيبرس(٢) - كما قدمنا - بأمر الأزهر فأعاد إليه خطبة الجمعة فى الثامن عشر من ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الامراء فزاد الامير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعى . ورتب فيها محدثاً ، وسبعة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الاوقاف الدارة . وفى سنة ٧٦١ هـ أحب الامير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى عند ماسكن بجوار الازهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية يلقى فى المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافا كثيرة .

على هذا النحو سار الأزهر فى عناية المماليك(٢) ، غير أننا نلاحظ أن الجامع الحاكمى أخذ ينافس الازهر بعد أن أصلح من زلزال سنة ٧٠٢ هـ ، فلقد جاء الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمى دروساً أربعة لاقراء الفقه على مذهب الأئمة الاربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوى ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة ، فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى ، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى ، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الحرانى ، وفى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثى ، وفى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وفى التصدير لافادة العلوم علاء الدين على بن إسماعيل القونوى ، وفى مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ، وعدة قراء يتناولون قراءته ،

---

(١) المصرى ١٤ / ٩ / ١٩٥٤م — الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف .

(٢) الازهر - مجلة المقتطف - الشيخ منصور رجب .

ومعلماً يقرى أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وأوقفت على ذلك الاوقاف الدارة بناحية الجيزة ، والصعيد ، والاسكندرية(١) .

وأصدر برقوق قراراً « بأن من مات من مجاوري الازهر من غير وارث شرعي وترك موجوداً فإنه يأخذه المجاورون بالجامع » .

وكان هذا لتقوية الازهر بعد أن طغت عليه المدارس والجامع الحاكمى . ولم يكتف الظاهر برقوق بإصدار المرسوم بل أمر بنقشه على حجر عند الباب الكبير البحري ليكون بمثابة إعلان دائم .

نعرف شيئاً عن نظام الأزهر والعلوم التي كانت تدرس فيه وبخاصة أيام المماليك الذين أنقذوه من اضطهاد الايوبيين السنيين ؟ بما ذكره المقريزي . فلقد رسم صورة لابأس بها نرى فيها شيئاً عن علومه ونظامه وعدد طلبته وما كان يجرى فيه قال :

فى سنة ٨١٨ ﻫ ولى نظر هذا الجامع مع الامير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت فى أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه وبلغت عدتهم فى هذه الايام ٧٥٠ رجلا ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ومن أهل ريف مصر ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، وصار أرباب الاموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلويات لاسيما فى المواسم . فأمر هذا الناظر فى جمادى الاولى من هـــذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن .

ومن هذا نرى أن الأزهر كان فى ذلك الوقت فوق كونه مدرسة لطلب العلم تدرس فيها العلوم المختلفة ومسجداً للعبادة ومكاناً للوعظ ، كان بجوار ذلك داراً للتصوف ، وتروى دائرة المعارف الإسلامية عن ابن إياس أن ابن الفارض الصوفى كان مقيما بالأزهر . ويروى رشيد بن غالب صاحب شرح ديوان ابن الفارض أن والد عمر ابن الفارض حين امتنع أن يقبل وظيفة قاضي القضاة ونزل عن حكم القاهرة ومصر بالنيابة عن الخليفة اعتزل الناس وانقطع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر

(١) خطط المقريزي جـ ٤ ص ٥٧

ولعل ابنه كان يقيم معه بعد أن كان يعود من سياحته فى جبل المقطم . وعلى كل فقد كانت المساجد والمدارس فى ذلك الوقت مفتوحة للرياضة الروحية بجوار درس العلم، وكانت المدارس والمساجد تقبل طلاب التصوف كما كانت تقبل طلاب العلم ، وتفتح صدرها لهؤلاء كما تفتح صدرها لاولئك . فمثلا البدر العينى صاحب عمدة القارى شرح صحيح البخارى حينما حضر إلى القاهرة مع شيخه العلامة السيرامى سنة ٧٨٨ هـ جعله الظاهر برقوق فى عداد صوفية البرقوقية .

ونرى الامير الكبير سيف الدين شيخو الناصرى لما أنشأ مسجده جعل فيه عشرين صوفيا، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخاً لهم .. ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الأكمل والصوفية إليها وزاد عدتهم .

ويذكر صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر : أن الشيخ أحمد ابن عيسى بن غلاب المنعوت بشهاب الدين الكلبى المالكى ، شيخ المحيا النبوى بالأزهر ، أخذ التصوف عن الشيخ الشعرانى وجلس بالمحيا الشريف بعد والده ، ووالده جلس بعد الشيخ البلقينى وهو جلس بعد الشيخ صالح ، وهو جلس بعد الشيخ نور الدين الشوقى المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

٢ — وقد أسهم الأزهر بنشاط كبير فى هذا العصر ، فى شتى نواحى الحياة والعلم والثقافة .

وكان ابن الدمامينى (٧٦٣ - ٨٢٧ هـ) - الذى ولد بالاسكندرية ، وفاق فى النحو والنظم والنثر ، وشارك فى الفقه وغيره من العلوم ، ومهر واشتهر ذكره - يتصدر بالجامع الأزهر لاقراء النحو(١).

وقد نبغ فى هذا العهد من العلماء : الدمامينى ، وابن عقيل المتوفى عام ٧٦٩ هـ (٢) ، وابن هشام المتوفى عام ٧٤٩هـ (٢) ، وابن إياس المؤرخ المتوفى عام ٩٣٠هـ ، وأبو حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ)(٣) ، وابن مكرم صاحب لسان العرب (٦٣٢ - ٧٦١ هـ)(٣) ، والرضى النحوى المتهور المتوفى عام ٦٨٤هـ(٣) ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢هـ)(٤)

---

(١) ٢٣١ جـ ١ حسن المحاضرة

(٢) ٢٣٠ جـ ١ حسن المحاضرة .. ويذكر باحث أن ميلاده عام ٧٠٧ هـ ووفاته كانت عام ٧٦١ هـ (٢٢٨ الحركة الفكرية فى مصر لعبداللطيف حمزة) .

(٣) ٢٢٩ جـ ١ حسن المحاضرة

(٤) ١٢٨ جـ ١ » »

وتقى الدين السبكى (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ)(١) ، وشيخ الاسلام البلقينى ٧٢٤ - ٨٠٥هـ(٢) والعينى(٣) ٧٦٢ - ٨٥٥هـ ، والشمنى(٤) ٨٠١ - ٨٧٢هـ ، وابن الهمام المتوفى عام ٨٦١ هـ (٥) ، والسيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) (٦) . . وكان من الصالحين عبد العال خليفة أحمد البدوى المتوفى ٧٣٢ هـ (٧) .

ولاشك أن كثيرا من هؤلاء وسواهم قد اتصلوا بالأزهر اتصالا علميا ، فجلسوا فى حلقاته متعلمين ، وتصدروها معلمين .

وكان بجوار الأزهر كذلك مدارس مشهورة منها المدرسة الظاهرية القديمة التى بناها بيبرس عام ٦٦١هـ ، ورتب بها لتدريس الشافعية بها تقى الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محي الدين بن عبد الرحمن بن الكحال بن العديم ، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطى ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرشي .

ومنها المدرسة المنصورية التى بناها الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك للطب .

ومنها المدرسة الناصرية التى بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة .

ومدرسة السلطان حسن التى بناها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٨ هـ

والمدرسة الظاهرية الجديدة التى فرغ من بنائها عام ٧٨٨هـ وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وللحديث والقراءات ، وكان الشيخ سراج الدين البلقينى مدرسا فيها للتفسير .

ولكن هذه المدارس كلها كانت عالة على الأزهر ، تأخذ منه ، وتستمد علماءها من خريجيه وأساتذته ، ويوجهها الأزهر توجيها علميا .

ومن أشهر من نبغوا فى هذا العهد من العلماء والأدباء والشعراء : الفيروزبادى صاحب القاموس المحيط المتوفى عام ٨١٧ هـ ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى المتوفى

---

(١) ١٣٠ ج ١ حسن المحاضرة
(٢) ١٣٥ ج ١ حسن المحاضرة
(٣) ٢٠١ ج ١ » »
(٤) ٢٠٢ ج ١ » »
(٥) ٢٠١ ج ١ » »
(٦) ١٤٠ ج ١ » »
(٧) ٢٢٥ ج ١ » »

عام ٨٢١ ﻫ ، والنويرى صاحب نهاية الأرب المتوفى عام ٧٣٢ ﻫ ، وابن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ ﻫ صاحب مالك الأبصار ، وتقى الدين ابن حجة الحموى (٧٦٧ - ٨٣٧ ﻫ) صاحب خزانة الأدب ، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (٦٩٦ - ٨٢٤) ، وصفى الدين الحلى عبد العزيز بن على (٦٧٧ - ٧٥٠ ﻫ) ، والشاب الظريف (٦٢١ - ٦٨٨ ﻫ) وجمال الدين محمد بن نباتة المصرى (٦٨٦ - ٧٦٨ ﻫ) ، وابن الوردى (٦٨٩ - ٧٤٩ ﻫ ، والبوصيرى (٦٠٨ - ٦٩٥ ﻫ) ، وابن دقاق المتوفى عام ٨٠٩ ﻫ مؤرخ الديار المصرية ، والمقريزى (٧٦٦ - ٨٤٥ ﻫ) ومحمد جمال الدين الوطواط المتوفى عام ٧١٨ ﻫ والدميرى صاحب حياة الحيوان المتوفى عام ٨٠٨ ﻫ ، وهم كلهم أوجلهم أثر من آثار الأزهر العلمية .

وقد حضر ابن خلدون إلى مصر واشترك فى الحياة العلمية فيها ، وزار حلقات الأزهر العلمية ، وتصدر للتدريس فيه .

كما هاجر إلى مصر فى هذا العهد كثير من العلماء الذين جددوا شباب النهضة العلمية فى العالم الإسلامى .

وقد كان من العلماء من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية ، وهؤلاء لا يحصون ، نذكر منهم على سبيل المثال : الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية ، فقد جاء فى سند إجازته ماملخصه : أنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية ، وله تآليف فى كثير منها ، وهى: الحساب والميقات ، والجبر والمقابلة ، والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الأسطرلاب ، والزيج والهندسة ، والهيئة ، وعلم الأرتماطيقى ، وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير ، وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .

وممن تولى التدريس فيه الفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات وإمام الأزهر ، وتولى ابن حجر خطابة الأزهر حينا آخر .

على أنه يوجد مع ذلك فى أنباء العصر مايدل على أن الأزهر كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ، يعاونه فى ذلك اتساع حلقاته وأروقته ، وتنوع دراساته ، وهيبته القديمة ، ومايلاقيه الطلاب فيه من أسباب التيسير فى الدراسة وأحيانا فى الإقامة . وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أى منذ عفت معاهد بغداد وقرطبة ، كعبة

الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وغدا أعظم مركز للدراسات الاسلامية العامة . ومنذ القرن الثامن الهجرى أخذ يتبوأ الأزهر فى مصر وفى العالم الاسلامى نوعا من الزعامة الفكرية والثقافية . وفى أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ، ويستأثرون بمراكز التوجيه والارشاد . وكان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا ، وأحيانا فى مصاير العرش والسلطان .

وربما كانت هذه الفترة فى الواقع هى عصر الأزهر الذهبى من حيث الانتاج العلمى الممتاز ، ومن حيث تبوؤه لمركز الزعامة والنفوذ .

وفى أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية فى مصر الاسلامية فى الاضمحلال وذلك تبعاً لاضمحلال الدولة المصرية والمجتمع المصرى . وكانت دولة السلاطين قد شاخت وأخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة ، وتصدع بناء المجتمع المصرى وأخذ فى الانحلال والتفكك ، واضطربت أحوال المعاهد والمدارس المصرية وتضاءلت مواردها ، وفقدت كثيراً مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء ، وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود . ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة فانهارت الدولة المصرية ، وفقدت مصر استقلالها التالد وسقطت صريعة الغزو العثمانى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) .

الفصل السابع

الأزهر فى عهد الدولة العثمانية

٩٢٣ — ١٢٢٠ هـ

تمهيـــد :

خضعت مصر للحكم العثمانى خضوعا تاما منذ عام ٩٢٣ ، واستمرت ولاية عثمانية إلى أن وضع محمد على يده عليها عام ١٢٢٠ هـ ، وكان يتولى الحكم فيها الوالى التركى ومساعدوه ، ويسنده الجيش والمماليك .

الحركة العلمية فى الأزهر :

في أواخر القرن التاسع أخذت الحركة العلمية في مصر الاسلامية تضمحل ،

وكانت دولة السلاطين هى الأخرى فى طريقها إلى الانهيار ، واضطربت أحوال المجتمع وتفككت عراه ، وأصاب المدارس الركود ، وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول ، وفقدت مصر استقلالها ، وسقطت فى يد الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) وتقلص ظل الازدهار العلمى ، وانصرف كثير عن العلوم العقلية والفلسفة والرياضة والجغرافيا ، وأخذ القول بحرمتها يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى تركت هذه العلوم من الأزهر ، وبقيت مهجورة ينظر إليها بعين السخط ، حتى صدرت أخيراً فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الانبابى والشيخ محمد محمد البنا المفتى بجواز تعلمها وعدم حرمة تدريسها .

وفى الحق أن الفتح العثمانى قضى على مظاهر النشاط الفكرى التى كانت مزدهرة فى عهد السلاطين . فقد عنى الغزاة الأتراك عقب الفتح مباشرة بتجريد مصر الاسلامية من ذخائرها النفيسة فى الآثار والكتب ، وحمل كل ذلك إلى القسطنطينية ، وقد قبض الغزاة على العلماء الأعلام والزعماء وقادة الفكر وبعثوا بهم جميعاً إلى تركيا ، وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية الاسلامية ، وتضاءل شأن العلوم والفنون ، وانحط معيار الثقافة ، بعد أن كانت مصر موئل الثقافة ومحط العلماء بعد سقوط بغداد على أيدى المغول ، وانقضاء البقية الباقية من سلطان المسلمين فى الأندلس . بعد أن وجد العلماء من المماليك ما أملوا ، ووجد الاسلام فيهم حماة يقفون له كما وقف الأيوبيون من قبل ، وكان ردهم للمغول فى موقعة عين جالوت على يد قطز حدثا تاريخياً حفظ الحضارة الاسلامية من معاول التتر ، ورفع شأن مصر ، وجعلها مهبط الثقافة الاسلامية ، والأمينة على تراث الاسلام منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد كان الفضل فى ذلك للأزهر . فقد اتسع صدره للواردين من العلماء والطلاب فى كافة البلاد ، ومكن لهم من الدراسة الهادئة والبحث المنظم مما أفاد الحضارة الانسانية بأجزل الفوائد ، بما أخرجوا من فرائد الكتب فى الفقه والحديث والتفسير واللغة .

وإذا كان الأزهر قد انطوى على نفسه فى العصر التركى وذوت آثاره العلمية ، فقد استطاع بما له من نفوذ فى نفوس العامة والخاصة أن يحمل العناصر الاستعمارية على احترام مكانته وعلى اللجوء إليه فى الملمات ، وكان يتوسط فيما ينشب بينهم وبين المصريين من خلاف ، واستطاع الأزهر فى هذه الحقبة المظلمة من تاريخه أن يحفظ اللغة العربية ، وأن يقاوم لغة الفاتحين ، وأن يبقى بابه مفتوحا لطلاب

العلوم الاسلامية واللغة العربية مدى ثلاثة قرون ، حتى انزاح عن صدره الكابوس التركى ، وبدأ النور يبزغ من جديد فى أوائل القرن التاسع عشر يحمل فى طياته الأمل . . وقد تميز العصر التركى فى مصر بفتور الهمم عن التأليف والتدوين ، وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة والأمور النافعة إلى ملق الحكام والأكابر ، وتدوين سيرهم الشخصية . وأما العلماء فقد استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لامطمع لهم فى الاجتهاد ، فاقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لايوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وما جد فى الحياة من علم ، وما جد فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له .

ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف . عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح رضوان الله عليهم وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشرح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشى فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف ، وشرح ، وشرح شرح ، وشرح شرح الشرح ، وكانت النتيجة أن تطرق الابهام إلى المعانى الأصلية ، واضطربت المباحث ، واختلت التراكيب ، وتعقدت العبارات ، واختفى مراد المصنف .

وورث الأزهر من هذا التعقيد العناية بالمناقشة اللفظية ، وتتبع كلمات المؤلفين فى المصنفات والشروح والحواشى والتقارير ، وتغلبت هذه العناية اللفظية على الروح العلمية الموضوعية ، وصرفت الذهن عن الفكرة الأصلية إلى ما يتصل بها من ألفاظ وعبارات .

واتجه العلماء إلى الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التى لاتقع ومايتصل بها من أحكام ، وعلى الأخص فى العبادات والمعاملات ، وبدأوا يصنفون الرسائل فى هذه الفروض والاحتمالات ، وبذلك انصرفوا عن تنمية الفقه العملى الذى يحتاج اليه الناس فى معاملاتهم .

وانصرف الأزهر فى هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية ، ووجد فيه من ينادى بتحريمها ، وهكذا بدت بوادر الانحلال فى الأزهر ، وانقطعت صلته بماضيه الزاهر ، ووقفت حركة التفكير العلمى ، وكادت هذه المدرسة الاسلامية

الكبرى أن تفقد ميزاتها ، من حرية الفكر والانتاج الخصب ، لولا أن قيض الله لها مصلحين أخذوا بيدها ، وجنبوها عواقب هذه الآفات والعلل حتى تجمعت فيها ، وأثرت فى مجرى حياتها .

لقد نفى العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية (١) ؛ وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية . وما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة فى مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجرى المصريين مثل المقريزى ، والسيوطى ، والسخاوى وابن إياس ، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمى .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر عقب الفتح التركى ، كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة ، واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة ، يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، واختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت زاهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية . لم تكن تدرس به فى أواخر القرن الثانى عشر ، وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) ، فى نقاشه للشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر يومئذ وأنكره فى حديث أورده الجبرتى (٢) ، مما يدل على ما آلت اليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركى من التأخر والركود .

على ان الجامع الأزهر ـ كما يقول عنان ـ قام عندئذ بأعظم وأسمى مهمة أتيح له أن يقوم بها . فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالد وهيبته القديمة فى نفوس الغزاة أنفسهم ، فنجد الفاتح التركى يتبرك بالصلاة فيه غير مرة (٣) ، ونجد الغزاة يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكاناً

---

(١) يعقد ابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى فصلا خاصاً يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ١٩٣ .

(٣) راجع ابن إياس فى بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ و ١٣٢ .

خاصاً ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية . وفى خلال ذلك صار الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ، وغدا بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية ، يحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدرأ عنها عادية التدهور النهائى ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى (١) .

وهكذا استطاع الأزهر فى تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية أجل الخدمات . وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركى ملاذاً لطلاب العلوم الاسلامية واللغة العربية من سائر أنحاء العالم العربى والعالم الاسلامى ،فأكبر الفضل فى ذلك عائد إلى الأزهر . وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها أن تحمى هذا التراث نحو ثلاثة قرون ، حتى انقضى العصر التركى بمحنه وظلماته ، وقيض لها أن تبدأ منذ اوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة يمازجها النور والأمل .

وربما كانت هذه المهمة السامية التى ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية والعالم الاسلامى بأسره ، هى أعظم ماأدى الأزهر من رسالته ، وأعظم ماوفق لاسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .

---

(١) كان بين الاساتذة الذين تولوا التدريس بالجامع الأزهر فى أوائل العصر العثمانى : نور الدين على البحيرى الشافعى المتوفى سنة ٩٤٤ ﻫ ، والعلامة شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠ ﻫ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى سنة ٩٥٠ ﻫ ، وشمس الدين الشيشينى القاهرى الشافعى ، والامام شمس الدين أبوعبدالله العلقمى المتوفى سنة ٩٦٢ﻫ ، والامام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة (راجع فى تراجم هؤلاء العلماء ، الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ـ مخطوط بدار الكتب) .

وكان منهم فى أواسط العصر العثمانى : عبدالباقى بن يوسف الزرقانى المالكى المتوفى سنة ١٠٩٩ﻫ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوى المتوفى سنة ١١٠١ﻫ ، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشرنبابلى المتوفى سنة ١١٠٢ ﻫ . والامام العلامة ابراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ ﻫ والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى جد والد الجبرتى المؤرخ ، وقد توفى سنة ١١١٦ ، والعلامة عبدالحى بن عبدالحق الشرنبلالى المتوفى سنة ١١١٧ ﻫ (راجع فى تراجم هؤلاء العلماء عجائب الآثار للجبرتى ، الجزء الأول) .

نصيب الأزهر من التعمير فى هذا العصر :

فى عام ١٠٠٤ هـ أيام ولاية الشريف محمد باشا على عمر الأزهر ، وجدد ماخرب منه ، ورتب فيه غذاء للفقراء

وفى عام ١٠١٤ عمر الوزير حسن والى مصر مقام السادة الحنفية أحسن عمارة وبلطه بالبلاط الجيد ، وقد تولى ولاية مصر من عام ١٠١٤ - ١٠١٦ هـ

وجدد اسماعيل بن إيواظ سقف الجامع الأزهر الذى كان آيلا للسقوط ، وقد مات اسماعيل عام ١١٣٦ هـ ومن آثاره إنشاء مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى ومسجد سيدى على المليجى

وأنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة فى الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقى ، وبنى به محرابا جديدا ، وأنشأ به منبرا وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة المعروفة بالدودارى وهو المشهور اليوم بباب الصعايدة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على اعمدة من الرخام لتعليم الايتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف وجعله بداخله رحبة متسعة وصهريجا عظيما وسقاية للشرب ، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة منقوش عليها اسماء العشرة المبشرين بالجنة وكتابات أخرى . . وقد توفى الامير عبد الرحمن كتخدا (١) عام ١١٩٠ هـ (٢)

وبنى أمام المدفن المذكور رواقا مخصوصا بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم الشريف بالازهر ، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب وبنى بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع وهو المشهور بباب الشوربة ، وجعل أيضا عليه منارة ، وأنشأ الطيبرسية انشاء جديداً ، وأنشأ الباب الكبير المعروف اليوم بباب المزينين ، وجعل أيضا على يمينه منارة ، وجعل فوقه مكتبا وبداخله على يمين الداخل ميضأة ، وأنشأ لها ساقية ، وصار الان محل

---

(١) ٥ - ٨ جـ ٢ الجبرتى .

(٢) وتوفى الأمير حسن بك رضوان عام ١١٩٢ وكان شاعر مجيدا (٣٨ - ٥٠ جـ ٢ الجبرتى) وكان الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمنهورى شاعر الأمير على بك وكاتبه وتوفى عام ١١٩٣ هـ (٥٤ - ٥٦ جـ ٢ المرجع)

الميضة حجرة مكتبة إدارة الأزهر ، وقد جاء هذا الباب الكبير ومابداخله من الطيبرسية والاقبغاوية من أحسن المبانى فى العظم والوجاهة والفخامة وأرخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات :

تبارك الله باب الأزهر انفتحا ... وعاد أحسن مما كان وانصلحا
تقر عيناً إذا شاهدت بهجته ... باخلاص بان له للعلم والصلحا
وادخل على أدب تلق الهداة به ... قد قرروا حكماً يزدانها رجحا
بالباب قد بدأ الاكوان أرخه ... بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

وجدد رواقا للسكاويين والتكروريين وزاد فى مرتبات الجامع ، ورتب للطبخه فى خصوص أيام رمضان فى كل يوم خمسة أرادب أرزا أبيض وقنطارا من السمن ولحوما وغير ذلك من المرتبات والزيت والوقود للطبخ ، وزاد فى طعام المجاورين .

ولما مات هذا الأمير عام ١١٩٠ ﻫ صلى عليه فى الأزهر ، ودفن فى مدفنه الذى أعده لنفسه فيه .

وقد حدثت فى الأزهر فى هذا العهد عدة حوادث مختلفة .. فلما توفى ثانى شيخ للأزهر وهو الشيخ النشرتى وقعت فتنة بالأزهر عام ١١٢٠ ﻫ بسبب المشيخة والتدريس بالاقبغاوية وافترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى والأخرى تريد الشيخ عبد الباقى القلينى ولم يكن حاضراً بمصر ، فتعصب له جماعة النشرتى ، وارسلوا يستعجلونه للحضور فقبل حضوره تصدر الشيخ النفراوى وحضر للتدريس بالاقبغاوية فمنعه القاطنون بها وحضر القلينى فانضم اليه جماعة النشرتى وتعصبوا له لحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم بنادق وأسلحة وضربوا بالبنادق فى الجامع وأخرجوا جماعة القلينى وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان النشرتى ، فاجتمعت جماعة القلينى فى يومها بعد العصر وكبسوا الجامع واقفلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوى فقتلوا منهم نحو العشرة وجرح بينهم جرحى كثيرون وانتهبت الخزائن وكسرت القناديل وحضر الوالى فأخرج القتلى وتفرق المجاورون ولم يبق بالجامع أحد ولم يصل فيه ذلك اليوم وأمر النفراوى بلزوم بيته واستقر القلينى مكانه .

ولما قربت وفاة شيخ الاسلام الشيخ الدمنهورى الشيخ التاسع للأزهر رغب الشيخ العريشى الحنفى فى المشيخة اذ هى أعظم مناصب العلماء فحضر إلى الجامع مع

إبراهيم بك وجمع الفقهاء والمشايخ وعرفهم أن الشيخ الدمنهوري أقامه وكيلا وبعد أيام توفي الشيخ الدمنهوري فتعين هو للمشيخة بتلك الطريقة وساعده الأمراء وكبراء الأشياخ وأبو الانور السادات وكاد أمره يتم ، ومنع من ذلك اجتماع بعض الشافعية وذهابهم إلى الشيخ أحمد الجوهري حيث ساروا إلى بيت البكرى وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية مثل الشيخ أحمد العروسى والشيخ أحمد السمنودى والشيخ حسن الكفراوى ، وكتبوا طلبا للأمراء مضمونه أن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد وخصوصا إذا كان آفاقيا كالشيخ عبد الرحمن العريشى وفى العلماء الشافعية من هو أهل لذلك علما وسنا وانهم اتفقوا على أن يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد العروسى، وختموا جميعاً على الطلب وأرسلوه إلى ابراهيم بك ومراد بك فتوقف الأمراء وشددوا فى عدم النقض ورد الطلب للمشايخ فقاموا على ساق ، وشدد الشيخ الجوهرى فى ذلك وركبوا بأجمعهم إلى جامع الامام الشافعى وباتوا به ليلة الجمعة ، فهرعت الناس ينظرون فيما يؤول اليه هذا الامر وكان للامراء اعتقاد فى الشيخ الجوهرى، فسعى أكثرهم فى انفاذ غرضه وخافوا العطب أو ثوران فتنة وحضر مراد بك للزيارة ، فكلمه الشيخ الجوهرى وقال له لابد من فروة تلبسها للشيخ العروسى ويكون شيخا على الشافعية وذاك شيخ على الحنيفية كما أن الشيخ الدرديرى شيخ المالكية والبلد بلد الامام الشافعى وقد جئنا اليه وهو يأمرك بذلك فان خالفت يخشى عليك فاحضر فروة وألبسها للشيخ العروسى وذهب العروسى إلى بيته وأخذ شأنه فى الظهور واحتد العريشى لذلك وذهب إلى السادات والامراء فألبسوه فروة وتفاقم الأمر وصاروا حزبين، وتعصب للعريشى طائفة الشوام والمغاربة ومنعوا الطائفة الاخرى من دخول الجامع واستمر الامر نحو سبعة أشهر إلى وقوع حادثة بين الشوام والاتراك واحتد الامراء الجنسية واكدوا فى طلب الفصل فى الأمر وتصدى العريشى للذب عن الشوام، فانطلقت عليه الألسن وانحرف عليه الامراء وطلبوه فاختفى فعزلوه عن الافتاء وحضر الأغا وصحبته العروسى للقبض على الشوام ففروا فاغلقوا رواقهم وسمروه أياما ، ثم اصطلحوا وثبتت مشيخة العروسى وامر العريشى بلزوم بيته فاختلى بنفسه للعبادة ومرض من الحزن وتوفى سنة ١١٩٣ ه رحم الله الجميع ...

وفى غرة رمضان سنة ١١٩٩ ثار فقراء المجاورين والقاطنون بالأزهر وأقفلوا أبوابه ومنعوا منه الصلوات وكان ذلك يوم جمعة فلم يصل فيه ذلك اليوم وكذلك اغلقوا المسجد الحسينى وخرج العميان والمجاورون يسيرون فى الاسواق ويخطفون ما يجدونه

من الخبز وغيره ، وبسبب ذلك قطع رواتبهم واخبازهم المعتادة ، واستمروا على ذلك حتى حضر سليم أغا بعد العشاء فى المدرسة الأشرفية وأرسل إلى مشايخ الأروقة وتكلم معهم والتزم لهم بإجراء رواتبهم ... وفى سنة ١٢٠٠ هـ قطعت أخبازهم ومرتباتهم وفعلوا امثل ذلك وحضر اليهم سليم أغا مثل الأول والتزم ولم يوف ، فضجت المجاورون فوق المنارات فحضر ونجزلهم بعض المرتبات مدة ، ثم انقطع ثم التزم وتكرر الغلق والفتح مرارا عديدة مع منع المرتبات واجرائها

وفى أول جمعة من جمادى الأولى سنة ١٢٠٠ هـ ثار جماعة من أهالى الحسينية بسبب ماحصل من حسين بك بشفت فانه تسلط على هجم البيوت فركب بجنده إلى الحسينية وهجم على دار أحمد سالم الجزار المتولى رياسة دراويش الشيخ البيومى ونهبه حتى حلى النساء والفرش ، فحضر أهل الحسينية إلى الجامع الازهر ومعهم طبول وانضم اليهم كثير من العامة وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير فساعدهم بالكلام، وقال لهم انا معكم فخرجوا من نواحى الجامع وأقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على المنارات يصيحون ويدقون بالطبول وانتشروا بالاسواق فى حالة منكرة واغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : فى غد نجمع أهالى الاطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ونركب معهم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم، فلما كان بعد المغرب حضر سليم اغا ومحمد كتخدا الجلفى كتخدا ابراهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه وخافوا من تضاعف الحال وقالوا اكتبوا لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها من محل ما تكون وقرءوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا، وركب الشيخ إلى إبراهيم بك وأرسل إلى حسين بك واحضره وكلمه فى ذلك فقال : كلنا نهابون أنت تنهب ومرادبك ينهب وأنا أنهب ثم انفض المجلس وهدأت القضية .

وبعد حادثة أهل الحسينية السابقة بأيام قليلة تعصب مجاورو الصعايدة فى الازهر وأبطلوا دروس المدرسين به بسبب نهب سليمان بك الأغا سفينة لهم فيها تمر وسمن مدعيا أنه مالا متأخرا عند أولاد وافى فى الصعيد وان ذلك مالهم ، وليس كذلك بل هو مال مجاورى الصعايدة ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسى والشيخ المصيلحى وآخرون إلى إبرهيم بك وتكلموا معه بحضرة سليمان بك كلاما كثيرا مفحما ، فرد سليمان بك بعض ما أخذه .

وقد حدثت حوادث حصلت أيام مشيخة الشيخ الشرقاوى ، منها ان طائفة

المجاورين بالازهر من الشرقاويين كانو قاطنين بالطيبرسية وكانت لهم خزائن برواق معمر فوقع بينهم وبين أهل الطيبرسية مشاجرة وضربوا نقيب الرواق ومنعهم شيخ الطيبرسية منها وكان ذلك سببا لبناء رواق الشراقوه .

ومنها فى سنة ١٢٠٩ ﻫ حضر أهل قرية بشرقية بلبيس ، وذكروا ان اتباع محمد بك الالفى ظلموهم وطلبوا منهم مالا لاقدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ الشرقاوى من ذلك وحضر إلى الازهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك وإبراهيم بك ولم يبديا شيأ ، وأمر الشيخ الناس بغلق الاسواق والحوانيت ثم ركبوا ثانى يوم إلى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة وازدحموا امام الباب والبركة ، بحيث يراهم ابراهيم بك ، فأرسل لهم أيوب بيك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا نريد العدل وأبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها ، فقال لاتمكن الاجابة إلى هذا كله فانا ان فعلنا ذلك لضافت علينا المعايش ، فقالوا ليس هذا بعذر عندالله وما الباعث على الاكثار من النفقات والماليك والامير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ ، فقال حتى أبلغ وانصرف وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الازهر ، واجتمع أهل الاطراف وباتوا به ، فبعث مراديك يقول أجيبكم إلى جميع ماذكرتموه إلا الشيئين : ديوان بولاق وطلبكم المتأخر من الجامكية ، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم باسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح ، وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء والمشايخ فى بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوى وانعقد الصلح على رفع المظالم ماعدا ديوان بولاق وان يكفوا أتباعهم عن مد ايديهم إلى أموال الناس ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك ووقع عليها الباشا والامراء وانجلت الفتنة ، وفرح الناس نحو شهر ، ثم عاد الحال إلى أصله .

ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم شاه العثمانى دخل الجامع الأزهر يوم الجمعة سنة ٩٢٣ﻫ فصلى به الجمعة وتصدق هناك بمبلغ كبير .. وزار الأزهر الشريف السلطان الأعظم عبد العزيز خان ، وقد حظى بكثير من خيرات ملوك آل عثمان .

الأزهر والحركة العلمية فى هذا العهد :

نبغ من هذا العصر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الشهاب الخفاجى المتوفى ١٠٦٩ ﻫ ، والبديعى المتوفى عام ١٠٧٣ ﻫ ، وعبد القادر البغدادى المتوفى عام ١٠٩٣ ﻫ صاحب خزانة الأدب ، والسيد مرتضى الزبيدى (١١٤٥ –

١٢٠٥ ﻫ) مؤلف تاج العروس ، والصبان المتوفى عام ١٢٠٦ ﻫ ،

ومنهم المحبي (١٠٦١ - ١١١١ ﻫ) مؤلف خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادي عشر ، والشعرانى المتصوف المتوفى عام ٩٧٣ ﻫ ، وعبد الله الشبراوى المتوفى عام ١١٧٢ ﻫ ، وسواهم .

وهؤلاء كانوا من غير شك ممن أفادوا من الأزهر ، وتأثروا به

وفى هذا العهد استمر الأزهر مدى القرون الثلاثة التى حكم العثمانيون فيها مصر، يجاهد لحفظ البقية الباقية من اللغة العربية والعلوم القرآنية التى أصبحت فى حال ذبول أو شبه جفاف ، وكان له الفضل على كل حال فى الابقاء على حشاشة هذا التراث الإسلامى ، لقد صار الأزهر أشهر الجوامع فى التدريس على الاطلاق . وقصده طلاب العلم من كل ناحية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار . ولكل طائفة منهم رواق باسمهم كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم ، أو الزيالعة ، أو اليمنية أو الهندية ، فضلا عن أروقة الصعيد .

وبلغ عدد تلاميذ الأزهر فى أوائل القرن التاسع للهجرة - أى نحو عام ٨١٨ ﻫ ٧٥٠ طالبا من طوائف مختلفة ، وكانوا مقيمين فى الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم يتعلمون فيه فى الفقه والحديث والنحو والمنطق ، وزادوا فى عصر العثمانيين على ذلك زيادة كبيرة .

وفى كتاب التعليم العام فى مصر مايفيد أن العلوم التى كانت تدرس غالباً بالأزهر حتى منتصف القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) هى الآداب والفقه التوحيد .

وكانت تدرس أحياناً بصفة استثنائية علوم الفلك ، والعلوم الرياضية ، والعلوم الطبيعية ، والتجريبية ، إجمالا

واشتدت المنافسة الفكرية التى كانت بين المذاهب فى الأزهر ، والتى أدت إلى ظهور المذاهب الشافعى على سائر المذاهب، حيث نرى منذ هذا الوقت المذاهب كلها تدرس سويا بالأزهر ، إلا أن المشيخة كانت فى الغالب للشافعيين . والمنافسة كما يدلنا التاريخ كانت شديدة على هذا المنصب ، وكانت فى أكثر الأوقات تدور بين المذهبين الشافعى والحنفى ، والمذهب الحنفى كان غالباً مذهب الأمراء والولاة من الاكراد والمماليك والاتراك . ولازلنا للآن نجد المذهب الحنفى فى صف السلطة القضائية فى هيئة الحكم

فعليه تسير المحاكم الشرعية فى قضائها . ويرى الأستاذ « فولر » أن وجـــود جدث الإمام الشافعى الطاهر فى مسجده المنيف ، وكذلك سلطانه الروحى فى نفوس الاهالى ، مما ساعدا على كثرة اتباعه . وقد يكون هذا صحيحا ، والواقع أن مرجع هذه المنافسة يعود إلى خلاف فى طبيعة المذهبين .

ومهما يكن من أمر فالأزهر فى كل عصوره حتى حكم محمد على كان مركز التعليم الذى تدور حوله الحركة العلمية فى البلاد ، ولهذا المركز الممتاز أدت هـــذه الجامعة خدمتين من أجل الخدمات التى لهذا أثرها الواضح فى حياة مصر الاجتماعية والسياسية عامة : الأولى عمله على نشر اللغة العربية وتوطيدها بالبلاد المصرية ، وشد أزرها ضد اللغة القومية التى غزاها الاسلام بلغته العربية العريقة . والثانية دعم أسس الديانة الاسلامية ووقوفها تسند الاسلام بكل ماانبعث فيها من المجهودات العقلية والروحية .

والخطة التى انتهجها الأزهر تتلخص فى أنه بعد زوال الدولة الفاطمية وعمل صلاح الدين على إبادة آثارها ، أدخلت المذاهب الأربعة فى الأزهر وصارت سواسية فى التدريس فيه ، وكان لكل مذهب شيخ ، وله مطلق السلطة على الأساتذة والطلاب الذين ينضمون تحت لواء مذهبه

وكان من آثار الأزهر فوق هذا أن جعل لمصر مكانة ممتازة وسلطانا أدبيا على شعوب الشرق ، وأصبحت البلاد الشرقية تنظر إلى مصر نظرة الحائر إلى الهادى المرشد . وتعترف لها بالفضل والعلم .

وكان التعليم فيه على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى يبدأ التلميذ فيها بتعلم الهجاء والقراءة والكتابة ويحفظ ماتيسر من القرآن عن ظهر قلب ليكون هذا الجزء المادة التى يستطيع أن يطبق التلميذ فيها عمليا ماأخذ من المعلومات النظرية فى تعلمه قواعد الهجاء والكتابة ، فيطالب التلميذ بكتابة هذا الجزء وقراءته ، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابة وقراءة وحفظا حتى يتم القرآن وهذه أول مراحل التعليم ، ويكون التلميذ فيها قد تعلم القراءة والكتابة وتستغرق هذه المرحلة من سنتين إلى ثلاث

ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية ويظل تحت اشراف أستاذه ، يعطيه دروسا فى القراءة والكتابة ، وموضوعات انشائية سهلة تتدرج فيها من السهولة إلى الصعوبة ، متمشيا فى ذلك مع النمو العقلى للتلميذ ، ويكون التلميذ فى هذه السن على أبواب دور المراهقة وكل ما استفاده من هذه البرامج تحصيله للقرآن الشريف ، فالتلميذ يستطيع أن

يستغل ماحفظه منه فى تعمير حياته الروحية ، وتلاوته تكون سلواه وأنيسه ، ويتخير من الآيات ما يتفق ونفسه فيستعملها فى دعائه وعبادته وصلاته كل يوم ، وتكون قواه العقلية بهذا التمرين قد نشطت بوجه ما ، ويكون لسانه قد تقوم واكتسب اللهجة العربية الفصحى . . وأظهر ما يبدو فى هـــذا الأسلوب التعليمى أنه لايبدأ بتعليم القواعد والتعاريف والكليات فى اللغة إلا بعد أن يكون التلميذ قد تذوق هذه اللغة بنفسه ، وتكونت فى عقله ملكة وذوق .

وأغلب المتعلمين كانوا يقفون عند هذا الحد ، ويتخرجون فى سن الثانية عشرة ، وبعضهم كان يخطو إلى المرحلة الثالثة ، يدرسون فيها علوم الدين من فقه وحديث وتوحيد الخ ، وفى الأحوال الاستثنائية كان بعض الأفراد يدرسون العلوم الطبيعية والرياضية .

والمتخرج ما كان يحصل على شهادة يعترف بها رسميا ، وإنما كان يعتمد على مجهوده الشخصى وشهرته وكفاءته فى إلزام الناس بالاعتراف بوجوده ومنزلته ، وكان لايتصدر للتدريس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر ، وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلا للتصدر ، حلالا للمشكلات ومعضلات المسائل ، فلايحتاج لاستئذان إلا على جهة الأدب والبركة ، وإنما يعلم بعض المشايخ والطلبة فيحضرون درسه ، ويتبركون عليه ، وهو يتأنق فى الابتداء ويتهالك فى طريق الأغراب والتوغل وقد يتعصب عليه بعض الحاضرين ويتعنت ، والبعض الآخر ينتصر له ، وإذا تلعثم فى إجابته لسائل ربما أقاموه ومنعوه من التصدر ، وإذا عاند ربما ضربوه .

ولم يكن للأزهر شيخ منذ أن أنشىء إلى القرن العاشر ، وإنما كان يتولاه الملوك والأمراء الذين كانوا يهتمون بشأنه ويكرمون أهله ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى جعل للأزهر شيخ ، ومما يجمل ذكره أن شيخ الأزهر كان بمثابة شيخ الاسلام فى دار الخلافة ، فكان يقوم بشئون الأزهر ويرعى أمور أهله ويفصل فى قضاياهم ويضبط مرتباتهم ، ويمثلهم لدى الحكومة ، ومنوط به إقامة شعائر الدين فى أنحاء القطر قاطبة .

وأول من تولى المشيخة ـ كما قاله الجبرتى ـ هو الامام محمد بن عبد الله الخرشى المالكى ، وقد توفى سنة ١١٠١ هـ ، وتولى بعده الشيخ محمد النشرتى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ ، وجاء بعده الشيخ عبد الباقى المالكى القلينى ، فلمامات تقلد بعده الشيخ محمد شنن المالكي المتوفى سنة ١١٣٣ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم ابن موسى

الفيومى المالكى المتوفى سنة ١١٣٧ ه ، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم الشبراوى الشافعى وتوفى سنة ١١٧١ ه ، فتولى المشيخة بعـــده الشيخ الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ه ، ثم تولى المشيخة بعده الشيخ عبدالرؤوف السجينى وتوفى سنة ١١٨٢ ه ، ثم تولى بعده الشيخ أحمد الدمنهورى المذاهبى وتوفى بمنزله ببولاق سنة ١١٩٢ ه ، وبعد وفاته حصل نزاع فى تولى المشيخة بين الشيخين عبد الرحمن بن عمر العريشى الحنفى وأحمد العروسى الشافعى مدة سبعة أشهر ، ثم آلت إلى الثانى وتوفى سنة ١٢٠٨ ه ، فانتقلت المشيخة الى الشيخ عبد الله الشهير بالشرقاوى وهو الذى أنشأ رواق الشراقوة ، وقد دخل الفرنسيون مصر فى أيامه وانتخبوه عضوا فى الديوانين : العمومى والخصوصى .

الأزهر وتاريخنا القومى :

قاد الأزهر ثورتين هامتين تعتبران من أسبق الثورات الدستورية العالمية ، إحداهما كانت بقيادة أكبر علماء ذلك العصر وهو الامام أحمد الدردير ، والأخرى بقيادة شيخ الازهر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى رحمهما الله تعالى .

فالثورة الاولى سبقت إشارتها وخلاصتها أنه فى يوم من أيام ربيع الاول عام ١٢٠٠ ه (يناير عام ١٧٨٦م) نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى أحمد سالم الجزار بالحسينية جهاراً نهاراً ظلماً وعدوانا . فثارت ثائرة الأهالى ، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه واتفقوا أخـيرا على الالتجاء إلى أقوى العلماء شخصية وأوسعهم نفوذا ، وهو الامام الدردير ، فاجتمع الأهالى فى اليوم التالى للحادث ويمموا شطر الجامع الأزهر وقصدوا الشيخ وأخبروه بالواقعة ، فغضب الشيخ لاستهتار الامراء وتعسفهم ونادى فى الجماهير غير هياب ولا وجل : أنا معكم ، وغدا نجمع أهالى الاطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، وأمر الشيخ بدق الطبول على المنارات إيذانا بالاستعداد للقتال ، وترامت الاخبار بين الاهالى ، فأسرعوا نحو الازهر للاشتراك فى المعركة ، وكانت أخبار الجماهير الهائجة قد وصلت إلى إبراهيم بك ، وبلغه تصميم الامام الدردير على قياد الشعب ضد الامراء ، وكان يعلم مقدار ما للشيخ من نفوذ ومكانة على الاهالى ، فخشى أن يستفحل الامر ويؤدى إلى ضياع سلطته فى مصر ، فأرسل نائبه ومعه أحد الامراء إلى الامام الدردير واعتذر له عما حدث ، ووعد بأن يكف أيدى الأمراء عن الناس . كما قرر توبيخ حسن بك شفت على صنيعه وطلب قائمة بجميع ما نهبه ليأمره

برد ذلك إلى صاحبه ، وهكذا وضع هذا الامام قاعدة دستورية هامة وهي احترام الحاكم لارادة المحكومين (١)

والثورة الثانية(٢) تتلخص كما تقدم فى أنه فى شهر ذى الحجة عام (١٢٠٩هـ - ١٧٩٥م) اشتكى فلاحو قرية من قرى بلبيس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فبلغ الشيخ الشرقاوى الشكوى إلى كل من مراد وإبراهيم بك ، وخاطبهما فى كف أذى محمد بك الالفى عن الفلاحين فلم يفعلا شيئا . فما كان من الشيخ الشرقاوى رحمه الله تعالى إلا أن عقد اجتماعا فى الازهر حضره العلماء وتشاوروا فى الامر فاستقر رأيهم على مقاومة الامراء بالقوة حتى يجيبوا مطالبهم ، وقرروا إغلاق أبواب الجامع الازهر ، وأمروا الناس بغلق الاسواق والحوانيت استعدادا للقتال .

وفى اليوم التالى : ركب الشيخ الشرقاوى ومعه العلماء وتبعهم الجماهير وسار الجميع إلى منزل الشيخ السادات يستشيرونه فى بدء المعركة ، وكان قصر إبراهيم بك قريبا من قصر الشيخ السادات ، فراعه احتشاد الجماهير هناك ، وعلم باجتماع العلماء عند الشيخ السادات ، فبادر بإرسال أيوب بك الدفتردار ليسأل عن مرادهم .

فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فأجابهم قائلا : لايمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقالوا له : هذا ليس بعذر عند الله ولاعند الناس ، وماالباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالاعطاء لا بالأخذ ! .

فقال لهم : حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب .

صمم العلماء فى هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الأمراء ، فإما أن يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة . وأعلنوا أهالى القاهرة بعزمهم ، فتقاطرت الجماهير صوب الأزهر وباتوا هم والعلماء داخل المسجد وحوله .

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب ومرابطته مع العلماء استعدادا للقتال. فأرسل إلى العلماء يعتذر إليهم ويبرىء نفسه ملقيا التبعة على شريكه فى الحكم مراد

(١) مجلة الازهر عدد شوال ١٣٧٢ الاستاذ احمد عز الدين خلف الله ـ والجبرتى طبعة بولاق جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٢٥٨ ، والاستاذ خلف الله فى مجلة الازهر

بك ، بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ يقول « أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى » ، وأرسل مراد بك يستحثه لعمل شيء ويخيفه عاقبة الثورة التى توشك أن تنفجر .

وفى اليوم الثالث للثورة توجه والى مصر إلى منزل إبراهيم بك واجتمع مع أمراء المماليك وقرروا إيجاد حل سريع حاسم قبـــل أن يفلت الزمام فتشتعل الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع ، فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وطال الحديث بينهم ، وكان مداره حول حقوق الشعب ، ولم يستطع إبراهيم بك ولا مراد بك ولا الأمراء المكابرة فى هذه المرة ، فقد كانت القاهرة تغلى كالمرجل وكانت أشبه ببركان يوشك أن يثور ، وكان الشعب المتكتل فى الخارج يلوح مهددا متوعدا ، وانتهى هذا المجلس التاريخى بموافقة الأمراء والوالى على القرارات الآتية :

أولا : لا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب .

ثانيا : أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثالثا : ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

وكان القاضى الشرعى حاضرا فحرر (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها الوالى ، وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا وانحلت الأزمة. ورجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأهالى وهم ينادون: حسب ما رسمه ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية

ولو تأملنا فى هذا النص الذى ساقه مؤرخ مصر الجبرتى ودققنا النظر فى قوله « حسب ما رسمه ساداتنا العلماء » لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلا : وهو أن الأمة مصدر السلطات .

وقد توافق رأى أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة إعلان حقوق الانسان ، سبقت بها مصر غيرها » .

وقد طبق وكلاء الشعب ويمثلهم العلماء والأعيان هذا المبدأ ـ مبدأ الأمة مصدر السلطات ـ على والى مصر خورشيد باشا ، حين عجز عن ضبط الأمن فى البلاد ، إذ عقدوا مؤتمرا وطنيا يوم ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ ، وقرروا عزل الوالى . ولما رفض الاذعان لهـــذا القرار قام العلماء والأعيان والشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة

ودارت رحا الحرب بينهم وبين الوالى ، وكانت الأوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفتهم وكلاء الأمة ، وأجبروه أخيراً على الأذعان لقرار الأمة فى ٢٩ جمادى الأولى عام ١٢٢٠ ﻫ .

هذا وقد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة فى الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الامام شمس الدين محمد الحنفى المتوفى عام ٨٤٧ ﻫ ، والشيخ شمس الدين الديروطى الواعظ بالأزهر الشريف والمتوفى عام ٩٢١ ﻫ ، وشيخ الاسلام الامام محمد بن سالم الحفنى المتوفى عام ١١٨١ ﻫ .

الفصل الثامن

الأزهر بعد الحكم العثمانى

الأزهر والغزو الفرنسى لمصر :

بعد دخول نابليون بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم ، فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدى الكبير ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى ، ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى ، واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضاءه ، وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة فى معرض فرساى ، وهو أول ديوان وطنى ، ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

وفى ثورة القاهرة على الفرنسيين ضرب الأزهر بالمدافع ، وتتابع الرمى من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزت الأركان وهدمت حيطان الدور ، فركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويكف عسكره عن الرمى ، فعاتبهم فى التقصير فاعتذروا اليه ، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمى وقاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك والطرقات .

وبعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف وبين الأفرنج وتراموا ، ولم يزل الرمى بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود ، فأثخنهم الفرنج بالرمى المتتابع ، وبعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة ومروا

فى الأزقة والشوارع وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا فى الطرقات وتراسلوا رجالا وركبانا . ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وبالوا عليها وتغوطوا فيه ، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوهم وأصبحوا مصطفين بباب الجامع ، وكل من حضر الصلاة يراهم فيكر راجعا ، ونهبوا بعض الدور التى بالقرب من الجامع ، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم ، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ، وبقى الأمر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لاتحصى، ونهبت أموال لاتستقصى ، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا إلى بيت سر عسكر الفرنساوية وطلبوا منـــه الأمان ، فوعدهم مع التسويف ، وطلب منهم بيانا بمن تسبب فى إثارة الفتنة من المعممين فغالطوه ، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد ، فرجوه فى إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فاجابهم لذلك وأمر بخروجهم وأسكن منهم نحو السبعين فى الخطة ، ثم فحصوا عن المتهمين ، فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبدالوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وحبسوهم ببيت البكرى ، ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ إلى بيت سر عسكر وتشفعوا فى المسجونين ، فقيل لهم: لاتستعجلوا ، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيين إلى بيت البكرى نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم ، فذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجماميز وهناك جردوهم من ثيابهم وطلعوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم خلف القلعة .

ولما توجه بونابرت إلى الشام بعـــد استيلائه على مصر ، استولى على مدينة العريش وغزة وخان يونس وورد الخبر إلى مصر ، فعمل الفرنساويون حصارا وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية وحضر عدة منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة وعلى بعضهم عمائم بيض ومعهم نفير ينفخون فيه ، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر واصطفوا ببابه رجالا وركبانا وطلبوا الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر، وأمروه برفع

تلك البيارق على منارات الجامع الازهر ، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبير ذات الهلالين وعلى منارة أخرى بيرقا وضربوا عدة مدافع بهجةوسرورا ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر وعند الغروب ضربوا مدافع إعلاما بالعيد

وفى افتتاح محرم سنة ١٢١٥ ه وقعت حادثة عجيبة وهى ان سر عسكر الفرنساوية كليبر كان واقفا فى بستان داره بالازبكية وفى صحبته أحد خواصه فدخل شخص يوهم ان له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفرهاربا ، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميا ، فسألوه فخلط فى كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار فقال لهم لا تظلموا أهل مصر فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على قتل رؤسائكم فقيل له أين كنت تأوى فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالى فأحضروا الشيخ الشرقاوى والعريشى والزموهما بإحضار الذين كان يأوى اليهم وهم أربعة ثم ركبوا إلى الأزهر وصحبتهم أغوات الانكشارية وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع ثم أخذوا المقتول والبسوه برنيطة ، ووضعوا معه الخنجر الذى قتل به وحملوه على عربة إلى تل العقارب حيث القلعة التى بنوها هناك وضربوا له المدافع وأحضروا القاتل وضربوا رقاب الشوام الثلاثة المظلومين وحرقوا جثثهم ورفعوا رؤوسهم على خوازيق ثم وضعوا قتيلهم فى تخشيبة وضعوا عندها عسكرا يتناوبون ليلا ونهارا واظهر أنه أسلم وتسمى بعبدالله ، وحضر قائمقام والأغا إلى الازهر وشقوا فيه وفى اروقته وأرادوا نبش أماكن للتفتيش على السلاح وأخذ المجاورون فى نقل أمتعتهم واخلاء الاروقة ونقلوا كتب الوقف ، ثم إنهم كتبوا اسماء المجاورين فى قائمة وأمروهم ان لا يأووا آفاقيا مطلقا وأخرجوا منه الاتراك بالكلية، وفى اليوم نفسه توجه الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى إلى سرعسكر منو ، واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره فتكلم بعض القبط وقال هذا لا يصح فحنق عليه الشيخ الشرقاوى وقال اتركونا يا قبط واكفونا شر دسائسكم وقصد الشيخ منع الريبة فانه ربما دسوا من يبيت به واحتجوا بذلك على انجاز أغراضهم ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة أبواب الجامع واتساع زواياه ، فأذنوا لهم بذلك وسمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسة محمد بك المقابلة له وأخرجوا منها الاتراك واستمرت الشدة والإزعاج إلى أن أخذ الفرنساويون فى الجلاء من الديار المصرية .. وفى ثمانية محرم سنة ١٢١٦ ه فتح الجامع الازهر وكذلك المدرسة وفرح الناس فرحا شديدا وهنأ بعضهم بعضا

وفى صفر سنة ١٢١٩ ه وزعت على أرباب الحرف والصنائع خمسمائة كيس فضجوا مع ماهم فيه من وقف الحال وأصبحوا لم يفتحوا الدكاكين وحضر منهم طائفة إلى

الجامع الازهر ومر الاغا والوالى ينادون بالامان وفتح الدكاكين، وفى ثانى يوم تجمع الكثير من غوغاء العامة والاطفال ومعهم طبول وصعدوا إلى منارات الجامع الأزهر يصرخون ويطبلون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ووصل الخبر إلى إلى الباشا فأرسل إلى السيد عمر مكرم النقيب يقول إنا رفعنا عن الفقراء فقال السيد عمر إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف كلهم فقراء وكفاهم ماهم فيه من القحط ووقف الحال فكيف تطلب منهم مغارم الجوامك، فرجع الرسول بذلك ثم عاد بفرمان يتضمن رفع الغرامة عن المذكورين ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا إلى بيوتهم وخرج الاطفال يفرحون .

وفى صفر سنة ١٢٢٠ ﻫ أكلت العسكر الدلاتية الزرع وخطفوا ماصادفهم من الفلاحين والمارين وأخذوا النساء والأولاد للأفساد فحضر سكان مصر القديمة نساء ورجالا إلى الجامع الأزهر يستغيثون ويخبرون أن الدلاتية أخرجوهم من ديارهم وأخذوا أمتعتهم ونساءهم، فخاطب المشايخ الباشا فى أمرهم فكتب للدلاتية بترك الدور لأهلها فلم يمتثلوا فاجتمع المشايخ بالأزهر وتركوا قراءة الدروس وخرجت الأولاد الصغار يصرخون فى الأسواق فأرسل الباشا كتخداه إلى الأزهر فلم يجد به أحداً وكان المشايخ انتقلوا إلى بيوتهم، فذهب إلى بيت الشرقاوى وحضر هناك السيد عمر مكرم وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف فرجمه الأولاد بالحجارة وبقى الأمر على السكون أياما .

لقد قاد الأزهر الحركة الوطنية ضد الفرنسيين والطغاة، وكانت له زعامة الشعب، وقيادة الحركة العقلية والعلمية فى البلاد .

جهاد الأزهر الوطنى فى الحملة الفرنسية وما بعدها :

مرت مصر(١) خلال هذه الفترة بأحداث مثيرة استدعت بذل ضروب عالية من التضحية، وقد خاض الأزهر غمار هذه الحوادث، واستجاب زعماؤه لداعى الوطن، باذلين مافى وسعهم من تضحيات فى سبيله .

فلم تكد تستقر الحملة الفرنسية فى القطر المصرى فى صفر ١٢١٣ﻫ (يوليه ١٧٩٨) حتى نفر الشعب وزعماؤه دفاعا عن كرامة الوطن وحريته، فقامت الثورات فى جميع أنحاء القطر، لطرد المستعمرين من البلاد . وكانت القاهرة مركزا لثورتين مهمتين :

(١) راجع مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٣٧٣ - الأستاذ أحمد عز الدين

الأولى فى جمادى الأولى ١٢١٣هـ (أكتوبر ١٧٩٨) وعلى رأسها الشيخ السادات ، وكان رئيساً لمجلس الثورة . والثانية فى ٢٣ شوال ١٢١٤ هـ (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعلى رأسها زعيم العلماء فى ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الأشراف . وقد استعمل الفرنسيون جميع أنواع القسوة لكبت الشعور القومى والقضاء على المقاومة الأهلية ، ولكنهم لم ينجحوا فى خطتهم ، وانتهى الأمر بفوز المقاومة الأهلية ، وجلاء الغاصبين عن أرض الوطن .

فبعد ثورة القاهرة الأولى فى ٩ جمادى الأولى ١٢١٣ (٢٠ أكتوبر ١٧٩٨) وجه نابليون نظره إلى الأزهر ، إذ كان يعلم أنه المعسكر العام للثورة ، فقبض على زعماء الحركة ، وأصدر أمره إلى الجنرال بون قومندان القاهرة بأن يأخذهم ليلا إلى شاطىء النيل - مابين مصر القديمة وبولاق - حيث يعدمهم ، ثم يلقى بجثثهم فى النهر . وبهذه الطريقة خفى علينا تاريخ كثير من المجاهدين الذين استشهدوا فى هذه الثورة .

أما الذين حوكموا رسميا من العلماء باعتبارهم من زعماء الثورة فهم :

الشيخ اسمعيل البراوى والشيخ أحمد الشرقاوى وكانا يقومان بالتدريس فى الأزهر ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى وكان يقوم بقراءة كتب الحديث كالبخارى ومسلم فى المشهد الحسينى ، والشيخ يوسف المصيلحى وكان يقوم بالتدريس فى جامع الكردى ، والشيخ سليمان الجوسقى وكان من العلماء المشهورين بشدة السطو والبأس ، وكانت محاكمتهم سرية وقد حكم عليهم بالإعدام فى يوم ٢٧ جمادى الأولى ١٢١٣ (٣ نوفمبر ١٧٩٨) .

وفى الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٨ جمادى الأولى (٤ نوفمبر) أخرجوا من سجنهم إلى القلعة حيث تلى عليهم الحكم ، ثم أعدموا رميا بالرصاص ، ولم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم ، ويروى الجبرتى أن الفرنسيين ألقوهم من السور خلف القلعة بعد تنفيذ الحكم .

وقد نشرت صحيفة (كوريه دليجبت) بالعدد الصادر فى ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ م (غرة جمادى الآخرة ١٢١٣ هـ) نبأ إعدامهم ، وأضافت إلى الاسماء التى ذكرها الجبرتى اسم (السيد عبد الكريم) الذى لم يوقف له على ذكر .

وكان الشهداء من العلماء خلال هذه الثورة أكثر من هذا العدد ، إذ قرر الشيخ عبد الله الشرقاوى فى تاريخه « تحفة الناظرين » أن الفرنسيين قتلوا ثلاثة عشر عالما

ويؤيد ذلك مارواه المعلم نقولا الترك فى كتابه « ذكر تملك الفرنساوية للديار المصرية» إذ قرر أن نابليون أمر بإعدام اثنين من العلماء كانا من أعضاء المجلس العالى .

وعلى الرغم من أن نابليون كان يعلم تمام العلم أن الشيخ السادات كان رئيسا لمجلس الثورة إلا أنه لم يمسسه بسوء نظرا لمكانته فى نفوس المصريين المستمدة من نسبه الشريف ، وقد طلب الجنرال كليبر من نابليون أن يقبض عليه فاجابه بأن إعدام مثل هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدى إلى عواقب وخيمة .

أما ثورة القاهرة الثانية التى حدثت فى ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ ﻫ إلى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٤ﻫ (٢٠ مارس - ٢١ إبريل سنة ١٨٠٠م) ، فتتلخص أحداثها فى أن نابليون غادر القطر المصرى تاركا قيادة الحملة الفرنسية للجنرال كليبر الذى لم يلبث أن واجه أعنف ثورة قامت بها القاهرة ، ويرجع عنف هذه الثورة إلى أن رأسها المفكر كان زعيم علماء ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، ولولا خيانة المماليك لكان لهذه الثورة الوطنية الجارفة شأن آخر . أما العلماء الذين تعرضوا لانتقام الفرنسيين بعد إخمادها فهم :

الشيخ مصطفى الصاوى وقد فرضت عليه غرامة ٢٦٠ ألف فرنك .

الشيخ محمد الجوهرى وأخوه فتوح وقد فرضت عليهما غرامة قدرها ٢٦٠ ألف فرنك .

وكان الشيخ السادات معروفا لدى الجنرال كليبر بوطنيته منذ تزعم الثورة الأولى ، ولكنه لم يتمكن من النيل منه لمعارضة نابليون ، فانتهز فرصة اشتراكه فى هذه الثورة لينكل به تنكيلا ، إذ فرض عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك ، وسجن فى غرفة قذرة بالقلعة حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، مع ضربه ضربا مبرحا .ثم سمح له بالنزول مخفورا إلى داره ليسعى فى سداد الغرامة المفروضة عليه ، فجمع ما فى منزله من المال ، وقوم الفرنسيون ما وجدوه من مصاغ وملابس ومتاع فبلغت قيمة ذلك كله ١١٢ ألف فرنك ، ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل جاسوا خلال الدار وحفروا الارض بحثا عن الخبايا، حتى أعياهم البحث ولم يجدوا شيئا ، ثم نقلوه إلى السجن وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح ومثلها فى الليل ، وجدوا فى البحث وراء زوجته وابنه حتى قبضوا أخيرا على تابعة محمد السندوبى الذى عذبوه

حتى أقر على مكانهما ، فقبضوا عليهما ، وسجنوا زوجته معه ، وصاروا يضربونه أمامها زيادة فى التعذيب ، فشفع فيها كبار العلماء لنقلها من السجن ، فأصدر الجنرال كليبر أمرا بتاريخ ٢٢ مايو بنقلها إلى منزل الشيخ سليمان الفيومى . وصودرت أملاك الشيخ السادات ومرتباته وأوقاف أسلافه ، وبقى معتقلا حتى أفرج عنه فى عهد قيادة الجنرال مينو فى ٢٥ صفر سنة ١٢١٥ (١٩ يولية سنة ١٨٠٠) وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس ، وألا يركب دون إذن من القيادة الفرنسية . وقد بقى رهن المراقبة فى داره حتى اعتقل للمرة الرابعة فى أواسط شوال ١٢١٥ (أوائل مارس سنة ١٨٠١) بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى مصر ، وقد اتخذ الفرنسيون هذا الاجراء خوفا من أن يثير عليهم الشيخ السادات الاهالى ، وقد توفى ابنه أثناء اعتقاله فأذن له بتشييعه مخفورا ، ولما انتهى ذلك أعيد إلى سجنه بالقلعة .

ويقول نابليون فى مذكراته تعليقا على اضطهاد الشيخ السادات : إن تعذيبه كان من أهم الأسباب التى أدت إلى مصرع الجنرال كليبر فى ٢ صفر سنة ١٢١٦ (١٤ - يونيه سنة ١٨٠٠) .

وكان السيد عمر مكرم الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية ، وإليه يرجع الفضل فى تعبئة القوات الوطنية تعبئة قلما تتوفر فى ثورة من الثورات ، ولم يستطع الفرنسيون القبض عليه عقب إخماد الثورة ، إذ تمكن من الفرار من القاهرة تاركا أملاكه عرضة للنهب والمصادرة ، ولم يدخل القاهرة بعد ذلك حتى جلاء الفرنسيين عن عاصمة البلاد فى ربيع الأول سنة ١٢١٦ (يولية ١٨٠١) .

وقد اختارت الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوى محمد على واليا على مصر بشرط أن يحكم بمشورة وكلاء الشعب . ولكن محمد على كان يميل إلى الحكم المطلق ، وسرعان ماضاق ذرعا برقابة وكلاء الشعب خصوصا السيد عمر مكرم زعيم العلماء ، الذى أخذ يحاسب محمد على باشا على جمع الضرائب التى فرضها ، وبلغ من حماسته فى الدفاع عن حقوق الشعب ان عقد مجلسا عاما من العلماء فى (أواسط جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ - أول يولية سنة ١٨٠٩) ، وقد أقسم المجتمعون على ألا يلينوا حتى يجيب الوالى مطالبهم التى تتخلص فى عدم فرض ضرائب جديدة وإلغاء الضرائب المستحدثة ، وقد ازدادت العلاقات توترا حينما رفض السيد عمر مكرم أن يوقع الميزانية السنوية . كما يريدها محمد على ، وكان من المعتاد أن يوقع

على الميزانية وجوه المصريين قبل إرسالها إلى السلطان العثمانى .

تنكر محمد على السيد عمر مكرم ، وأخذ يسعى فى التخلص منه ، حتى سنحت له الفرصة فى رجب ١٢٢٤ (أغسطس ١٨٠٩) ، فقرر خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط ، وقد تلقى السيد عمر مكرم هذا النبأ بقوله : « أما منصب النقابة فإنى راغب عنه وزاهد فيه وليس فيه إلا التعب ، وأما النفى فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة ، ولكنى أريد أن أكون فى بلدة لا تدين لحكم محمد على » .

مكث السيد عمر مكرم أربع سنوات فى دمياط نقل بعدها إلى طنطا التى استمر بها حتى عام ١٢٣٣ (١٨١٨) ، ثم أذن له بالعودة إلى القاهرة ، ولكن استقبال الشعب الرائع لزعيمه أثار شكوك محمد على مرة أخرى ، فامر بنفيه إلى طنطا عام ١٢٣٧ (١٨٢٢) حيث توفى فى نفس العام .

وقام الأزهر بتأييد القوات الوطنية فى جهادها ضد الانجليز عام ١٨٠٧ م ، وأفتى زعماؤه فى المؤتمر الوطنى المنعقد فى الأزهر بوجوب الجهاد الوطنى ، وقام العلماء ببذل مجهود كبير فى سبيل الدفاع عن الوطن سواء بالتطوع أو إمداد الجيش بالمؤن والذخائر أو الدعوة إلى الجهاد

عمر مكرم الأزهرى الزعيم المصرى الخالد :

وكان عمر مكرم من أرفع أسماء المصريين ذكرا فى القرن الثامن عشر ، قضى حياته فى خدمة الشعب وتحقيق أمانيه ورفع الحيف عنه والسعى إلى تحريره وإعلاء كرامته ، وقد حفزته عاطفته الوطنية المشبوبة إلى مناهضة الفرنسيين توطئة لاخراجهم من مصر .

كانت بيوت البكرى والسادات ومكرم هى البيوتات المعروفة فى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فاذا ألم ظلم بافراد الشعب من الحكام العثمانيين أو المماليك أو رجال الحملة الفرنسية لجأوا إلى هذه البيوت يستظلون بجاها ، ويستعدون أربابها ويطلبون المشورة ودفع الحيف عنهم .

وكان أول ظهور عمر مكرم فى ميدان السياسة فى عام ١٧٩٥ حين اضطربت الأمور فى القاهرة وفزع الناس من طغيان إبراهيم ومراد من امراء المماليك ، فقد أبى الشعب وعلى رأسه العلماء ونقيب الاشراف أن يترك الطاغية يحكم على هواه ، وألزموه بشروط يعدها المؤرخون وثيقة حقوق الانسان الأولى التى سبقت فى تاريخها

إعلان حقوق الانسان فى فرنسا فى أعقاب ثورة سنة ١٧٩٨ ، وفى هذه الوثيقة الاجتماعية الكبرى أعلن الأمراء المماليك أنهم يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف : من صرف الأموال على مستحقيها ، ورفع الضرائب الاضافية ، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم بالأذى ، وبأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة .

ومضت عدة أعوام حتى إذا كان يوم ٣ يوليه عام ١٧٩٨ هبطت قوات الحملة الفرنسية مدينة الاسكندرية تغزو البـــلاد ، وكان شعب القاهرة فى حالة فزع واضطراب ، فهل فى وسع المماليك أن يدافعوا ويكافحوا ويردوا الغزاة الفاتحين ؟ وتمثلت هذه المحنة فى خاطر عمر مكرم بأنها امتداد للحروب الصليبية ، ولذلك اذاع نداء على الشعب يحثه على الجهاد الدينى ، فخرج الرجال والشبان ولم يبق سوى الضعفاء والأطفال والنساء ، وجاد كل منهم بما يملك من دراهم ، وابتاعوا السلاح والذخيرة والخيام . وهبط مكرم من القلعة إلى ساحل بولاق يحمل علما يسميه العامة « البيرق النبوى » ، والناس حوله ألوف مؤلفة ، وفى أيديهم السلاح الساذج من سيوف ومدى وهراوات ، ومعهم الطبول والزمور ، ووقفوا على غير نظام يشدون أزر جيش المماليك الذى كان يقاتل على الضفة الأخرى للنيل .

كان مكرم يحسب أن الأمراء المماليك من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين صدوا جحافل التتار والصليبيين ، ولكن موقعة النيل بددت أحلامه ، فقد هزموا فى ساعات معدودات ، مما جعله يؤمن بأن مماليك أيامه لا يحاكون فى شىء المماليك الأول ، فهم جبناء ، عتاة ، ظالمون .

وعلى الرغم من أن مكرم لا دراية له بفنون الحرب ولا أساليب القتال ، إلا أنه شهد بعينيه فرار قوات المماليك ، وزحف القوات المغيرة على القاهرة ، واحتلال أطرافها ، وأبت عليه كرامته أن يقبل هذا الهوان ، فخرج إلى الشام وأقام فى جنوبها يرقب الأحداث التى تجرى فى وطنه عن كثب ، فلما كان نابليون بونابرت فى يافا حرص على اكرام من وجدهم من المصريين هناك . . وأكبر فى عمر مكرم عاطفته المشبوبة ورأسه المرفوع ، وكرامته التى يذود عنها ، فيسر له سبيل العودة إلى وطنه .

وكانت القاهرة فى غضون الفترة التى عاد فيها مكرم تغلى كالمرجل ، والثورة على الأبواب . كانت فى حالة ثورة نفسية كامنة ، وكان تحرير الوطن من نير الاجنبى قبلة الجميع ، فلما شرع الزعيم يدعو افراد الشعب إلى الخروج والجهاد ولقاء الغاصب

المحتل ، أقبل الناس على تلبية دعوته ، فأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وتحصنوا فى الجوامع ، وانشأوا معملا للبارود ، وجاءوا بالصناع والعمال ، واحتالوا فى صنع آلات القتال من بنادق وذخائر ، وأشرف مكرم على جميع التبرعات لتمويل الحركة ، وأخـــيرا بدأ النضال عنيفا سافرا بين المحاصرين والمدافعين ، وشهد الفرنسيون ببسالة المصريين واقتحامهم المخاطر والأهوال ، ولكن المقاومة انتهت بتغلب المحتلين لتفوقهم فى معدات القتال ، وفرضوا على السكان غرامة مقدارها عشرة ملايين من الفرنكات ، ولجأوا إلى أحط وسائل العسف والقسوة فى تحصيلها ، ونقموا على زعيم الحركة ، فأمروا بنفيه إلى مدينة دمياط .

جلت الحملة الفرنسية وعادت مصر إلى حكم العثمانيين ، وفى خلال السنوات الخمس المتعاقبة تولى الحكم خمسة من الولاة ، قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا فى القلعة . . كان آخر هؤلاء الولاة أحمد خورشيد ، وكان رجلا ضيق الأفق ، من بقايا الارستقراطية العثمانية ، يدعى السيادة على كل شىء ، ولكن دولته كانت تخذله فلا تمده بالمال والرجال . . كان فى موقف حرج ، فخزائنه خاوية من المال لدفع مرتبات الجند ، والمماليك يغيرون على القرى ويتولون تحصيل الضرائب والاستيلاء عليها ، وطبقات الشعب متذمرة من الكلف الفادحة المفروضة عليهم . فاحتشدت فى الأزهر جموع من التجار والصناع وطلبة العلم وجاهروا بالتمرد والعصيان ، ثم أغلقوا المتاجر والمصانع والمنازل ، حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة .

وانتهز محمد على أحد قواد الفرقة الألبانية غير النظامية فرصة تذمر طبقات الشعب ، فصار يتودد إلى مكرم بوصفه زعيم الشعب ، ويزوره سرا فى الليل ، ويستميله بشتى الوعود ، ويقسم له الأيمان الكاذبة بأنهم إن مكنوه من الحكم ، فانه يسير حسب نصوص الشرع ، والإقلاع عن المظالم ، ولا يبرم أمرا إلا بمشورة العلماء ، وانه إذا خالف هذه الشروط عزلوه ، وأخرجوه من الحكم .

وصدق عمر مكرم هذه الوعود ، وأخذ على عاتقه إقناع العلماء بمشاركته فكرته ، وأذاع نداء على الشعب بالاجتماع امام المحكمة الشرعية . فلما كان اليوم التالى خرج الأفراد والجماعات من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم ، وأقبل المزارعون من الضواحى حتى احتشدت بهم الطرق والمسالك المؤدية إلى المحكمة ، وكانوا جميعا يهتفون بقولهم : « يارب يامتجلى أهلك العثانلى » ، وهم يقصدون طبعا الوالى

العثمانى ، ثم أقبل السيد عمر مكرم ، فاقترح المناداة بعزل خورشيد وإسناد الولاية إلى محمد على .

وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة وبالضرائب الفادحة التى يطلب إليها دفعها صاغرا . كان فى حاجة إلى مصافحة أى يد تمتد اليه ، لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكروب والمحن ، ولذلك وافق على الاقتراح الذى تقدم به السيد مكرم ، لا حبا فى القائد الألبانى ، وإنما كرها فى الوالى العثمانى .

وطلب العلماء وعلى رأسهم مكرم إلى الوالى النزول عن الحكم طوعا لإرادة الشعب ، فأبى مستكبرا وأجابهم بأنى معين بأمر السلطان فلا أنزل بإرادة الفلاحين .

واستشاط العلماء غضبا من هذه الاهانة الموجهة إلى الشعب ، واتفقت كلمتهم على محاصرة الوالى فى القلعة لإرغامه على التنازل عن الحكم ، وبدأ النضال سافرا ، وشرع أفراد الشعب فى تكوين فرق شبه عسكرية تتولى إقامة المتاريس وحفر الخنادق وحراسة مداخل المدينة ومد المساعدة إلى الجنود وتسليح الشعب بالأسلحة البيضاء والهراوى ، ومنعوا الماء والغذاء والمدد عن الوالى فى القلعة .

وكان مكرم فى غضون فترة الحصار حركة لا تهدأ ، كان يتنقل بين الصفوف ، ويستثير الهمم والنخوة القومية ويشجع المحاصرين ، وبرزت إلى جانبه أسماء زعماء من الشعب : كابن شمعة وحجاج الخضرى الذى تمكن من أسر قافلة من الإبل محملة بالذخائر والمؤن كانت فى طريقها إلى القلعة لتموين الوالى ، وقدم هذه القافلة غنيمة باردة إلى القائد المرشح للولاية .

وانتهى النزاع طوعا لارادة الشعب ، فنزل الوالى المعزول عن الحكم ، وأسندت الولاية إلى الحاكم الجديد ، وبذلك انتصرت إرادة الشعب .

ثم وفدت بعد عامين حملة عسكرية بريطانية لاحتلال مصر وتمكنت من أن تسيطر على مدينة الاسكندرية دون مقاومة تذكر ، بتاثير خيانة الضباط العثمانيين فى المدينة ، ثم سارت الحملة إلى رشيد ، فقاومها أهل رشيد فى بسالة وبطولة وتمكنوا من قهرها وحملت رؤوس القتلى على أسنة الرماح إلى القاهرة وعلقت بابوابها ، وسيق الاسرى من الضباط والجنود الانجليز وطيف بهم فى شوارع العاصمة .

وشرع مكرم فى حفز همم سكان القاهرة لمقاومة المعتدين إذا ما حاولوا اقتحام العاصمة ، فجمع الجموع وحصن المداخل وأقام المتاريس فى الشوارع ، وكون فرقا نظامية سلحها بالاسلحة الخفيفة ، وكان محمد على فى غضون ذلك فى أرباض أسيوط يقاتل

المماليك ، فلما وفد على القاهرة وأفضى اليه مكرم بما اعتزمه الشعب من الكفاح والنضال لرد غارة المعتدين ، صدمه محمد على فى عواطفه بأن قال له : عليكم بالمال وبمعدات الحرب وعلى أنا وحدى مقاتلة المغيرين .

كان الوالى الجديد لايفتأ يلجأ إلى مكرم لانه يدرك قوة زعامته الشعبية فى نفوس العلماء وقادة الرأى وجميع الطبقات ، ولكن لما استولى على مقاليد الأمور أخذ يقلب له ظهر المجن ، ويقصيه عن الاشتراك فى المسائل العليا للدولة وفى مهمة الدفاع عن الوطن .

وكان الوالى كلما أعوزته الحاجة إلى المال ، مال إلى أموال الأوقاف ، فاغتصب منها ماهو فى حاجة اليه ، فضج العلماء بالشكوى لأن هذه الأموال مرصودة على تعمير بيوت الله وإنفاقها فى وجوه البر ، وكان أن اجتمع عمر مكرم بالمشايخ ورجال الدين ، واحتجوا على مسلك الوالى احتجاجا مرا فكان جوابه :

ـ أنا وحدى الذى ينتفع بالضريبة ، وأما أنتم فتبهظون كاهل الأمة بأثقل الأعباء ، إنكم تعقدون الاجتماعات فى المساجد ، وتتكلمون عن بلهجة تكاد تكون لهجة الآمر ، وهذه نزعة باطلة لايمكن قبولها بغير الازدراء والاستخفاف ، وإنى على استعداد لأن أرمى عنق كل من يستظل بلواء المعارضة فى وجه سياستى .

وبادر مكرم بأن جمع العلماء وقال لهم :

ـ إن هذا الحاكم محتال وإذا تمكن فسيصعب إزالته فلنعزله من الآن .

ونمى ذلك إلى محمد على فاسرع إلى نفى مكرم تحت الحراسة ، وكان أن أجاب على هذا الأمر بشجاعة : إن النفى غاية ماأتمناه . غير أنى أريد العيش فى بلد لايدين بحكم محمد على .

ورأى مكرم بعين الحسرة أن الآمال التى كان يعلقها على قيام دولة جديدة يشترك فيها المصريون قد تبخرت وذهبت فى الهواء .

وفى يوم ١٢ أغسطس عام ١٨٠٩ احتشدت على ساحل بولاق طوائف مختلفة من الشعب ، يودعون زعيمهم الراحل ، وهو يبحر فى مركبه إلى دمياط وانهمرت الدموع من مآقيهم وهم يودعون الرجل الذى وقف حياته فى سبيل الدفاع عن حقوقهم ورد المظالم عنهم .

وبنفى مكرم اختفت الزعامة الشعبية من الميدان ، وخلاجو المعارضة أمام الوالى الذى رفعه الشعب إلى منصة الحكم بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق ليحكم بالعدل والمحبة فتخلى عن هذه العهود والمواثيق .

فحول العلماء فى قرنين

وهؤلاء أعلام من فحول علماء الأزهر فى القرنين : الثانى عشر والثالث عشر الهجرى ... نذكر أسماءهم فى إيجاز :

الشيخ محمد البنانى : طلب العلم فى الأزهر . وحضر دروس الشيخ الصعيدى والدردير وغيرهم، حتى مهر وأنجب ودرس ومات سنة ١١٨٦هـ عن ثلاثين سنة(١) .

الشيخ حسن الشبينى ، رحل من بلدته فوه إلى الجامع الأزهر ، فطلب العلم وأخذ من الشيخ الديربى فجعله مليا عليه فى الدروس(٢) وتوفى عام ١١٨٣هـ

الفقيه الشيخ الحماقى الحفنى من كبار علماء الشافعية . وتصدر للاقراء والتدريس بالأزهر عدة سنين . ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسى(٣) وقد توفى عام ١١٨٧هـ

المحدث المقرى شمس الدين محمد بن قاسم البقرى شيخ القراء والحديث بصحن الجامع الأزهر(٤) .

والشيخ المحدث منصور بن عبد الرزاق الطوخى الشافعى إمام الجامع الأزهر(٤)

شيخ الاسلام البراوى الشافعى الأزهرى . ورد الجامع الأزهر وهو صغير ، فقرأ العلم على مشايخ عصره ، وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزى ، وحضر دروس الملوى والجوهرى والشبراوى ، وشهد له بالفضل أهل عصره وأحدقت به الطلبة ، واتسعت حلقته وقد صلى عليه فى الأزهر فى مشهد حافل(٥) ودفن عام ١١٨٢هـ

الفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنبلاوى الشافعى الأزهرى ، كان عالما مواظبا على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر ، ولازم على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر ، وكان يحترف بيع الكتب — توفى سنة ١١٨٠هـ(٦)

الشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى (١١٤٠ — ١١٨٠هـ) (٧)

---

(١) ٣٧٥ ج ١ الجبرتى — (٢) ٣٣٨ ج ١ الجبرتى

(٣) ٤٠٨ ج ١ الجبرتى — (٤) ٨٨ ج ١ الجبرتى

(٥) ٣١٢ ج ١ الجبرتى — (٦) ٢٨٥ ج ١ الجبرتى

(٧) ٢٦٥ — ٢٨٤ ج ١ الجبرتى

الفقيه المحدث شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدى الشافعى الأزهرى الشهير بالجوهرى (١٠٩٦هـ — ١١٨٢هـ) . وقد اشتغل بالعلم ، وجد فى تحصيله حتى فاق أهل عصره ، ودرس بالأزهر وأفتى نحو ستين سنة ، ومات فصلى عليه بالأزهر(١) عام ١١٨٢هـ

الشيخ عبد الرؤوف بن محمد البشبيشى ولد ببشبيش من أعمال المحلة الكبرى ، وقد تصدر لتقرير العلوم الدقيقة والنحو والمعانى والفقه ، وانتفع به غالب مدرسى الأزهر . وتوفى سنة ١١٤٣(٢)

الشيخ أبو الحسن البكرى خطيب الأزهر(٣)

شيخ مشايخ الاسلام عالم العلماء الاعلام الشيخ على العدوى المالكى (١١١٢ — ١١٨٩هـ) . وهو من بنى عدى ، ومن مشهورى العلماء ، صلى عليه فى الأزهر بمشهد عظيم ، ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى(٤) عام ١١٨٩هـ

المفتى الفقيه الشيخ إبراهيم الشرقاوى . وكان لا يفارق محل درسه بالأزهر طول النهار(٥) ، وتوفى عام ١١٨٥هـ

الشيخ على الشاورى المالكى مفتى فرشوط قرأ بالأزهر العلوم . وقدم إلى مصر ومات بها وصلى عليه فى الأزهر(٦) عام ١١٨٥هـ

الشيخ على العدوى المالكى الأزهرى (١١٠٠ — ١١٨٥هـ) تلقى العلم فى الأزهر ثم درس بالأزهر ونفع الطلبة(٧)

الشيخ مصطفى الصاوى ، وقد تعلم فى الأزهر ، ولازم الشيخ البراوى وتخرج به وأقرأ الدروس ، وكان شاعرا لطيفا وكاتبا مجيدا . وتوفى عام ١٢١٦هـ (٨)

الشيخ محمد الخالدى الشافعى (١١٥١ - ١٢١٥ هـ) ، وقد كان من مشهورى

---

(١) ٣٠٩ ج ١ الجبرتى — ص ٣١٢
(٢) ١٥٧ ج ١ الجبرتى
(٣) ١٦١ ج ١ الجبرتى
(٤) ٤١٥ و ٤١٦ ج ١ الجبرتى
(٥) ٣٦٩ ج ١ الجبرتى
(٦) ٣٦٧ ج ١ الجبرتى
(٧) ٣٦٧ ج ١ الجبرتى
(٨) ٢١٣—٢١٧ ج ٣ الجبرتى

علماء الأزهر فى عهده . . وله كتب كثيرة ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ، رحمه الله (١) .

السيد مصطفى الدمنهورى الشافعى من العلماء المشهورين المذكورين ، تفقه على أشياخ العصر ولازم الشيخ الشرقاوى الذى صار شيخ الأزهر ، وكان يكتب على الفتاوى على لسان الشيخ الشرقاوى ويتحرى الصواب . . . ومات فى عهد الفرنسيين مقتولا(٢)

الشيخ عبد الرحمن الأجهورى المالكى ، من علماء الأزهر الشريف ، درس ودرّس بالأزهرمدة فى أنواع الفنون فى الدين واللغة ، وتوفى سنة ١١٩٨ هـ (٣)

الشيخ محمد بن على الصبان الشافعى الأزهرى ، صاحب المؤلفات الذائعة المشهورة التى خلدت ذكره ، وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ (٤)

الشيخ أحمد العروسى الشافعى الأزهرى (١١٣٣ - ١٢٠٨هـ) حضر فى الازهر على شيوخه وعلمائه (٥)

الشيخ شهاب الدين السمنودى المحلى الشافعى ، العالم الأزهرى ، وقد قرأ بالجامع الأزهر ، وتوفى عام ١٢٠٩ هـ (٦)

الشيخ أحمد المباليجى الشافعى المدرس بالمقام الأحمدى بطنطا . . توفى عام ١٢٠٩هـ (٧)

الشيخ عبد الرحمن النحراوى الأجهورى ، درس بالأزهروأفاد الطلبة وتوفى عام ١٢١٠ هـ (٨)

وفى هـذه السنة أيضا توفى الشيخ حسن الهوارى المالكى شيخ رواق الصعايدة (٩)

الشيخ عثمان بن محمد الحنفى المصرى الشهير بالشامى ، وتوفى عام ١٢١٠ هـ (١٠) وكذلك الشيخ شمس الدين الفرغلى الشافعى (١٠) وله شعر عذب .

---

(١) ١٦٥ ج ٣ الجبرتى
(٢) ٦٧ ج ٣ الجبرتى
(٣) ٨٥ وما بعدها ج ٢ الجبرتى
(٤) ٢٢٧ - ٢٣٣ ج ٢ الجبرتى
(٥) ٢٥٢ - ٢٥٤ ج ٢ الجبرتى
(٦) ٢٥٩ ج ٢ الجبرتى
(٧) ٢٦٠ ج ٢ الجبرتى
(٨) ٢٦٢ ج ٢ الجبرتى
(٩) ٢٦٣ ج ٢ الجبرتى
(١٠) ٢٦٣ ج٢ الجبرتى

الشيخ أحمد بن محمد السجاعى الأزهرى قدم الأزهر صغيرا فتمهر ودرس وأفتى وألف ، وترك آثارا علمية مشهورة توفى عام ١١٩٠ هـ (١)

الشيخ عطية الأجهورى الشافعى ، العالم الأزهرى ؛ وقد توفى عام ١١٩٠ هـ (٢)

الشيخ إبراهيم بن خليل الصبحانى الغزى الحنفى العالم الأزهرى ، وقد ولد بغزة وورد إلى الأزهر فتعلم فيه ، ثم عاد إلى غزة وتولى فيها الافتاء ، وارتحل إلى دمشق وتولى أمانة الفتوى . توفى عام ١١٩٠ هـ (٣)

الشيخ محمد العوفى المالكى كان شاعرا ماجنا ، ومع ذلك كانت حلقة درسه فى الأزهر تزيد على الثلثمائة . مات سنة ١١٩١ هـ (٤)

الامام الشيخ أحمد بن عيسى الزبيرى الشافعى البراوى من علماء الأزهر ، ولد بمصر وبها نشأ وحضر دروس مشايخ الوقت ، ولما توفى والده أجلس مكانه فى الأزهر وقد توفى بطنطا عام ١١٩٢ هـ ، وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بتربة المجاورين (٥)

الشيخ محمد العدوى من علماء الأزهر ، درس فى الأزهر ودرس فيه وتوفى عام ١١٩٣ (٦)

الشيخ شهاب الدين أحمد السجاعى الشافعى الأزهرى ، من علماء الأزهر ، ولد بمصر ونشأ بها وتصدر للتدريس فى حياة أبيه وبعد موته فى مواضعه ، وصار من أعيان العلماء . وتوفى عام ١١٩٧ هـ (٧)

الشيخ عبد الله بن أحمد المعروف باللبان الشافعى الأزهرى . توفى عام ١١٩٨ هـ (٨)

ومن مشهورى العلماء الشيخ محمد بن حسن الشافعى الأحمدى الأزهرى المتوفى عام ١١٩٩ هـ (٩)

الشيخ محمد الخشنى الشافعى وكان من خيار شيوخ الأزهر (١٠) وتوفى

---

(١) ٣ ج ٢ الجبرتى

(٢) ٤ ج ٢ الجبرتى

(٣) ٤ ج ٢ الجبرتى

(٤) ١٥ و ١٦ ج ٢ الجبرتى

(٥) ٣٥ ج ٢ الجبرتى

(٦) ٥٨ ج ٢ الجبرتى

(٧) ٧٥ ج ٢ الجبرتى

(٨) ٨٤ ج ٢ الجبرتى

(٩) ٩٤ — ٩٥ ج ٢ الجبرتى

(١٠) ٢٤ ج ٤ الجبرتى

سنة ١٢٢١ هـ .

والشيخ سليمان البجيرمى الشافعى من علماء الأزهر المشهورين (١)

الشيخ أحمد البرماوى الشافعى (١١٣٨ - ١٢٢٢ هـ) . . وكان من الشيوخ الأجلاء (٢)

الشيخ ابراهيم الحريرى مفتى مذهب السادات الحنفية كوالده ، وقد توفى عام ١٢٢٤ هـ (٣) . . وتوفى فى هذا العام الشيخ عبد المنعم العماوى المالكى وهو من كبار الشيوخ (٣)

الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى المالكى الأزهرى من علماء البلاغة ، تصدر للاقراء والتدريس بالأزهر وإفادة الطلبة ، وكان فريدا فى تسهيل المعانى وتوفى عام ١٢٣٠ هـ ودفن بتربة المجاورين(٤)

الشيخ محمد الأمير المالكى الأزهرى (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) من كبار الشيوخ الأجلاء فى الأزهر (٥)

الشيخ محمد الأشمونى الشافعى (١٢١٨ - ١٣٢١ هـ) تعلم فى الأزهر وصار مدرسا فيه (٥٠ — ٥٢ تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور ط ١٩٤٠)

الشيخ أحمد الرفاعى المالكى ، تعلم ودرس فى الأزهر وحضر عليه محمد عبده والشيخ بخيت والشيخ أبو الفضل وسواهم ، وقد رشح للمشيخة بعد استقالة الشيخ سليم عام ١٣٢٠ هـ ، ولكن لم يقدر الله له ذلك ، وقد توفى عام ١٣٢٥ هـ (٦٤ - ٦٦ المرجع)

الشيخ حسين الطويل المالكى (١٢٥٠ هـ - ١٣١٧ هـ) من مشهورى العلماء ، حضر ودرس فى الأزهر ، وأول درس قرأه بالأزهر عام ١٢٨٣ هـ ، وتتلمذ عليه الكثيرون ، وعين مفتشا ثانيا للغة العربية بوزارة المعارف ، ثم مدرسا بدار العلوم (٦)

---

(١) ٢٤ جـ ٤ الجبرتى (٢) ٧٦ جـ ٤ الجبرتى (٣) ١٠٤ جـ ٤ الجبرتى
(٤) ٢٣١ جـ ٤ الجبرتى (٥) ٢٨٤ جـ ٤ الجبرتى
(٦) ١٢٠ - ١٢٩ أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور ، وله ترجمة فى مجلة الضياء جـ ١ ص ٦٩٠ .

الشيخ احمد أبو خطوة الحنفى (١٢٦٨ - ١٣٢٤ ﻫ) ، من جملة العلماء ، وحضر ودرس فى الأزهر ، وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن الطويل، وكان ابتداؤه للتدريس فى الأزهر سنة ١٢٩٦ﻫ ، وقد عين مفتيا للأوقاف، ثم نقل عضوا فى المحكمة الشرعية العليا (١)

(١) له ترجمة فى مجلة المقتبس ج ١ ص ٥٥١ ، وراجع ص ١٣٠ - ١٣٢ تراجم أعيان القرن ١٣ لأحمد تيمور

الباب الثانى

من تاريخ الأزهر الحديث

القوة الشعبية بعد الحملة الفرنسية ممثلة فى الأزهر :

بعد خروج الفرنسيين من مصر تنازعت الوطن أياد قوية ، كل يد تعمل على الاستئثار بحكم مصر ، وكان من هؤلاء الطامعين فى العرش طامح من رعايا خلافة تركيا هو محمد على القوللى رئيس إحدى الفرق العسكرية التى أرسلتها تركيا إلى مصر لطرد الفرنسيين منها .

وتودد محمد على إلى شعب مصر وإلى علماء الأزهر الشريف ، ودس أعوانه فى وسط الشعب لينادى به حاكما على مصر ، واستجاب علماء الأزهر لرغبة الشعب ، ورأوا فى تولية مثل محمد على حكم مصر دفعا لأخطار الحكام الأتراك المتغطرسين ، فتوجهوا وعلى رأسهم شيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد المهدى المفتى ، والشيخ محمد الأمير من كبار العلماء ، والشيخ سليمان الفيومى ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والسيد محمد السادات شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، والشيخ العريشى القاضى ، وغيرهم من الشيوخ والعلماء ، إلى قصر محمد على وأفضوا اليه برغبتهم فى المناداة به واليا على مصر لاجماع الشعب على ذلك ، وخرج العلماء من عنده إلى الجامع الأزهر لرسم الخطة ومتابعة الحوادث . غير أن الانتظار لم يطل ، فما كاد يعلن نبأ تولية « محمد على » ولاية « جده » واستعداده للرحيل ، حتى خرج أهل القاهرة عن حد الاحتمال فالتفوا حول شيوخ الأزهر ، وطالبوا بوضع حد لسوء الحال ، وانتهوا إلى المطالبة بعزل الوالى ، والمناداة بمحمد على واليا على مصر : وكان عدد المحتشدين من الشعب فى الأزهر يربو على الأربعين ألفا . ولم يجد العلماء إزاء هذا الموقف بدا من تحقيق رغبة الشعب ، فاتجهوا إلى دار المحكمة فى بيت القاضى ، وحولهم هذا البحر الزاخر من الشعب الهائج يهتف بسقوط الوالى ، وفى المحكمة حضر الجميع واتفقوا على كتابة عريضة بمطالب الشعب عددوا فيها المظالم التى وقعت بالناس من مصادرة الحريات وفرض الضرائب ، وطالبوا برفع هذه المظالم ، وكان ذلك فى يوم

الأحد ١٢ من صفر سنة ١٢٢٠ ﻫ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥ م) . ولما وصلت هذه القرارات إلى الوالى استدعى العلماء لمقابلته، ولكنهم رفضوا، لأنهم علموا أنه دبر مؤامرة لاغتيالهم فى الطريق والقضاء على هذه الحركة الشعبية، فلما امتنعوا عن الذهاب رفض الوالى إجابة مطالبهم، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء فى يوم الاثنين ١٣ من صفر سنة ١٢٢٠ ﻫ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) بدار المحكمة وقرروا عزل خورشيد باشا وتنصيب محمد على والياً على مصر .

وعقب اصدار القرار فى المحكمة توجهت الجموع إلى محمد على ، وفى طليعتهم علماء الأزهر وعلى رأسهم : الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر ، ونقيب الاشراف السيد عمر مكرم ، وذهبوا إلى محمد على وقالوا له : إنالا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه أن يكون والياً ؟ قالوا : لانرضى الا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ، ثم رضى . وأحضروا له كركا وعليه قفطان . وقام اليه شيخ الاسلام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر فألبساه إياه ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » .

وفى ١١ من ربيع الثانى سنه ١٢٢٠ ﻫ (٩ من يوليه سنة ١٨٠٥ م) وصل مرسوم الدولة ، ومضمونه الخطاب لمحمد على والى جدة سابقا ووالى مصر حالا ، من ابتداء ٢٠ من ربيع الأول ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية .

هذه هى رواية الجبرتى ونحن لا نكاد نسلم بها ، فإن محمد على عندما علم بنبأ وصول الوحدات البحرية التركية بقيادة قبودان باشا يحمل أمر السلطان بعزل محمد على وتولية موسى باشا ، سارع إلى الالتجاء إلى القلعة مستعدا للمقاومة وجمع فيها ما استطاع أن يجمعه من معدات الحرب والعمال والاجناد ، وفى هذه الاثناء علم أن محمد بك الألفى المتحصن فى البحيرة قد اتصل بالاتراك واتفق معهم . فرأى أن المقاومة لن تجدى مادام الشعب لا يظاهره ، وأن أعوانه فى المقاومة هم قواد الجيش الذين اجتمع بهم وشاورهم فأيدوه فى المقاومة « لأنه مامن أحد منهم إلا وصار له عدة زوجات وعدة بيوت والتزام بلاد (جمع ضرائبها) وسيادة لم يكن يتخيلها ولم تخطر بذهنه أن ينسلخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه » .

ووصلت الأنباء أن الالفى بعث إلى قبودان هدية فيها ٣٠ جواداً و ٤٠٠٠ رأس من الغنم والبقر والجاموس ومائة حمل بالذخيرة ونقود وثياب وأقمشة .

وهنا التجأ محمد على إلى زعيم مصر الكبير السيد عمر مكرم نقيب الاشراف وبعض الأعيان ، وعرض عليهم الموقف وما فعله الأمراء والمماليك واتفاقهم مع السلطان ، وطلب منهم دراسة الموقف فتركوه وانصرفوا .

حدث هذا فى يوم الجمعة ولو أن الشعب المصرى كان متعلقا بمحمد على لايرضى عنه بديلا ، كما صوره المؤرخون ، لما استدعى بحث الموقف طويلا ، بل كان الرد أن الشعب سيقف بجانب محمد على فى موقفه ومقاومته ولا يحتاج إلى تفكير . ولكن الذى حدث فعلا أن البحث والدرس وتقليب الموقف استمر بين الزعماء المصريين أياما . فمضى السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء دون أن يتلقى محمد على ردا ، وهنا قرر محمد على اتخاذ أجراء حاسم .

بعث باثنين من رجاله هما مدير مكتبه ورئيس التراجمة ، وقد فاجئا السيد عمر مكرم فى داره صباح الخميس ، وقدما اليه صورة التماس كتبه ديوان محمد على ، على لسان المشايخ إلى الباب العالى لتثبيت محمد على لولاية مصر .

ولو أن المصريين كانوا متمسكين بمحمد على لوقع الزعماء ـ الذين دعاهم السيد عمر النقيب إلى داره لبحث هذا التطور الجديد فى الموقف ـ الالتماس دون مناقشة ، ولكن الذى حدث هذه المرة أيضا أن الاجتماع استمر اليوم كله .

وفى اليوم التالى ، السبت ، حمل هذا الالتماس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى ومعه أمر بتنظيم « العرضحال » وترصيعه « وتوقيعه » بتوقيعات المشايخ وبصمه بأختامهم ليرسله الباشا إلى الدولة ، فلم تسعهم المخالفة » . . . وقد تم هذا فعلا .

وهذا الالتماس رغم طوله لم يخرج عن كونه مدحا للسلطان ، ثم تحقير أعمال الامراء المماليك ، ثم رفع شأن محمد على وتبرير لبعض تصرفاته التى أنكرها عليه السلطان وينتهى بطلب ابقائه واليا .

وسارع محمد على ، بطبيعة الحال ، بإرسال العريضة إلى تركيا ، ولكن حدث مساء الاثنين أن وصل إلى القاهرة رسول من قبودان باشا ليبلغ المسؤلين عن الشعب وهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والأئمة قرار السلطان بعزل محمد على . ولما كان الأمر قد خرج من أيدى هؤلاء الزعماء بعد توقيع الالتماس ، فقد ذهبوا إلى محمد على يعرضون الامر فأمرهم بالعودة إلى منازلهم على أن يرسل اليهم فى اليوم الثانى صورة التماس جديد ينسخونه ويوقعونه .

وفى هذا العرضحال يبدى الزعماء خضوعهم وامتثال لقرار السلطان ولكنهم

يبدون تخوفهم من الجند ألا يمتثلوا للاوامر بسبب رواتبهم . وكان محمدعلى قداحتاط بتدبير هذه المؤامرة بالاتفاق مع قواد الجند الدين يهمهم البقاء فى مصر .

وانتهز محمد على الفرصة وماطل فى تنفيذ أمر السلطان ، وهنا وجدقبودان باشا مركزه حرجا، وأن الاعتماد على الامراء المماليك لاخير فيه وسيؤدى إلى ضياع هيبته، فقر رأيه أن يتصل بمحمد على الذى انتهز الفرصة فعرض العروض الباذخة وتعهد أن يؤدى ضعف ماتعهد الامراء بتأديته لقبودان: بعضه معجل والآخرمؤجل .

واتفق قبودان مع محمد على أن يعود إلى استكتاب الزعماء كتابا آخر يرسله اليه مع ولده شخصيا . على أن يتضمن أن محمد على حامى الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقامع المعتدين وأن الكلية من الخاصة والعامة راضية بولايته وأحكامه وعدله ، وأن الشريعة مقامه فى أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم . . الخ الفضائل والصفات التى اتفق قبودان باشا مع محمد على ، على نسبتها إلى مبعوث العناية الالهية لانقاذ مصر !! . .

وقد انتهت هذه المساعى كلها بالغاء امر النقل وتثبيت محمد على على ولاية مصر .

وهذه هى حقيقة مطالبة المصريين بولاية محمد على عندما عزله السلطان ، فى المرة الثانية .. وهذا هو موقف الزعماء المصريين، الذين لم يطالبوا بتثبيت محمدعلى إلا بحد السيف الذى سلطه عليهم

ولكن ماذا فعل محمدعلى وأولاده بهذه الثقة الغالية ؟ لقد قرر محمد على منذ اللحظة الاولى أن يستبد بالامر ، ويبعد الشعب وزعيمه عن الميدان . .

وأخذته الغيرة من زعيم المصريين عمر مكرم ، وأنكر منه أن يتحدث اليه عن آلام الشعب بما فرضه عليهم من الضرائب بسبب الاستعداد للحملة الوهابية .. ثم أراد أن يأخذ إمضاء السيد عمر على حساب غير مضبوط أعده ليرسله إلى الدولة .. فأبى السيد عمر مكرم ذلك قائلا :

ان الضرائب المعتادة كانت تكفى لكل ماقام به الباشا من الاعمال العامة . . . وإنى لاأستطيع أن أشهد بغير ما أعتقد أنه حق . . .

فقرر محمد على التخلص من عمر مكرم .. وأراد أن يحتال عليه ، وطلب اليه أن يذهب لمقابلته فى الديوان , فأجاب السيد عمر مكرم قائلاً :

إن الباشا إذا أراد مقابلتى ، فلينزل من القلعة لمقابلتى فى بيت السادات ، لتكون المقابلة على سواء .

وكان محمد على يجمع من الضرائب أكثر مما ينفق .. ويحتجز الاموال لنفسه ، فاحتج عمر مكرم ، وقال كلاما كثيرا جاء فيه :

أما ماصرفه الباشا فى سد الترعة فان الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ماصرفه اضعافا كثيرة ، وأما غير ذلك ، فكله كذب لا أصل له ، وان وجد من يحاسبه على ماأخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته المظالم ..

فقرر محمد على نفيه من القاهرة ، فابتسم الشيخ على مكرم وقال :

أما منصب النقابة فانى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب : وأما النفى فهو غاية مطلوبى ، وأرتاح من هذه الورطة ، ولكن أريد أن أكون فى بلد لم تكن تحت حكمه ، فإذا لم يأذن لى فى الذهاب إلى أسيوط ، فليأذن لى فى الذهاب إلى الطور أو إلى درنة .

فأخبروا الباشا بذلك ، فلم يرض إلا بذهابه إلى دمياط .

وخرج عمر مكرم زعيم الشعب إلى منفاه فى ١٣ اغسطس ١٨٠٩ .

وهكذا أخرج محمد على الشعب المصرى من الميدان ، وقرر أن يستبد بأمر مصر وحده .

وهكذا أنكر فضل هذا الشعب عليه ، وأخذ طريق المستبدين ، وخلفه أبناؤه فساروا فى طريقه ، ووضعوا أيديهم فى يد اعداء البلاد .. وزاد أمرهم سوءا ، وأحاطت بهم الازمات ..

وتقدم شعب مصر ليعينهم ، فنكروا به ، وسخروا منه ، إلى أن حدث مالم يكن لهم فى حسبان

الأزهر يسير فى حياته العلمية :

وقد سار الازهر فى حياته العلمية يائسا من الحكام والولاة ، واهتم علماؤه باصلاحه وصدر أول قانون لذلك فى سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢) وقد نظم هذا القانون طريقة نيل الشهادة العالمية وبين مواد امتحانها وقسم الناجحين فيها إلى ثلاث درجات : (أولى ، ثانية ، ثالثة) على أن تصدر بذلك براءة ملكية بتوقيع ولى الامر : وعنى الغيورون بالازهر ، وحرصوا على أن ينهض . وقد كان لهذا التنظيم الذى بدىء فى عهد إسماعيل أثره فى حفز الهمم على الاصلاح ، فتوالت القوانين المنظمة للأزهر ، وكان أهمها القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ ، إذ قسم الدراسة بالأزهر

إلى مراحل ، وجعل لكل مرحلة نظاما ومواد للدراسة ، وحدد اختصاص شيخ الجامع الأزهر ، وأنشأ هيئة تشرف على الازهر تسمى المجلس الأعلى للأزهر ، وأوجد هيئة كبار العلماء وجعل لها نظاما خاصا ، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة التي تدرس في الازهر شيخا ، ونظم مجالس إدارات المعاهد ، ووضع نظاما للمدرسين والموظفين في التعيين والترقية ، ووضع للطلاب شروطا للقبول ، ونظم الامتحانات والشهادات .

وحدث في هذا العهد عدة أحداث : منها أن بعض الشوام والصعايدة تزاحموا في الجلوس في الدرس وتضاربوا فجاء جملة من الشوام بالعصى وساقوا الصعايدة سوقا عنيفا إلى رواق الصعايدة ، فحضرت طائفة من الصعايدة بعصيهم ووقعوا بالشوام ضربا وهموا وراءهم بقوة شديدة حتى ادخلوهم رواق الشوام وحاصروهم به ، ولم يسع الشوام إلا قفل باب الرواق، بل تسور لهم بعض الصعايدة من فوق السطح ، واستمروا كذلك، حتى ذهب الشيخ محمد الرافعي إلى بعض الأعيان من تجار الشوام وأخبرهم ، وذهبوا جميعا إلى خير الدين باشا ضابط مصر ، فأرسل جملة من عساكر الارنؤود وخلافهم فدخلوا الأزهر بصورة شنيعة وتطاولوا على كل صعيدي بلا تحقيق فأخذ الصعايدة في الذب عن انفسهم حتى أخرجوا العساكر من الأزهر ولم يلبثوا أن جاءت عساكر جهادية وأتراك بكثرة من طرف الضابط لما بلغه من التهويل فدخلوا الأزهر باسلحتهم ونفيرهم وطبلهم لابسين أحذيتهم فقبضوا من الصعايدة على نحو ثلاثين وسجنوهم بالمحافظة ، ثم أخذوا ثلاثة من مشايخهم وعوقوهم هناك قليلا وبعد مدة أطلقوهم ، وبقي المجاورون في السجن وكان إذ ذاك سعيد باشا في الأرض الحجازية فسعى بعض المشايخ عند وكلائه في الافراج عنهم فأفرج عنهم بعد نحو عشرين يوما وحصل الكلام في طريقة يسير عليها الأزهر حيث أن شيخه أقعده الكبر ، واجتمع الرأي على توكيل أربعة من العلماء ، وصدر الأمر بذلك ، وكان في مشيخة الشيخ الباجوري .

حادثة الشوام :

وقد حدثت هذه الحادثة المفجعة في ١٩ من ذي الحجة سنة ١٣١٣ بالازهر الشريف في مشيخة شيخ الأزهر حسونة النواوي بسبب وباء ذلك العام وتفصيلها أنه مرض برواق الشوام مجاور بالطاعون ، وحضرت الحكومة لنقله بالعربة السوداء للمستشفى وكان من أخذ بها لا يرجى له أن يشم هواء الدنيا ، فأبت رفقته من طلبة الأزهر

تسليمه حيث كان قد أخذ آخر ولم يوقف له على أثر ، فاشتد الجدال بين الفريقين وأبلغ الاطباء الحكومة أنهم أمينوا ، فحضر إلى الجامع الأزهر المحافظ ومعه وكيل الحكمدارية وشرذمة من العساكر نخيل للمجاورين الشوام أنهم مأخوذون لامحالة ، فتطاولوا على المحافظ ورجموه ومن معه ببعض الحجارة ، فاصاب وكيل الحكمدارية رمية فجرح وكانت الشوام اغلقت باب الشوام ، فطلب قوة عسكرية أخرى فحضرت وعملوا حصارا على الجامع الأزهر وامر الحكمدار العساكر بكسر الباب واطلاق الرصاص على الطلبة داخل الجامع فانقضوا عليه حتى خلعوا عقب إحدى أبوابه ، ثم بدأ الحكمدار بطلق بندقيته واتبعته العساكر باطلاق الرصاص، فتفرق الطلبة فيجميع نواحي الجامع ثم دخل الضباط والعساكر واشتغلوا بضبط من بالأزهر مع الاهانة من غير تمييز بين طالب وعالم ، فقبضوا على ٨٢ من الشوام و ٢٣ من المصريين وفيهم بعض المدرسين وأصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم فى الحال وبعضهم بعد ذلك ثم افرج عن المقبوضين وانحصرت التهمة فى ١٤ تقريبا من الشوام ونفى البعض وسجن البعض ، وأقفل رواق الشوام سنة كاملة ، واستاء لذلك الخديوى وشيخ الأزهر وانصدعت لذلك قلوب الشعوب الاسلامية .

جهاد الأزهر فى الثورة العرابية :

قام الأزهر بنصيب (١) كبير فى إذكاء الحماسة ونشر التعليم وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، فقد قام رجاله وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب والزام الوالى باحترام هذه الحقوق ، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا اللأزهر صفحات خالدة فى تاريخنا مثل رفاعة رافع والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده .

فالأول كان زعيما لنهضة العلم والأدب فى عصره ، ومن أهم أعماله تأسيس مدرسة الألسن التى خرجت نخبة من العلماء والأدباء والشعراء ، كما قام بترجمة الدستور الفرنسى ، وعلق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطرى إلى (٢) النظم الحرة ، وترجم القانون المدنى الفرنسى ، ونشر رحلته فى فرنسا وسماها « تخليص الإبريز » ، ولم يقتصر نشاطه على التأليف

---

(١) مجلة الأزهر ١٣٧٢ — الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله .

(٢) تاريخ الحركة القومية الرافعى ج ٣ ص ٤٧٩ .

والترجمة والتدريس ، بل خدم الأدب ، وله قصائد شعرية تدل على وطنية صادقة وتفان فى محبة الوطن ، وبلغ من حماسته أنه عرب نشيد المارسلييز الفرنسى الذى يعتبر من أجمل الأناشيد الحماسية القومية ، حتى لايحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد .

وأما السيد عبد الله النديم ، فقد حاول أن ينفث فى الأمة الحماسة كى يستيقظ الشعب من غفوته ، ونادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليما نافعا ، وفى سبيل تحقيق أغراضه أسس « الجمعية الخيرية الإسلامية » ونحا نحوا جديداً لنشر أفكاره ، فألف مسرحيتين إحداهما (الوطن وطالع التوفيق) والأخرى (العرب) ، مثلهما هو وتلاميذه على مسرح زيزينيا بالاسكندرية . وقد بين فى مسرحيته الأولى جميع الأمراض والعلل التى تهدد الأمة فى وجودها .

وبينما كان صوت النديم يجلجل بالاصلاح ويمهد للثورة فى نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى فى دروسه ، ويعالج الشئون العامة للبلاد فى صحيفتى الأهرام والوقائع الرسمية

ورأس الثورة المفكر أحمد عرابى (باشا) تلقى علومه فى الأزهر مدة أربع سنوات ، وكان لهذه المدة على ضآلتها أثر كبير فى تكوين شخصية عرابى كزعيم ثورى ، إذ جعلت منه خطيبا مفوها يستولى على عقول سامعيه ويهز مشاعرهم... ووسط هذا النضوج الذهنى اندلع لهيب الثورة .

وفى ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة يطلبان فيها إبعاد عرابى (باشا) وإرسال كل من : على (باشا) فهمى وعبد العال (باشا) حلمى إلى أية جهة داخل القطر المصرى ، واستقالة وزارة البارودى ، فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وكبار الضباط فى قشلاق عابدين واتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد ، وارسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع له صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها فى صوت واحد .

واستقالت وزارة البارودى يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢ ، وأراد الخديوى توفيق أن يبث التفرقة فى صفوف الزعماء ، فعقد اجتماعا يوم ٢٧ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ أبو العلا الخلفاوى وحضره شريف باشا وكبار النواب والضباط وعرض الخديو على المجتمعين تشكيل وزارة برياسته ، وقبول المذكرة الانجليزية الفرنسية .

فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلا « إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهانى وللجناب الخديوى . ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولاحق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى » ، ووافق على قوله الشيخ عليش والعلماء جميعا . ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان وتبعه الضباط والعلماء

وبعد ضرب الأسكندرية فى ١١ يولية عام ١٨٨٢ هب عرابى باشا للدفاع عن البلاد ، فأصدر الخديو أمر بعزله فى ٢٠ يولية ، وبناء على ذلك اجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٢ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذى أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الانجليز . وتلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامر الخديو التى تثبت إدانته ومنشورات عرابى باشا التى تدعو إلى الدفاع عن الوطن . ثم ألقى على باشا الروبى خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى إزاء قضية البلاد ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده ، فأصدر المؤتمر الوطنى قراره التاريخى بعزل الخديو ووقف أوامره وتكليف عرابى بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على ما قرره المؤتمر الوطنى وكان من بين العلماء الموقعين على ذلك : الشيخ محمد الأنبابى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ حسن العدوى ، الشيخ عبد الله الدرسناوى مفتى الحنفية ، الشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، الشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، مفتى الأوقاف ، الشيخ عبد الهادى الايبارى ، الشيخ محمد الأشمونى الشيخ خليل العزازى ، الشيخ مسعود النابلسى ، الشيخ محمد القلماوى ، الشيخ زين المرصفى ، الشيخ حسين المرصفى ، الشيخ سليم عمر القلعاوى ، الشيخ عثمان مدوح ، الشيخ عبد الرحمن السويسى ، ومن رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى الشيخ عبد القادر الرافعى ، الشيخ عبد القادر الدليشانى . الشيخ أحمد الخشاب .

الأزهر يغذى ثورة عرابى :

ولقد كان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد نديم قادة التفكير والقلم فى هذه الثورة ، واستأنفت الحركة الفكرية سيرها الذى قطعته الحوادث ، وبدت طلائع نهضة جديدة فى الآداب العربية ، وظهر فى الإنتاج الأدبى يومئذ عنصر قوى من الأدب المبتكر ، وأخذت فى نفس الوقت عناصر الثقافة الجديدة تحدث أثرها فى إنتاج الجيل الجديد . ويعود الفضل فى ذلك كله إلى الأزهر ، وظهرت

طائفة من المؤلفات والكتابات القومية التي تحررت من اغلال القديم سواء فى اللفظ أو المعنى ، وحملت هذه الروح الجديدة فى طريقها كل شىء ، وغدت أقوى دعامة فى صرح النهضة

قويت الحاجة إلى الصحافة وظهر عبد الله نديم بجريدته « التنكيت والتبكيت » ، إلا أن النديم أبدل الاسم فى آخر لحظة باسم الطائف تيمنا باسم مدينة الطائف فى الحجاز ، وبالنسبة إلى أنها تطوف بأرجاء الدنيا ، كما كانت « الجوائب » التى يصدرها أحمد فارس الشدياق باستامبول تجوب أرجاء العالم . واتخذ رجال الثورة « الطائف » لسان حالهم ، فكانت تذيع المنشورات والأوامر وتحض على الجهاد ، وكانت تطبع من داخل معسكر كفر الدوار

وإلى جانب الطائف صدرت عدة صحف للثورة منها : المفيد للسيد أمين الشمسى والزمان ، والاعتدال وغيرها

وقام الشعراء فى القاهرة وفى الإسكندرية يلقون الأشعار الحماسية والقصائد الوطنية ، فمن ذلك ما نظمه أحد علماء الأزهر من قصيدة مطولة له يقول فيها :

لعمرك ليس ذا وقت التصابى ... ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى ... ولا وقت التغافل والتغابى
ولا وقت التشبب فى سليمى ... ولا وقت التشاغل بالرباب
ولكن ذا زمان الجد وافى ... وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت فيه الاستعداد فرض ... إقامة بالقلاع وبالطوابى
ووقت فيه الاستعداد فرض ... لتنفيذ الأوامر من عرابى
وقولوا يا عرابى دم رئيسا ... لحزب النصر محفوظ الجناب

ومن قصيدة أخرى لشاعر آخر جاء فيها :

نوال المعالى من طعان الكتائب ... ونيل الأمانى من ثمار المتاعب
وظهر الأعادى بالتدبر أولا ... وبعد بإشهار السيوف القواضب
ومن كعرابى فى البرايا وحزبه ... أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وقام الخطباء يحضون الشعب على مقاومة أعداء الدستور ، والأخذ بناصر زعماء الثورة ، وكان عبدالله نديم خطيب الثورة لايفتأ يخطب فى كل ناد ومجتمع ومسجد ، فمن ذلك خطبته التى خاطب بها جنود الجيش :

حماة البلاد وفرسانها . من قرأ التاريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث

والنوازل، عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ماسبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما ، فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ، ويفاخر بأثركم الآتى من أبنائنا فقد حبا الله الوطن بحياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى ، فان الأمة جسد والجند روح ، ولا حياة للجسم بلا روح ، وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم

وكانت خطبة الجمعة فى المساجد تحض على الجهاد ، فن ذلك خطاب الشيخ على المليجى فى مسجد أسيوط حيث كان يحض المصلين على الغزو والجهاد والتطوع فى سبيل نصرة الجيش، إذ قال :

إن الانجليز قد طاشت عقولهم ، وعميت بصائرهم ، فلم يحسنوا الضروريات ، فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها ، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها . وقابلوا عيشنا بخداع ، وقتشوا أكتافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع ، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان . وفينا لهم بعقد الذمة والأمان . فعاملناهم بالحسنى ، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا ، فلما صحت أبدانهم ، وعمرت أوطانهم ، لم يقنعوا ، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب ، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب . وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء

وقد بذل العلماء جهودا كبيرة ، فى سبيل الدفاع القومى ، فدعوا إلى التطوع فى صفوف الجيش المصرى وإمداده بالمؤن والتبرعات . وكان من أبرزهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ حسن العدوى ، والسيد عبد الله النديم الذى كان لسان الثورة الناطق والذى كان يستدعى للخطابة بالبرق ، حتى لقب بخطيب الثورة ، بل (خطيب الشرق)

وبعد انتهاء الثورة العرابية قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا للمحاكمة وهذا بيان بالعلماء الذين قبض عليهم والأحكام التى صدرت ضدهم ، وأمام كل منهم اسم البلد التى اختارها لمنفاه (١) :

الشيخ عبد الرحمن عليش ، وقد نفى خمس سنوات خارج القطر المصرى بالآستانة

الشيخ عبد القادر قاضى مديرية القليوبية ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى ببيروت

الشيخ محمد الهجرسى ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى بمكة المكرمة

---

(١) الثورة العرابية الرافعى صفحة (٩٤٠) وما بعدها .

الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتى ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى ببيروت

الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى ببيروت

الشيخ يوسف شرابة ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى بغزة

الشيخ محمد عبده ، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصرى ببيروت

هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف .

وحكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم :

الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى ـ الشيخ أحمد المنصورى ـ الشيخ محمد السملوطى ـ الشيخ أحمد البصرى ـ الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى العضو الأول بالمحكمة الشرعية ـ الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضى إسنا سابقا ـ الشيخ محمد أبو عائشة قاضى بور سعيد سابقا ـ الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط ـ الشيخ أحمد عبد الغنى ـ الشيخ محمد عسكر ـ الشيخ أحمد مروان ـ الشيخ محمد جبر قاضى المنصورة سابقا ـ الشيخ عبد البر الرملى قاضى العريش سابقا ـ الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقا ـ الشيخ محمد غزالى قاضى مركز البحيرة .

وقد استدعى الشيخ حسن العدوى من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء (١٤ محرم سنة ١٣٠٠ — ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢) ، فنطق بالحق غير هياب ولا وجل ، ولا مكترث بالحكم الذى سيصدر عليه ، ونقتبس هنا طرفا من محاكمته : سئل رحمه الله تعالى : هل ختم على عزل الخديو وإسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى عرابى باشا برغبته ورضاه ، أم لسبب آخر ؟ . فأجاب « ختمت تابعا للعلماء الذين ختموا قبلى مثل شيخ الاسلام ومفتى الجامع الأزهر وشيخ الجامع وغيرهم ، وكان ختمى برغبتى ورضائى للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة ، وما كان ينبغى لأحد أن يمتنع عن الختم . ولما سئل : هل علم المجلس أنك افتيت بعزل الجناب الخديو فهل هذا حقيقة أم لا ؟ أجاب : بأنه : لم تصدر منى فتوى فى ذلك ، ولم أسأل فى هذه المادة . ومع ذلك فإن جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنى أوقعه ، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن .

وقد وقفنا على قصيدة لحضرة الفاضل الشيخ محمد النجار جمعت ما جمعت من وصف الحال فى الثورة العرابية ، والدعاء لاستنهاض الهمم واستثارة الحمية ، وجاء فيها :

بالنصر قد جاء الكتاب مشيراً ... وبه أتى هادى الأنام بشيرا
يا أحمد المرجو لمصر ومن غدا ... فينا أمينا للجيوش أميرا
بشراك بالنصر المبين فثق به ... وكفى بربك هاديا ونصيرا
فازحف بجيشك يا مظفر ضاربا ... فى الانجليز وقاتلن سيمورا
واقطع بسيفك أمة قد أمروا ... انثى عليهم اذ عدمن ذكورا
قوم تربوا فى الثلوج فطبعهم ... يهوى البرود ولا يطيق حرورا
يا يوم قد خرجوا وجر وبورهم ... رعا وجرحاهم تمج بحورا
رجعوا ويوم السبت مبغوض لهم ... إذ لم يروا فى يوم سبت نورا
قد احرقوا قتلاهم من ظلمهم ... حتى لقد ظلموا بذاك سعيرا
ضربوا مدافع حزنهم أسفا على ... من مات منهم خاسئا وحسيرا
ندبوا رؤوسهم وقد هلكوا وما ... بالبحر إلا من رأيت صغيرا
كتبوا لسيدة لهم أن جهزى ... غنما لعيد المسلمين كثيرا
وتغيبوا عنا زمانا وانثنوا ... مثل الفراش فدمروا تدميرا
يا انجليز ومن ينادى ميتا ... يخطى وكيف أخاطب المقبورا
بالثغر جئتم بغتة وضربتمو ... من غير وعد أولا وأخيرا
واسكندرية قد ضربتم دورها ... ما الحرب ضربكم البنا والدورا
ماعندنا الا رجال ذكرهم ... يسمو على مر الزمان دهورا
ماعندنا إلا أسود عساكر ... وقفت لتنحر بالسيوف نحورا
أنسيتمو أرضا حبتكم ثروة ... وسكنتموها جنة وقصورا؟
ورأيتم فيها رجالا أمرهم ... فى حفظهم لكم غدا مشهورا
أنسيتم أرضا دخلتم روضها ... وجنيتم ثمرا به وزهورا؟
ذوقوا رصاصاً من بنادق هيئة ... لكم لتشرح فى الصدور صدورا
وخذوا مدافع بالقنابل أرسلت ... لكم لتأخذ جسمكم وتطيرا
هذا جزاؤكم على كفرانكم ... نعما ، ولا يرضى الاله كفورا

نحن الألى كنا نياما حيث لا عدل وكان أميرنا مأمورا
نمنا كأهل الكهف دهرا ليتنا قد كان حافظ أمرنا قطميرا
نحن الألى كنا ضعافا حيث لا شرع وكان كتابنا مهجورا
حتى فقدنا قوة العرب الألى فتحوا البلاد وأحسنوا التدبيرا
واليوم نبهنا الزمان وجاءنا حامى حمى القطر السعيد مجيرا
ياطالما كذبت جرائدكم على أولاد مصر واقترفتم زورا
وبعثتم أولادكم ونساءكم وسقيتم أهل الفساد خمورا
كنا ضعافا حيث لاحرية فينا ولم نعرف لذاك غيورا
واليوم قام لأحمد الجيش الذى وافى وأصبح جيشه منصورا
وأتته من أهل البلاد إعانة وعساكر ضربوا لذاك نفيرا
عرب التقى أهل التقى من خيلهم سبقت لتنزل فى العدو صقورا
وعساكر هجموا أسودا فى الوغى ولدى اصطفاف الصف صاروا سورا
ورجال دين حيث قدخافوا على ذرية من بعدهم تكفيرا
خافوا على أعراضهم من أمة خانت وكم فضحت وفضت حورا
خافوا على أوطانهم وبلادهم خافوا على جعل الغنى فقيرا
خافوا على جعل المساجد مربطا للخيل أو جعل الرجال حميرا
خافوا على الكتب التى قد دونت ولكم حوت علما يزيدك نورا
خافوا على آل الرسول وبيته والله فضلهم عليك كثيرا
خافوا على الدين القويم وأهله من أشبهوا فى الاهتداء بدورا
خافوا على مفتاح بيت الله والبقع التى قد طهرت تطهيرا
خافوا على ترك الفروض وقطعنا جهر الأذان وهجرنا التكبيرا
يامسلمون استبشروا فعدوكم ولى، وأصبح جيشه مكسورا
ولسوف يعلو قدركم ومقامكم يعلو وأمركم يكون شهيرا
ياأيها الشجعان هذا وقتكم فأروا العدا عزما لكم مشهورا
أن الحياة مع المذلة موتة وبها نرى عذب المذاق مريرا
كونوا كما أنتم عليه وجاهدوا حق الجهاد وحاذروا التأخيرا
بيضتم صحف التواريخ التى فاحت بذكركم الزكى عبيرا

لاكان أخذ الانكليز بلادنا　　أبدا ولا قد كان ذا مقدورا
والله لو رحنــا جميعا ماترى　　تسليمنا تلك البلاد يسيرا
أرض سقيناها دموع عيوننا　　وبها جرى النيل السعيد غزيرا
أرض عليها استشهدت أجدادنا　　فعلام لايرث الصغير كبيرا؟
إن عاش منا واحد ياسعده　　أو مات لاقى جنة وحريرا
وطن بأيدينا زرعنا أرضه　　فغدا نضيرا ينبت الاكسيرا
يا آل مصر ألاقفوا عزمكم　　واستغنموا يد الجهاد أجورا
يا آل مصر ألا أعينوا جيشكم　　إذ قام يحفظ بالدفاع ثغورا
إذ قام يحفظ أرضكم وبلادكم　　ونساءكم وصغيركم وكبيرا
يا آل مصر ألااتركوا من عضدوا　　قوما لقد خانوا فكانوا بورا
هم خائنو الوطن الذى شبوا به　　وفقيرهم منه لقى تشكيرا
هم خائنو الرتب التى قدنقصت　　بهم فكانوا للعباد شرورا
آل النفاق علام تبغون العدا　　ألكم بهم نسب غدا مستورا؟
أم أنهم لاكنتم أحبابكم　　ولديهم صار اسمكم مسطورا
فى بورسعيد وغيره قد خنتم　　وفعلتم للانجليز أمورا
بور لكم، وسعيد طالع وقتنا　　ولكم بذا يوم يكون عسيرا
من لم يكن فيه لمسقط رأسه　　خير رأى فى غيره التحقيرا
سأرى بسعد الفال شعرى ناطقا　　ولرب أشعار تكون ثبورا
عما قريب سوف يظفر جيشنا　　ويجى عرابينا لنا مسرورا
ونرى الألى علوا لواء النصر فى　　حفظ البلاد وأنجزوا المأمورا
ويسرنا تقبيل مسك وجوههم　　فلقد بنوا لحمى الشريعة سورا
ونرى بهذا القطر أعظم زينة　　فرحا بما قد ناله وسرورا
ونرى لمصر سعادة أبدية　　ويكون من فيها بذاك فخورا
وتكون للسلطان أعظم قوة　　ولها يكون معضدا وظهيرا

وهى صورة للشعر الوطنى فى الثورة القومية الوطنية التى قام بها عرابى وإخوانه .

قوانين الازهر

ومنذ عام ١٨٧٢ م (١٢٨٨ هـ) وضعت للأزهر عدة قوانين لتنظيمه وإصلاحه من أهمها :

١ - قانون بتنفيذ قانون التدريس - ٣ من فبراير ١٨٧٣ .
٢ - قانون امتحان من يريد التدريس بالجامع الأزهر - ٢٤ من مارس ١٨٨٥
٣ - قرار بضبط عدد أهل الجامع الازهر - ١٥ اكتوبر ١٨٨٥
٤ - قانون بامتحان التدريس - ١٩ يناير ١٨٨٨ .
٥ - قانون بتشكيل مجلس إدارة الازهر - ٣ يناير ١٨٩٥ .
٦ - قانون بامتحان من يريد التدريس فى الأزهر - ١٧ يناير ١٨٩٥ .
٧ - قانون صرف المرتبات بالأزهر - ٢٩ يونيو ١٨٩٥
٨ - قانون كساوى التشريفة العلمية - أول فبراير ١٨٩٦
٩ - قانون الجامع الازهر - ٨ محرم ١٣١٤ - أول يوليو ١٨٩٦

بعد الثورة العرابية

واصل الأزهر سيره العلمى بعد الثورة ، وعنى الامام محمد عبده والمصلحون من علماء الازهر بالدعوة إلى تجديد الدراسة فى أروقة الأزهر ومعاهده

وقد صدر عام ١٣٢٩ هـ ، ١٩١١ م قانون باصلاح الازهر الشريف ، كان له أثره الكبير فى حياته العلمية ، وجاء فى المادة الاولى منه أن الجامع الأزهر هو المعهد الدينى العلمى الاسلامى الأكبر : والمعاهد الاخرى هى : معهد مدينة الأسكندرية : معهد مدينة طنطا : معهد مدينة دسوق : معهد مدينة دمياط . . وكل معهد يؤسس فى القطر المصرى بارادة سنية ، وكذا كل معهد أهلى يتقرر الحاقه بالجامع الازهر أو بأحد المعاهد الأخرى بالشروط والاوضاع التى تبين فى لائحة يضعها المجلس الأعلى ويصدق عليها بارادة سنية .

وجاء فى المادة الثانية أن الغرض من الجامع الازهر والمعاهد الأخرى هو القيام على حفظ الشريعة الغراء وفهم علومها ونشرها على وجه يفيد الامة وتخريج علماء يوكل اليهم أمر التعاليم الدينية ويلون الوظائف الشرعية فى مصالح الأمة ويرشدونها إلى طرق السعادة .

وفى المادة الثالثة تكون مدرسة القضاء الشرعى قسما ملحقاً بالجامع الازهر وتبقى حافظة لنظامها المقرر لها فى قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٧ ، ويحل مجلس الازهر الأعلى

محل ناظر المعارف العمومية فى جميع الاختصاصات التى له الآن بمقتضى القانون المشار اليه وتفصل ميزانية المدرسة عن نظارة المعارف ويخصص لها باب مستقل فى ميزانية الحكومة العمومية ، وتجرى عليها الأحكام المتعلقة بها ويبقى موظفو المدرسة من مستخدمى الحكومة .

وفى المادة الرابعة أن شيخ الجامع الازهر هو الامام الاكبر لجميع رجال الدين والرئيس العام للتعليم فيه وفى المعاهد الاخرى والمشرف الاعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف ، العلم والدين بالنسبة إلى من ينتمى لجميع المعاهد من أهل العلم وحملة القرآن الشريف وكذا من كان من أهل العلم وحملة القرآن الشريف من غير المصريين

وفى المادة الخامسة أن شيخ الجامع الازهر بصفته رئيس المجلس الاعلى هو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين واللوائح والقرارات المختصة بالجامع الازهر والمعاهد الاخرى . وأرباب الوظائف فى جميع المعاهد تابعون له بهذه الصفة وخاضعون لأوامره ، طبقاً لما هو مقرر فى هذا القانون .

وفى المادة السادسة يكون لكل مذهب من المذاهب الاربعة بالجامع الأزهر شيخ ، وكذا يكون لكل معهد من المعاهد الاخرى . ويجوز عند الاقتضاء تعيين وكلاء للجامع الازهر ولباقى المعاهد ، ويكون لهم جميع الاختصاصات التى للمشايخ فى حال غيابهم الرسمى .

وفى المادة الثامنة والتاسعة يكون بالجامع الازهر مجلس يسمى مجلس الازهر الأعلى . وتنشأ مجالس إدارة للأزهر ولمعهد الاسكندرية وطنطا . ويؤلف مجلس الازهر الأعلى من شيخ الجامع الازهر بصفة رئيس ومن ثمانية أعضاء هم : شيخ السادة الحنفية ، شيخ السادة المالكية ، شيخ الشافعية ، شيخ السادة الحنابلة - مدير عموم الأوقاف المصرية - ثلاثة ممن يكون فى وجودهم بالمجلس فائده لترقية التعليم وحسن انتظام ادارته بشرط أن يكونوا من الحائزين للصفات الملائمة لحالة الجامع الازهر والمعاهد الأخرى ، ويكون تعيينهم بارادة سنية بناء على قرار من مجلس النظار - وفى غياب شيخ الجامع الازهر ينوب عنه فى الرياسة شيخ السادة الحنفية .

وفى المادة العاشرة يختص مجلس الأزهر الأعلى بما يأتى :

أولا - وضع الميزانية العمومية للجامع الازهر والمعاهد الاخرى .

ثانيا - النظر فى إنشاء المعاهد الدينية العلمية الاسلامية وإلحاق بعض المعاهد الصغرى بالتى هى أكبر منها أو تغيير تبعيتها .

ثالثا ـ النظر فى فصل المعاهد من تبعية غيرها وجعلها تابعة للجامع الازهر مباشرة
رابعا ـ النظر فى إنشاء مجالس إدارة للمعاهد التى ليس لها مجلس ادارة
خامسا ـ وضع النظم العامة للتدريس والامتحانات
سادسا ـ التصديق على تقرير الكتب التى تدرس بالجامع الازهر والمعاهد الاخرى
سابعا ـ النظر فى ترشيح مشايخ المعاهد الاخرى والوكلاء وترقيتهم ونقلهم وفصلهم
ثامنا ـ النظر فى ترشيح مجالس الادارة .
تاسعا ـ التصديق على ماتقرره مجالس الادارة من تعيين المدرسين والموظفين وترقيتهم ونقلهم وفصلهم .
عاشرا ـ النظر فى منح كساوى التشريف العلية لمستحقيها بناء على قرارات مجالس الادارة .

وقد نصت مواد القانون على أن مجلس الازهر ينعقد بالجامع الازهر مرة فى كل شهر على الاقل بدعوة من الرئيس ، ولشيخ الجامع عقده أكثر من ذلك من ذلك ان دعا الحال .

وأن قرارات مجلس الازهر الاعلى تكون بأغلبية الآراء ، وان استوى الفريقان فالارجحية للفريق الذى فيه الرئيس ، ولا تصح مداولته إلا إذا حضر الجلسة ستة من الاعضاء سوى الرئيس .

وفى المادة الثانية بعد المائة ومابعدها : يكون بالجامع الازهر ثلاثون عالما اختصاصيا، لكل واحد منهم بالازهر كرسى خاص فى المحل الذى يخصص للتدريس العام بمعرفة شيخ الجامع الازهر ويجوز أن يوجد البعض منهم فى المعاهد الاخرى بصفة شيخ المعهد أو وكيله .

ويطلق على العلماء الثلاثين المذكورين فى المادة السابقة اسم هيئة كبار العلماء .

ويشترط فيمن ينتخب ضمن هيئة كبار العلماء :
أولا ـ أن لايكون سنه أقل من خمس وأربعين سنة .
ثانيا ـ أن يكون قد مضى عليه وهو مدرس فى الجامع الازهر والمعاهد الاخرى عشر سنين على الاقل منها أربع على الاقل فى القسم العالى .
ثالثا ـ أن يكون قد ألف كتابا فى أحد العلوم الاسلامية ، وان يكون قد منح الجائزة العلية المنصوص عليها فى المادة الثانية والعشرين بعد المائة فى هذا القانون
رابعا ـ أن يكون معروفا بالورع والتقوى وليس فى ماضيه مايشين سمعته .

الأزهر والحركة الوطنية عام ١٩١٩

فجأة وعلى غير تدبير سابق نهضت مصر نهضتها الكبرى عام ١٩١٩ . كما تضىء فى الحفلة الرحبة الجوانب مئات الثريات الكهربائية بحركة لينة من أصبعك . ومرد هذه اليقظة الشاملة شعور مصر فى كل حين أن حقها سليب وحريتها منتهبة ، واستقلالها مفقود ، وإنما تحتاج النهضات الأخر إلى تدبير سابق يسلخ من العمر سنوات فى غير النهوض للحرية والاستقلال . أما والمصريون أحياء يحسون ويشعرون ، والإنجليز أمامهم فى مظهر السيادة والتملك ، فلم يحتج الأمر إلى تدبير مبيت فى الخفاء ، إلا أن يهتف هاتف : أيها المصريون هذا يوم الخلاص ، ليدوى الصوت فى أفق مصر ويستجيب له صائد الأسماك فى بحيرة رشيد ، كما يستجيب له القابض على يد المحراث فى وادى حلفا .

خرجت مصر كلها . . . كلها حقا ، تطلب الحرية وتنشد الاستقلال ، وتدفقت قوة الشباب فى جسوم الشيوخ ، وجرت البطولة فى أبدان الشباب، وتفتحت البطولة فى روح الأطفال والغلمان، واحتوت الشجاعة والحماسة قلوب السيدات قرويات وحضريات ، وأصبحت مصر أغرودة الجميع وحرية مصر لحنا يردده كل فم، واستقلال مصر آية مقدسة يرتلها العابدون الخاشعون

ولقد تجلت كبرياء هذا العهد على الأزهر إذ كان مكانا صالحا للنهوض ، وحمل أبناؤه علم الجهاد الشريف الوادع .

تيقظ الأزهر دفعة واحدة وتحركت بواعث النخوة والوطنية فيه ، كما تحرك كل ما فى مصر ، وانتظم الجيش المسلح بإيمانه المعتد بحقه ، ورفعت الراية ، وأصبح معهد الدين والعلم مستقر النهضة الكبرى ومستودع آياتها ، وعلى أبوابه سقط أول شهيد مصرى وهو من أبناء الأزهر ، احتمل المدفع الرشاش بين يديه . وكان لا يدرى ما ذا يصنع به ، وبينا هو يهم أن يقصيه فى مكان ما . إذا بثلاثين رصاصة تخترق جسمه فيخر صريعا !

ولست أستطيع أن أقول شيئا عن الاجتماعات التى عقدت فى الأزهر ، فلم يكن منبره يخلو لحظة من خطيب . ولا عن أولئك الرجال الأبطال الذين كانوا يتوسدون أيديهم ، ويناموں على أرض ذلك المسجد الفسيح . . ومن المجاهدين من علمائه

الزنكلونى ، وعبد الباقى سرور ، والشيخ أبو العيون وسواهم ، ممن اشتدت الحركة الوطنية بفضل ما أفادوه فى بعث روح الإقدام والجرأة فى نفوس المصريين .

وكان الفقيد الكريم القاياتى يؤوب من المظاهرة فى منتصف الليل، فيطوى رداءه تحت رأسه على « حصيرة » فى الأزهر وينام حتى الصباح ليخطب فى المجتمعين .

أما المظاهرات فحدث عن إقدام الأزهريين ولا حرج ، فقد كانت طرقات مصر كلها تغص بهم ، وتمتلىء رحابها بإقدامهم ، وهم يتراكضون فى أنفة وعزة وشموخ إلى غاية المجد ، إلى حيث الحرية والاستقلال

كان كل شىء فى هذه النهضة جميلا ساميا ، كأننا فى جنة من جنان الخلد ، وكان الشعور السائد القوى ، شعورا سماويا ، حتى نسينا البغض والحقد والتمرد على الواجب، وأصبح كل فرد يحتضن أخاه المصرى كأنهما ولدا فى منزل واحد ، ويناجيه كأنه وليه الحميم .

فى هذا العهد الذى كان يتهم فيه الازهر بالتعصب وصرامة الرأى ، كان هو الذى فتح أبوابه لأبناء الطائفة القبطية محتفلا مرحبا ، وكانت هذه الظاهرة العجيبة من أقوى أسباب التضامن الوثيق بين العنصرين .

كذلك اغتبط الازهريون وفرحوا أن تشترك المصريات فى هذه النهضة ثائرات ومحجبات ، ورأينا القس يعانق الشيخ الازهرى فوق منبر الازهر ، كذلك رأينا السيدة المصرية تخطب فى هذا المكان المقدس

ونذكر أن السلطة قررت منع الجمهور من دخول الازهر ، وأرصدت على أبوابه طائفة من الجنود المصريين وطائفة من الإنجليز

وكان من يحضرون إلى الازهر ، يلقون أمر المنع ، غير أن الوطنية المصرية أبت على الجنود المصريين أن يشتركوا فى صد جماهير الأمة عن كعبتها المقدسة ، فكانوا يقولون لكل من يفد :

زاوية العميان !

وكانوا يقصدون بهذا القول أن يرشدوا الناس إلى طريق غير معروف لدخول الازهر ، فلقن الجنود الإنجليز هذا التعبير العربى ، وجعلوا يقولون لكل من يفد :

زاوية العميان !

وبذلك اشتركوا مرغمين فى أن تعقد الاجتماعات فى الازهر بدعوة منهم وهم لا يعلمون .

كذلك أتقن الطلاب فن التنكر والتخفى ، فقد حرم دخول « الافندية » إلى الازهر ، غير أن هذا جعل الشبان يتنكرون فى أزياء الشيوخ المعممين من شتى الأقطار ، فهذا مراكشى وذاك تركى وثالث حجازى ورابع هندى وخامس جاوى . وهكذا ولكنهم أخيرا كانوا يخرجون فى زيهم الحقيق زى « الافندية » ، فكان الجنود الانجليز يتغيظون ويشتمون .

الأزهر بعد الثورة المصرية

فى سنة ١٩٢٣ م أنشىء قسم للتخصص فى العلوم الأزهرية بعد الحصول على الشهادة العالمية ليستزيد العالم تمكنا من مادته ، واقتدارا على أداء مهمته ، فأنشىء هذا القسم من بضعة شعب . وكانت شعبة الفقه والأصول إحدى هذه الشعب ، وهى تعد خريجها لتولى وظائف القضاء الشرعى فى الدولة ، وقد مهدت لالغاء مدرسة القضاء الشرعى فيما بعد ، واستعيدت حقوق الأزهريين فى شغل هذه الوظائف بعد أن سلبت منهم حقبة طويلة ... وعنى بالتوسع فى دراسة العلوم الحديثة فى المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية على غرار مايدرس منها فى المدارس الأخرى .

وأنشىء لهذه العلوم تفتيش مستقل بادارة المعاهد ، وزودت المعاهد بالمعامل اللازمة لدراستها ، وعين كثير من العلماء ممن تميز فى هذه المواد لتدريسها ، وقد عدلت هذه البرامج فيما بعد بما يتفق ومكانها من العلوم الدينية ، وتم انشاء القسم الثانوى لمعهد أسيوط وكان ابتدائيا ، ثم إنشاء معهد الزقازيق .

وظل الازهر يخطو نحو غايته مسرعا إذ وضع الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر مذكرته فى إصلاح الازهر ، تلك المذكرة التى تعتبر دستور الازهر الحديث ، وكل مايلهج به دعاة الاصلاح بعدها فهو مقتبس منها أو مستمد من مبادئها وروحها ، فقانونا سنتى ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ هما فى الحقيقة قانون واحد صيغا من مبادئها وفصلا إجمالها ، وبهذين القانونين على الأصح انتقل الأزهر من حال الاضطراب الثقافى إلى حال الاستقرار النهائى ، ومن حال العزلة التى نكرها على نفسه وأنكرها الناس منه إلى حال المشاركة فى شئون الأمة العامة ، فقد جعلت العالم الازهرى عضوا حيا فى أمته يفيد منها وتفيد منه ، ورسمت له غايته والوسائل التى تعينه على أدائها ، وسمل القانون الذى استمدمنها نواحى

إصلاحية كثيرة ، والذى يعنينا منها هنا الناحيتان العلمية والمالية .

أما الناحية العلمية فأهمها تقسيم الدراسة العالية لأول مرة فى تاريخ الازهر إلى ثلاثة اقسام ، يعد كل قسم منها خريجيه لمهمة خاصة بعد إعداده لهذه المهمة إعدادا فنيا فى أقسام أخرى تلى هذه الاقسام تسمى « أقسام التخصص فى المهنة .

وأنشىء لمجموع هذه الاقسام كليات ثلاث ـ وهى كلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ، وكلية أصول الدين ـ على أن يلى خريجو هذه الكليات المهن التى تليق بمؤهلاتهم بعد تخصصهم فيها ، فيلى خريجو كلية أصول الدين وظائف الوعظ والارشاد ، وخريجو كلية الشريعة وظائف القضاء الشرعى ، وخريجو كلية اللغة للعربيه وظائف التدريس فى المدارس الاميرية والحرة .

وقد ألحق بهذه الكليات أقسام التخصص فى المادة ، وهى أقسام علمية ممتازة قصد منها إعداد بعض العلماء إعدادا ممتازا ، بعد دراسة عميقة ليمكنهم القيام بوظائف التدريس فى الكليات .

ولاعداد خريجى هذه الكليات إعدادا صحيحا أدخل فى مناهج الدراسة فيها لأول مرة فى تاريخ الازهر أيضا مجموعة من العلوم التى تتصل بمهمتهم ، فأدخل فى مناهجها فقه اللغة وعلم النفس وعلوم التربية والفلسفة وتاريخ الاديان ودراسة الفرق الاسلامية ، وأصول القوانين والاقتصاد السياسى ، والنظام الدستورى ، كما أدخل فيها دراسة بعض اللغات الغربية والشرقية .

ومما تضمنه القانون إنشاء معاهد للاستماع خاصة فى بعض المدن لا تتقيد بقيود المعاهد النظامية ، والغرض منها سد حاجة من يريد معرفة أحكام الدين واللغة العربية من جمهرة الأمة ، على أن يتبع فيها طريقة التدريس التقليدية فى الازهر ، ويكون مقرها فى المساجد .

وأما الناحية المالية وأعنى بها الحقوق التى ظفر بها خريجو الأزهر بمقتضى هذا القانون ، فاهمها أنه ألغى مدرسة القضاء الشرعى ، فأصبحت وظائفه خالصة لخريجى كلية الشريعة دون غيرهم ، وجعل من حق خريجى كلية اللغة العربية التدريس فى مدارس الحكومة والمدارس الحرة وكانت محجورة عليهم قبل ذلك ، وجعل من حق خريجى كلية أصول الدين شغل وظائف الوعظ والارشاد التى أنشئت قبيل صدور القانون ، والتى لم تزل تنمو حتى أصبحت لها إدارة خاصة ، وبلغ عدد الوعاظ الذين تشرف عليهم هذه الادارة نحو ٢٥٠ واعظا يؤدون للأمة أجل الخدمات فى إصلاح الأمن

وتهذيب النفوس . ويقضينا الأنصاف أن نشير هنا إلى فضل المغفور له محمد محمود فى إنشاء قسم الوعظ ، فقد أشار عليه الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر سنة ١٩٢٨ م بتعيين عدد من العلماء فى وظائف الوعظ بوزارة الداخلية لاصلاح حال الأمن من طريق نشر تعاليم الدين ، فاستجاب لهذه الإشارة بعد استحسانها من لدن الرأى العام فى الأمة ، وعين خمسين واعظا فى الوجه البحرى . وبعد تعيينهم ببضعة أشهر نقلوا بميزانيتهم إلى الأزهر ، فكانوا نواة هذا القسم الكبير . وقد كفل القانون لخريجى الكليات حقوقا أخرى فى وظائف الدولة ، ليس هذا موضع تفصيلها . وبهاتين الناحيتين من الإصلاح العلمى والمادى اللتين شملهما القانون المستمد من المذكرة المشار اليها فيما شمل تقاربت مسافة الخلف بين خريجى الأزهر وخريجى المعاهد الأخرى وطوائف الأمة عامة ، وتجدد نشاط الأزهر فى أداء رسالته ، وأحست الأمة بأن له مكانا فى خدمتها ، وأنه يأخذ منها ويعطيها . ولما كانت الكليات الأزهرية والتى تضمنها القانون فى حاجة إلى أماكن للدراسة ، لذلك بدىء بانشاء هذه الأماكن فى مدينة أزهرية خاصة واسعة الأرجاء حول الجامع الأزهر ، لاتقصر عليها بل تتسع لها ولأماكن لمعهد القاهرة ولمساكن الطلاب وللادارة العامة للأزهر ولمستشفى أزهرى خاص ، وتسع عدا هـــذه الأبنية بناء المكتبة الأزهرية وما يلحق بها من المطابع وقاعة للاحتفالات العامة تسع ألفين من النظارة، ووضع تصميم هذه المبانى وفتح لها فى الميزانية العامة سنة ١٩٢٩ م اعتماد مالى بمبلغ يقرب من ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات ، وبدىء فى تنفيذها إذ ذاك بالفعل ، وفكر المراغى سنة ١٩٢٨ م فى إرسال بعثات أزهرية دراسية إلى بعض الجامعات الأوربية ليكون أعضاؤها دعاة إلى الاسلام كما كان أسلافهم ، وليفيدوا من ثقافة هذه الجامعات المتجددة مايتصل بمهمتهم ويسدوا حاجة الأزهر إلى تدريس المواد التى اقترح إدخالها ضمن برامج الدراسة فى المذكرة المشار اليها . وفى سنة ١٩٣٦ م سافرت هذه البعثات إلى انجلترا وفرنسا والمانيا فى جو من الغبطة والحذر ، وكان فى ذلك إحياء لمجد الازهر ، وقام شيخ الجامع الأزهر بتوديع هذه البعثات بنفسه فى حفل من العلماء والطلاب، وألقى فيهم خطابا رسم فيه الغاية من إرسالهم ، وصور الجو الذى أحاط بهذه الفكرة فقال : « أرسلكم الأزهر وقلبه يخفق ، وأنا واثق من أنكم ستكونون بهديكم وبقولكم وعملكم ومحبتكم أحسن الأمثلة لخريجى الأزهر الشريف» . وقال : أنتم فى البلاد التى ستقيمون فيها مرشدون أولا وتلاميذ ثانيا ولا يعفيكم واجبكم الثانى

من واجبكم الأول الذى هو فى الحق المقصد الأسمى من هجرتكم .. ولتمكين الأزهر من أداء رسالته بكل ما يمكن من الوسائل فكر الشيخ الظواهرى فى إنشاء مجلة خاصة بالأزهر تكون صوته الرسمى يدوى فى مصر والأقطار الاسلامية ، وتكون مجالا للنشاط العلمى لعلمائه وطلابه ، « وتعمل على نشر آداب الإسلام ، وإظهار حقائقه خالصة من كل لبس وتكشف عما ألصق بالدين من بدع ومحدثات وتنبه إلى مادس فى السنة من أحاديث موضوعة ، وتدفع الشبهة التى يحوم بها مرضى القلوب » ، وابتدأ صدورها سنة ١٩٣٠ م وأنشىء لها وللمطبوعات الأزهر والمعاهد مطبعة خاصة كاملة الأدوات تسد الآن حاجة المجلة والكليات والمعاهد من جميع المطبوعات .

وفى يوم الثلاثاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥١هـ — ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ احتفل رسميا بافتتاح كلية أصول الدين . وفى يوم الاربعاء التالى له احتفل كذلك رسميا بافتتاح كليتى الشريعة واللغة ، وجاء فى كلمة شيخ الازهر إبان ذاك ، الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى التى ألقاها فى هذه المناسبة بحضور رجالات الدولة :

« صدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وافيا بهذه الاغراض السامية ، مع المحافظة على صبغة الازهر الدينية والعربية . وكان من أكبر مزاياه إنشاء كليات : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وجعل أبوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم . واستدراك ما كان فى القوانين السابقة من نقص فى مواد التعليم على اختلاف مراحله ، فقد جعل من مواد الدراسة فى الكليات : تاريخ التشريع الاسلامى ، ومقارنة المذاهب ، وفن الحديث دراية ، وآداب اللغة العربية وتاريخها ، وفقه اللغة ، وتاريخ الأمم الاسلامية ، وعلم النفس ، والفلسفة ، مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها ، وغير ذلك من المواد التى لم تكن تدرس فى القسم العالى من الازهر الشريف .

ولما كان التخصص فى العلوم هو الطريقة المنتجة التى جرى عليها علماء الاسلام فى أوائل العصور ، وإليها يرجع الفضل فى تقدم العلوم وارتقائها قديما وحديثا ، نص هذا القانون على إنشاء أقسام للتخصص فى المواد التى تعنى بها الكليات ، للتبحر فيها ، وعلى منح المتخرجين منها شهادة العالمية مع لقب أستاذ ، وعلى جعلهم أهلا لشغل كراسى الاستاذية فى الكليات ، كما نص على إنشاء أقسام للتخصص فى التدريس والقضاء الشرعى والوعظ والارشاد ، يكون متخرجوها أهلا للتدريس فى مدارس الحكومة والمعاهد وتولى الوظائف الشرعية والدينية فى الدولة .

وإذا كانت كليات الازهر ستكون فى دور خاصة فى حيه وبجواره ، فان نفس الجامع الأزهر سيكون معمورا بالدروس على اختلاف أنواعها ، مفتح الأبواب لقاصديه ، من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، غير مقصور على إقامة الصلاة .

ولقد كان لصدور هـــذا القانون وانتشار أنبائه وقع حسن عظيم فى نفوس المسلمين فى عامة الاقطار ، وقد ابتدأت البعثات تتوارد وتتتابع : من الصين وبولونيا وألبانيا ، والهند ، وغيرها ، للاغتراف من هذا المنهل العذب . وأخذت الجامعات الكبرى تتصل بالأزهر الشريف ، وكان منها جامعة غرناطة ، التى لبى الأزهر الشريف دعوتها إلى الاحتفال بمرور القرن الرابع على تأسيسها » .

الثورة المصرية الثالثة والأزهر

وقد قامت الثورة المصرية الوطنية القومية العسكرية الأخيرة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكان للأزهر فضل كبير فى قيامها ، وتوالت احداث الثورة ، فألف محمد نجيب وزارته الأولى فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ثم وقعت اتفاقية السودان بين مصر وانجلترا فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، وأعلنت الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وألفت وزارة الرئيس جمال عبدالناصر بعد ذلك . وكان الأزهر يقوى من دعائم الثورة ، ويدعم العهد الجديد ، الذى ثار على الفساد فحطمه ، وعلى الطغيان فهدمه ، ولا يزال الأزهر يبارك مبادىء الثورة ، ويدعو للإيمان بها

ومنذ بدء الثورة تولى منصب مشيخة الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين ، ثم الشيخ عبد الرحمن تاج .

ويرجى للأزهر أن يصطبغ بالصبغة العلمية ، وأن يسير قدما فى سبيل أداء رسالته الجليلة .

النوابغ الذين تخرجوا فى الأزهر

وقد تخرج فى الأزهر فى العصر الحديث فريق كبير من عظماء الرجال . فمن الزعماء زعيم مصر المغفور له سعد زغلول ، ومن الأدباء المرحوم على باشا مبارك وعبدالله فكرى باشا ، والسيد رفاعة الطهطاوى ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ حمزة فتح الله ، ومن المصلحين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده .

وتخرج فيه كثيرون من أمراء الشرق ومجاهديه ، فمنهم السيد الادريسى الذى

درس فى الأزهر ثم عاد إلى اليمن يعلم البدو أمور دينهم ويحارب الأتراك فى سبيل استقلال بلاده حتى تقلص الحكم التركى عن بلاد العرب فى ختام الحرب العظمى ، وما زال سلطاناً مستقلا واسع النفوذ حتى لقى حتفه فى سنة ١٣٤٠ ﻫ .

ومنهم السيد صديق حسن خان أمير بهوبال السابق وقد تخرج فى الأزهر، وكان منتسباً لرواق البخارية ثم عاد إلى امارته فاصلح شؤونها وأقام فيها مجالس العلم حتى توفى فى سنة ١٣٢٩ بعد أن رفع شأن بلاده .

ومنهم الشيخ محمد بن عبد الله منلا الصومالى الذى درس فى الأزهر ثم رحل إلى الصومال فأخذ يعلم قومه أمور دينهم ويدعوهم إلى طرح نير الاستعباد حتى استطاع أن يؤلف بين قلوب القبائل الصـــومالية ويحارب الانجليز والإيطاليين والبلجيك والبرتغاليين ويستعمل الحيلة والدهاء فى حروبه ، فحطم جهود الاستعماريين وطرد جيوشهم ومازال فى كفاح معهم حتى لقى ربه فى سنة ١٣٢٣ هجرية ، فمهد موته الطريق أمام جيوش الاستعمار ، وسقطت الصومال بعده فى أيدى الانجليز والإيطاليين .

أشهر رجال الأزهر

فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى

وقد اشتهر فى العصر الأخير جلة من العلماء الراحلين كانوا فى طليعة الشيوخ البارزين ، على طريقة الأزهر القديمة ، وقد أدرك البعض زمانهم ، وتلقى بعض العلماء عنهم ، نذكر منهم :

الشيخ أحمد رفاعى الفيومى . الشيخ أحمد الجيزاوى . الشيخ محمد النجدى . السيد أحمد حنبلى البسيونى . الشيخ عبد القادر الرفاعى ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ عبد الكريم سلمان . الشيخ سليمان العبد . الشيخ أحمد أبو خطوة . الأخوين : الشيخ محمد ، والشيخ أحمد عبد الجواد القاياتى (١) . الشيخ حسن الطويل . الشيخ محمد حسنين البولاقى (٢) . الشيخ حسين زين المرصفى . الشيخ هرون عبد الرازق (٣) الشيخ محمد البيجرمى . الشيخ إبراهيم الظواهرى . الشيخ محمد بخيت المطيعى . الشيخ

---

(١) كانا من رجال الثورة العرابية .

(٢) هو والد أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى سابقا

(٣) كان مدرسا لمادة الدين بمدرسة الهندسة الملكية قديما .

عبدالرحمن البحراوى . الشيخ محمد راضى الكبير . الشيخ محمد رضى البحراوى . الشيخ محمد حسنين العدوى . الشيخ على البولاقى . الشيخ عبدالغنى محمود . الشيخ محمد السمالوطى . الشيخ محمد الحلبي . الشيخ أحمد نصر . الشيخ محمد شاكر . الشيخ دسوقى العربى . الشيخ عبد الرحمن قراعة . الشيخ يوسف الدجوى . الشيخ عبد الحكم عطا . الشيخ سيد على المرصفى .

وثمة شخصيات بارزة لها فى تاريخ البلاد مكان ملحوظ.

وهؤلاء لم يتموا دراستهم فى الجامع الأزهر ، وأقبلوا على أعمال أخرى فى المحاماة ، والقضاء ، وفى العلم والأدب والصحافة ، نذكر من بينهم : سعد زغلول زعيم مصر السياسى ، وإبراهيم الهلباوى المحامى ، ومحمد أبو شادى ، ومحمد الحسينى المحامى ، وحسن جلال ، ومحمد صالح المستشار بالمحاكم الوطنية ، وعبدالله نديم خطيب الثورة العرابية والسيد على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، ومحمد النجار صاحب جريدة الأرغول والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وغيرهم وغيرهم

ومن علماء الازهر المشهورين العالم العلامة الشيخ نافع الجوهرى بن سليمان بن حسن بن مصطفى بن أحمد الخفاجى من بنى خفاجة (١٢٥٠ ﻫ - ١٨٣٤ م - ١٣٣٠ ﻫ - ١٩١٢ م) ، وهو جد المؤلف لأمه ، ولد فى قرية تلبانة من أعمال الدقهلية ، وحفظ القرآن الكريم ، ونال العالمية من الازهر عام ١٢٨٣ ﻫ ، حيث تتلمذ فيه على جلة العلماء والزاهدين ، وأقام ببلدته واعظا زاهدا ، ومفتيا مرشدا ، ومؤلفا واسع الشهرة بين أقرانه . حتى بلغت مؤلفاته إلى قبل وفاته نحوا من مائة مؤلف ، أغلبها فى الشريعة والدين والفقه والمواعظ والتصوف وعلوم العربية ، وكان شاعرا مجيدا بليغا مفوها ، وأديبا لايشق له غبار (١) .

نظرة إلى المستقبل

إنما كسبه الأزهر من هذا الانقلاب الحاسم فى مصايره لا يزال رهن الزمن والمستقبل . ومن سبق القول - كما يقول عنان - أن نتحدث عن مزايا نظام جامعى لم يتمخض بعد عن آثاره ، ولكنا نستطيع بالعكس أن نقول إن الأزهر الحديث على الرغم من جميع الجهود التى بذلت لإصلاحه منذ نصف قرن ، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهرية ، فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التى اقترنت بتاريخه القديم .

---

(١) راجع ترجمته فى كتابى « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ج ٣ و ٤ » .

فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين فى علوم الدين واللغة ممن حفلت بهم حلقاته فى أواخر القرن الماضى، وكانوا بقية أخيرة لذلك الجيل القديم، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس، وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضى يأخذ بنصيب بارز فى تكوين الزعامة الفكرية والقومية، وكان ظهور رجال مثل محمد عبده وسعد زغلول من بين صفوف طلبته، أسطع دليل على أن هذا المعهد التالد لم يفقد خلال عصور الانحلال والتأخر كل حيويته الفكرية، ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفى اليوم.

وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التى كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفانى فى التحصيل والدرس، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا، وإيثار التقشف والزهد، على الحياة الناعمة.. وتحول شيوخ الأزهر فى ظل النظم الجديدة شيئاً فشيئاً إلى نوع من أرستقراطية رجال الدين، التى تمتاز ببسطة فى الرزق والجاه، وتحول طلابه إلى ميدان الصراع المادى فى سبيل العيش، والسعى وراء الوظائف ومنازعة أضرابهم من المعاهد الأخرى فى الفوز بها. وقد أحدثت هذه الأرستقراطية الاجتماعية، وهذه النزعة فى الإقبال على الدنيا، أثراً لا يحمد فى جو الأزهر العلمى، وذهبت بكثير من خواصه الروحية القديمة.

ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث على الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصرية، لا يزال بعيداً عن أن يجارى روح العصر فعلا فى تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية. فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم، ولا يزال مرجع الدراسة بالكليات الأزهرية الحديثة فى علوم الدين واللغة طائفة من الكتب القديمة التى يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى، فالشاطبية، والهداية، والسنوسية، والصبان، وألفية بن مالك، وشرحها لابن عقيل، ومختصر السعد وحواشيه، وكتب ابن حجر، والبلقينى، والسيوطى، والبرماوى، والزماوى، والزيلعى، وغيرها، تدرس فى الكليات للطلبة النظاميين، وبعض هذه الكتب يرجع إلى القرن السادس الهجرى كالشاطبية، أو السابع مثل مختصر ابن الحاجب، وألفية ابن مالك. أو الثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد، ومع أن هذه المصنفات القديمة لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية، فهى لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث. ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب والمذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جدا فى بعض المواد المستحدثة:

مثل التاريخ الاسلامى ، والسيرة النبوية ، وتاريخ التشريع ، وتفسير بعض آيات الأحكام ، وكذا بعض كتب البلاغة والأدب والنحو والصرف، وسيمضى وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة الأزهرية أن يضعوا من الشروح والتآليف المنظمة الحديثة مايسد حاجة الطلاب .

وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة ، التى لبثت قروناً تزين أروقته وساحاته ، فقضى عليها النظام الجديد ، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة ، تتمثل فى إلقاء بعض الدروس العادية فى علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى التى توجد بها المعاهد الدينية ، وتقرأ فيها الكتب القديمة ، ويشهدها الطلاب غير النظاميين ، ولاسيا الغرباء وبعض أفراد الجمهور ، وتعرف فى ظل النظام الجديد بالأقسام العامة .

والواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعى الحديث ، وقد كانت تفوق بلا ريب فى عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية ، وكان خيراً لو أصلحت ونظمت على غرار الدراسات الجامعية العليا ، التى يتولاها أعلام الأساتذة ، وقد كان فى استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التى كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر وآلاء الأزهر ، وكانت فى كثير من الأحيان بجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين .

ولقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة والحدثة ، وقد أحرز الجديد نصره النهائى على تراث القديم وأساليبه ، وتبوأت الثقافة المحدثة فى مصر المكان الأول ، وهى تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية ، بكل ماأوتى من المزايا المعنوية والمادية . على أن ذلك لايعنى أن مهمة الأزهر قد انتهت ، أو أنها يجب أن تنتهى ، بل بالعكس من ذلك أن للأزهر مهمة جليلة ، يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق إلى الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها . تلك المهمة هى العمل على دعم رسالة الاسلام ، ورسالة اللغة العربية والحضارة الاسلامية ، بأساليب مستنيرة .. وقد كان الأزهر معقلا من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى ، والعصر التركى ، وفى وسعه أن يكون معقلها اليوم(١)

---

(١) الأستاذ عبدالله عنان فى تاريخ الأزهر

الباب الثالث

شيوخ الأزهر

الفصـــل الأول

مشيخة الأزهر وشيوخه

وظيفة خطيب الازهر :

نقل المقريزى فى مواضع مختلفة إشارات لبعض مؤرخى الدولة الفاطمية عن « خطيب الجامع الازهر » . من ذلك مانقله عن ابن الطوير فى تقديم خطيب الجامع الأزهر فى إلقاء الخطبة بين يدى الخليفة فى أيام الموالد الستة التى كانت تحتفل بها الخلافة الفاطمية ، وهى المولد النبوى ومولد امير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة القائم (١) .

وكذلك كان « خطيب الجامع الازهر » يذكر فى وصف الاحتفال بليالى الوقود ، حيث يخطب أيضا بين يدى الخليفة فى هذه الليالى الاربع متقدما زملاءه من خطباء المساجد الاخرى (٢) . فالإشراف على الجامع الازهر – كما يقول عنان – كان يجرى فى ظل الدولة الفاطمية على هذا النحو :

ما تعلق باصلاحه وعمارته والانفاق عليه يرجع أمره إلى الخلفاء أو من يختارونه لذلك من الامراء والوزراء .

وما يتعلق بشئون الصلاة يرجع إلى الخطيب وإلى عدد من الأئمة والقومة والمؤذنين ، والخطيب فى الواقع هو رئيس الجامع الدينى وهو الذى يتولى الخطابة فى الصلوات الجامعة ، والحفلات الدينية الرسمية بين يدى الخليفة أو نائبه ، ويدير شئون المسجد الدينية بوجه عام .

ويبدو أن وظيفة « خطيب » الجامع الازهر لبثت تنمو فى الاهمية على مر الزمن تبعا لنمو أهمية الازهر نفسه ، فهى فى أواخر الدولة الفاطمية تسند إلى رجال

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٠٢ .

من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة مثل داعي الدعاة ، فقد ذكر ابن ميسر في أخبار سنة ٥١٧ هـ أنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح ، منصب الخطابة بالجامع الازهر ، مع خزانة الكتب (١) .

أما إدارة المسجد الداخلية من فرش وتنظيم وتجميل فترجع إلى المشرف ومعاونيه من العمال والخدم

وأما مايتعلق بشئون الدراسة والاساتذة والطلاب والنفقة عليهم ، فقد رأينا أنه يرجع إلى الخلفاء وإلى ذوي البر من أكابر رجال الدولة ، وقد كان العزيز بالله ووزيره ابن كلس أول من رتب النفقة الدائمة للقراء والاساتذة بالأزهر ، وحذا حذوهما في ذلك الخلفاء والأمراء والكبراء ؛ في مختلف الدول والعصور .

وهـــذا النظام في الاشراف على الجامع الازهر ربما لبث متبعاً في جوهره بعد الدولة الفاطمية ، فمثلا نرى في أواخر القرن الثامن ، في عهد الملك الظاهر برقوق ، ولاية النظر على الجامع الازهر ، تسند في سنة ٧٨٤ هـ إلى الطواشي بهادر مقدم المماليك السلطانية ، وفي أثناء ولايته صدر مرسوم ملكي يقضي بأن من توفي من مجاوري الجامع دون وارث شرعي ، وخلف تركة ، فإنها تؤول إلى زملائه المجاورين ، وفي سنة ٨١٨ هـ في عهد السلطان المؤيد ولي نظر الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب . فكان مما قرره منع المبيت بالجامع الازهر ، وأخرج المجاورين الذين اعتادوا السكنى فيه (٢) . وبعد ذلك بقليل في زمن السلطان المؤيد أيضا ولي نظر الجامع شمس الدين محمد الماحوري ، أحد تجار الكارم والجوهر ، وكان من أصدقاء المؤيد . وذلك بطريق النيابة عمن له النظر على الجامع (ولعله الأمير سودوب أيضا) ، فاستعمل القسوة في تنظيم شئونه الداخلية ، وكان يطوف ومعه عصى لردع المخالفين ، وقاسى الطلاب منه شدة (٣) . . على أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الادارية مما يتعلق باصلاحه وتعميره والانفاق عليه ، وتعيين الموظفين اللازمين لادارته .

أما شئون العبادات فقد كانت دائما من اختصاص خطيب الجامع وإمامه . وقد كان يلي خطابة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة والعصور المتقدمة أكابر

---

(١) أخبار مصر لابن ميسر ٤٦ .

(٢) المقريزي في الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) التبر المسبوك ص ١٩٨ .

القضاة والعلماء ، فنرى بين خطباء الجامع الازهر فى اواخر القرن السابع الهجرى قاضى القضاة تقى الدين أبا القاسم ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز (١) ، وفى أوائل القرن التاسع قاضى القضاة الحافظ ابن حجر العسقلانى (٢) .. وكان يوجد دائما إلى جانب منصب الخطيب منصب الامام يشغله أيضا بعض العلماء الاعلام ، وصاحبه يلى الخطيب فى الاهمية ، ويعاونه فى القيام بشئون العبادات . وثمة منصب هام آخر هو منصب « الواعظ » يليه أيضا جماعة من أكابر العلماء ، وقد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركى . وكان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر فى العصور المتاخرة الفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات ، تولاها فى أواخر القرن التاسع الهجرى (٣)، والشيخ رضوان المتوفى سنة ١١١٥ (٤) .. ومن الذين تولوا منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، والشيخ شمس الدين الصفدى المقدسى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة (٥)

وأما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى السلطان ووزرائه . وقد وقد كانت مناصب التدريس فى الأزهر وما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة ، فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة والعلماء ، بيد أنه كان للواقفين والواهبين بلا ريب رأى فى تعيين أنواع العلوم التى يخصونها بهباتهم ، وفى اختيار الأساتذة الذين يتولون تدريسها .

منصب مشيخة الأزهر :

وإذا كان من المستطاع أن يتتبع الباحث بعض النصوص والاشارات التى تلقى ضوءا على نظم الإشراف على الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى وفى عصور السلاطين ، فإنا لا نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت النظم إلى نظام المشيخة الحالى . ومن المعروف الذائع أن نظام المشيخة الحالى إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف . وأنه طبق لأول مرة

---

(١) النجوم الزهراء ج ٨ ص ٨٢

(٢) التبر المسبوك ص ٢٣١

(٣) التبر المسبوك ص ٣٢ ، ٧٧ ، ٢٣٩ .

(٤) الجبرتى ـ عجائب الآثار ج ١ ص ٧٢ .

(٥) الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ـ مخطوط فى دار الكتب

فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد عبد الخرشى المالكى المتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ ه (١٦٩٠م) ، وخلفه فى المشيخة الشيخ محمد النشرتى المالكى . ولما توفى هذا الشيخ سنة ١١٢٠ ه (١٧٠٨م) ، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شديدة ، وانقسم المجاورون - الطلاب - فرقتين : ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى وترشح الأخرى الشيخ عبد الباقى القلينى وكلاهما من المالكية . ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون . وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القلينى فى المشيخة والتدريس .

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا المنهج فى نظام الوظائف الدينية الرئيسية . وقد يرجع التفكير فيه وفى قيامه إلى منتصف القرن العاشر الهجرى . ذلك أن ولاة الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة ، وكان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد والمعاهد الاسلامية مركز الصدارة ، ويزخر دائماً بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين وإخوانهم من سائر أنحاء العالم الاسلامى ، هم صفوة الأئمة والأساتذة فى ذلك العصر ، ومن المعقول أن تكون رياسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة فى نظر ولاة الأمور . وإذا كان الجبرتى لم يذكر شيخاً للأزهر قبل الشيخ الخرشى المتوفى سنة ١١٠١ ه ، فإنه من جهة أخرى لم يقل بصفة قاطعة إنه كان أول من ولى المشيخة . ومع أنه لم يعثر كذلك فيما أتيح من المراجع على نصوص قاطعة تلقى ضوءاً واضحاً على أصل مشيخة الأزهر والوقت الذى بدأ فيه تطبيق هذا النظام . فانه توجد مع ذلك قرائن عديدة ، تدل على أنه يرجع إلى ما قبل أواخر القرن الحادى عشر بكثير

ومن ذلك ما رواه صاحب كتاب « ذخيرة الأعلام » (١) فى حديثه عن واقعة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى مع داود باشا الذى تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥ ه (١٥٣٨ م) ، فقد ذكر أنه حدث فى شهر شعبان سنة ٩٥٠ ه أن الشيخ ابن عبد الحق قال يوماً لداود باشا وهو فى موكبه : إنه رقيق لا يجوز له أن

(١) هو كتاب « ذخيرة الأعلام . بتواريخ الخلفاء العلماء ، وأمراء مصر الحكام ، وقضاة قضاتها فى الأحكام » - لمؤلفه الشيخ أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى من علماء أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، وهو مكتوب كله بالنظم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ) .

يتولى الأحكام ، وان أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه .. ثم يقول فى قصيدته التى يروى فيها تفاصيل هذه الواقعة :

لما صغى الباشا للكلام　　هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جذب الحسام　　فان هذا شيخ الاسلام الامام

وانحاز الجند للشيخ ، فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة إلى السلطان فأنعم عليه بعتقه مع تبليغ الشكر إلى الشيخ . وسعى الباشا بعد ذلك إلى الشيخ واسترضاه وقبل رجله ، ولم يقبل الشيخ منه مالا ولا هدية ، ولكنه أصبح من ذلك الحين لا يرد للشيخ رأيا ولا شفاعة(١) .

والمهم فى هذه الرواية هو نعت الشيخ ابن عبدالحق « بشيخ الاسلام الامام » ، فانا نعرف أن لقب شيخ الاسلام كان يطلق قبل الفتح العثمانى على «قاضى القضاة» الشافعى ، وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب من المصريين قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن على المتوفى سنة ٩٤٩ هـ(٢) ، فلما ألغى الترك نظام القضاء المصرى ، وأقاموا فى رياسة القضاء قاضيا تركيا ، كان هذا اللقب يطلق فيما بعد على أكابر العلماء الذين يصلون إلى مرتبة الزعامة العلمية أو على شيوخ الجامع الأزهر والأغلب أن يطلق على هؤلاء الشيوخ .

فهل كان ابن عبد الحق شيخا للجامع الأزهر ؟ لقد جاء فى ترجمته أنه كان واعظا بالجامع الأزهر . وقال معاصره الامام الشعرانى عنه مايأتى : « لم نر أحدا من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله . كان إذا نزل من فوق الكرسى ، يقتتل الناس عليه ، وكان متفننا فى العلوم الشرعية ، وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب المجتهدين . وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، وكان قد اشتهر فى أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم ، وصاروا يضربون به المثل ، وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام» ، ثم قال : « ولما مات اظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين» ، وكانت وفاة ابن الحق ، حسبما ذكر صاحب الكواكب السائرة فى أواخر

(١) هذه القصيدة بأكملها فى المخطوط المشار إليه ورقة ١٥٠ و ١٥١ تحت عنوان (واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا) .

(٢) الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة (المخطوط) ج ٢ ص ١٨٢ .

صفر سنة ٩٥٠ هـ (١)

لا يميل المؤرخون إلى القطع بان ابن عبد الحق كان شيخا للجامع الأزهر . ونستطيع القول بانه يوجـــد ثمة فى ترجمته وفيما نعته به صاحب الذخيرة مايحمل على الظن بأنه كانت له صفة الرياسة بالأزهر من مشيخة أو غيرها (٢).

ومن ذلك مارواه فون همار مؤرخ الدولة العثمانية فى تاريخه عما حدث بمصر من الاضطرابات فى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٨ م) فى عهد الوالى محمد باشا المعروف بشاه سور زاده (ونقله سامى باشا فى كتابه) إذ يقول : « جرد هـذا الوالى حملة ضد كاشف البهنسى محمد بك فقتل هذا الأمير وجىء برأسه إلى القاهرة . وقد قتل غيره من الأمراء ، وأدت زيادة الاضطرابات إلى أن عقد مجلس كان فيه القاضى وشيخ الجامع الأزهر وغيرهما ، فتقرر فيه الفتوى بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم الأوامر السلطانية ، فجرد عليهم وحاربهم » (٣).

وهنا ـ نجد أنفسنا كما يقول عنان ـ أمام ذكر صريح « لشيخ الجامع الأزهر » ، وإن كنا لانعرف من هو هذا الشيخ ، وذكره يجىء فى مناسبة تتقدم التاريخ الذى الذى اصطلح على رد المشيخة اليه بنحو أربعين عاما . ومن ذلك ماأورده الجبرتى فى ترجمة العلامة إبراهيم بن محمد ابن شهاب الدين بن خالد البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، فقد ذكر صراحة أنه كان شيخاً للجامع الأزهر (٤) ، فمتى كان ذلك ، لاريب أنه تولى المشيخة قبل أن يتولاها الشيخ الخرشى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وقد

---

(١) راجع الكواكب السائرة (المخطوط المشار إليه) جـ ٢ صـ ١٧٩ ، ويلاحظ ـ كما قال عنان ـ أنه توجد مفارقة بين تاريخ الوفاة فى هذه الترجمة وبين واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا إذ قال صاحب الذخيرة إنها وقعت فى شعبان سنه ٩٥٠ هـ أى بعد تاريخ الوفاة ، فلا بد أنها وقعت قبل ذلك ، أو تكون الوفاة وقعت بعدها .

(٢) ذهب المغفور له أمين سامى فيما أورده عن واقعة ابن عبد الحق وداود باشا نقلا عن صاحب الذخيرة إلى أبعد من ذلك ، حيث وصف ابن عبد الحق بأنه « شيخ الجامع » ، أى الجامع الأزهر (راجع كتاب تقويم النيل جـ ٢ صـ ١٩).

(٣) كتاب تقويم النيل جـ ٢ صـ ٥٩

(٤) عجائب الآثار جـ ١ صـ ٧٠ .

توفى الشيخ الخرشى كما تقدم فى سنة ١١٠١ هـ وتولى المشيخة من بعده الشيخ النشرتى المتوفى سنة ١١٢٠ هـ، فربما كان البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ قد تولى المشيخة قبلهما، أى فى أواخر القرن الحادى عشر حوالى سنة ١٠٨٠ إلى سنة ١٠٩٠ هـ.

فشيخة الأزهر إذا ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر فقط، والشيخ الخرشى كان أول من تولاها غالبا.

والمرجح أن هذا النظام يرجع إلى أواسط القرن العاشر، وأنه يمت كما قدمنا بصلة إلى التغييرات التى أحدثها الترك العثمانيون فى الوظائف الدينية الكبرى، وقد كان لشيخ الجامع الأزهر وعلمائه نفوذ خاص يعتمد عليه ولاة الأمر كلما اقتضت الظروف والحوادث. وقد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة والزعامة فى أواخر القرن الثالث عشر، ولاسيما وقت مقدم الحملة الفرنسية، حيث كان لأكابر الشيوخ رأى بارز فى معظم الحوادث والشئون الداخلية، وكانوا يعتبرون دائما ممثلى الأمة، وكان منهم أعضاء الديوان الذى ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة. وكان لهم نفوذ يذكر فى سير الحوادث فى ذلك الحين.

ومن المعروف أن العصر التركى هو أكثر العصور فى تاريخ مصر الاسلامية غموضاً واضطرابا، وأقلها وثائق ومراجع، لما حدث فيه من اضمحلال الحركة الأدبية. وفتور الهمم عن التأليف، وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة والأمور النافعة، إلى ملق الحكام وتدوين سيرهم الشخصية.

فلم يكن للأزهر إذن شيخ من قبل عهدهم يتولى رياسته الدينية. ويدير شئونه الادارية. بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها، كباقى المساجد الجامعة بالديار المصرية. ويباشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة وشيوخ الأروقة يعاونهم خطيب المسجد، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم. وبقى هذا النظام متبعاً فى الجامع الأزهر غالباً مدة حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك الأولى (البحرية)، وفى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر: «ناظر» سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢)، وكان «ناظر الازهر» يختار من بين كبار موظفى الدولة، وكان هذا «الناظر» هو الأمير «بهادر» الطواشى كبير المماليك السلطانية، وكان «ناظر الجامع الأزهر» ينوب عن سلطان مصر، أو حاكمها، فى الإشراف على شئون الأزهر، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام

السلطانية ، والسهر على رعاية مصالح الجامع الازهر ، ومصالح أهله من علماء وطلاب .
وقد عرف من « نظار » هـذا العهد المملوكى أيضاً الأمـير « سودوب » القاضى وحاجب الحجاب ، ولى « نظارة الجامع الازهر » سنة ٨١٨ ﻫ (١٤١٥ م) . .

ولما استولى الاتراك العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، فحافظوا على الاوضاع المرعية فى الازهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله ، واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الاسلامى حقه من الرعاية والتقدير ، وجددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته ، وأوقف الامراء ، والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان ، الكثير من الاموال والاملاك ، والعقارات على علمائه وطلبته ، فاتسعت إدارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شئون هذا المعهد الدينية والادارية معا ، ويكون رئيساً لشيوخ المذاهب والاروقة ، وسائر علماء الازهر وطلابه ، ومسئولا مباشرة أمام الولاة والسلاطـين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الازهر المختلفة ، فاستحسنت « الدولة العلية » قبيل نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أن يعين للأزهر : « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ، ويلقب : « بشيخ الجامع الازهر » .

ومنذ العهد التركى العثمانى والجامع الازهر يحتفظ بهـذه الوظيفة ، التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن ، ومقتضيات الظروف والأحوال ، حتى آلت إلى ماهى عليه الآن .

واليوم يختار « شيخ الجامع الازهر » من بين جماعة كبار العلماء ، ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمساً وأربعين سنة على الاقل ، وأن يكون معروفا بالورع والتقوى فى ماضيه وحاضره ، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الاقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الاقل فى إحدى كليات الجامع الازهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ م ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو كان عضوا بالمحكمة العليا الشرعية .

ويعين « شيخ الجامع الازهر » بأمر جمهورى ، ويصير من يعين شيخا للجامع الازهر من غير جماعة كبار العلماء عضواً فى هذه الجماعة بحكم القانون .

شيوخ الأزهر :

وقد تولى مشيخة الأزهر كثير من الأئمة الأعلام ، وهم :

١ - الشيخ الخرشي المالكي - وترجمته فى تاريخ الجبرتي الجزء الأول ص ٦٥ - وقد توفى الخرشي سنة ١١٠١ هـ (١) .

ويعد أول من تولى مشيخة الأزهر، وهو الشريف الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله الخرشي المالكي، والخرشي نسبة لبلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة بالديار المصرية، انتهت اليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته ، وكان متواضعاً عفيفاً واسع الخلق كثير الأدب والحياء كريم النفس حلو الكلام كثير الشفاعات عند الأمراء مهيب المنظر دائم الطهارة كثير الصمت كثير الصيام والقيام زاهداً ورعا متقشفاً فى مأكله وملبسه ومفرشه ، وكان لايصلى الصبح صيفاً وشتاء الا بالجامع الأزهر، وكان يقضى مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته فى منزله، يتعمم بشملة صوف بيضاء، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية واشتهر فى بلاد الأرض من بلاد الغرب والتكرور والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة ايثارا لوجه الله تعالى ، ولا يمل فى درسه من سؤال سائل، وكان أكثر قراءته بالأقبغاوية ، وكان له فى منزله خلوة للعبادة ، ومن مشايخه : على الاجهوري وإبراهيم اللقانى ، ووالده الشيخ عبدالله الخرشي ، ومات فى ٢٧ ذى الحجة ١١٠١ هـ ودفن مع والده بقرب مدفن سيدى محمد البنوفرى بواسطة قرافة المجاورين ، وله شرحين على متن خليل ، وكتاب فى الكلام وهو أول شيخ تولى مشيخة الأزهر الشريف ، وكان فى العلم غاية لاتنال . . ويقول الشيخ منصور رجب من مقال نشره عنه فى مجلة الأزهر :

أول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد الله على الخرشي المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ نسبه إلى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها « أبو خراش » . وهذه القرية يقول عنها المرحوم على مبارك باشا فى خططه (٢) : « إنها بقسم شبراخيت واقعة فى بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر ، وفى قبلى « محلة نابت » بنحو ثمانمائة متر ، وأبنيتها باللبن ، وبها جامع ضريح لولى عليه قبة ، وفى مشرقيها ضريح سيدى عطية ، وبها إبعادية لمنصور باشا يكن ، وفيها - لعمدتها محمد عمر - دوار ومضيفة وزراعة متسعة نحو ألف فدان ، وبها بستان نضر ، وأكثر أهلها مسلمون » .

---

(١) راجع أيضا ٢٠٨ / ١ الجبرتي . (٢) جـ ٩ ص ٢١

والشيخ الخرشى هـذا ترجمه الشيخ على الصعيدى العدوى فى حاشيته على شرحه الصغير لمتن خليل ، فقال : « هو العلامة الامام ، والقدوة الهمام ، شيخ المالكية شرقا وغربا ، قدوة السالكين عجما وعربا ، مربى المريدين ، كهف السالكين، سيدى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن على الخرشى ، ونسب عصبته بأولاد صباح الخير ، انتهت اليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته،وكان متواضعا عفيفا ، واسع الخلق ، كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة حلو الكلام ، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، مهيب المنظر ، دائم الطهارة ، كثير الصمت ، كثير الصيام والقيام ، زاهداورعا ، متقشفا فى مأكله وملبسه ومفرشه ولا يصلى الصبح صيفا ولا شتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته فى منزله . ويقول من عاشره : ماضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، واشتهر فى أقطار الأرض ، كبلاد الغرب والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب ، مع السهولة إيثارا وجه الله تعالى ، ولا يمل فى درسه من سؤال سائل ، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقانى وأبى الضياء على الأجهورى . وكان أكثر قراءته بمدرسة الاقبغاوية . وكان يقسم متن خليل نصفين : نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ، ويقرأ النصف الثانى فى اليوم الثانى ، وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت الهدايا والنذور تأتيه من أقصى بلاد الغرب وغيرها فلا يمسك منها شيئا ، بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها .

أخذ العلوم عن عـدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ على الأجهورى ، وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ يوسف القيشى والشيخ عبد المعطى البصير ، والشيخ يسن الشامى ، ووالده الشيخ عبدالله الخرشى ، وتخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة ، منهم العارف بالله الشيخ أحمد اللقانى ، والشيخ محمد الزرقانى ، والشيخ على اللقانى ، والشيخ شمس الدين اللقانى ، والشيخ داود اللقانى ، والشيخ محمد النفراوى ، وأخوه الشيخ أحمد ، والشيخ الشبراخيتى ، والشيخ أحمد الفيومى ، والشيخ إبراهيم الفيومى ، والشيخ أحمد الشرفى ، والشيخ عبدالباقى القلينى والشيخ على المجدولى . ولما توفى فى صبيحة يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١١٠١ دفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف بالله سيدمحمدالبنوفرى

بوسط تربة المجاورين .

يقول : وقبره مشهور ، وما رأيت فى عمرى أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحى ، والشيخ محمد البابلى .

وله مؤلفات ، منها شرحه الكبير على متن خليل ثمانية أجزاء ، وشرحه الصغير على خليل أيضا أربعة أجزاء ، وله جزء فى الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة ، وغير ذلك .

هذا هو الشيخ محمد الخرشى أول شيخ من أبناء الأزهر تولى هذه الرياسة الدينية العامة . ولقد كانت مصر أول ماعرفت من مذاهب الفقهاء عرفت مذهب مالك ، فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحي مولى جمح وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ ، فى أيام الليث بن سعد ، واشتهر بمصر هذا المذهب ، ولم يزل مشتهرا حتى قدم محمد بن إدريس الشافعى فى سنة ١٩٨ . أما مذهب أبى حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعى . والحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا فى القرن السابع .

وكان التفاف الناس فى ذلك العصر حول مذهب مالك والشافعى أكثر من التفافهم حول مذهب أبى حنيفة ، حتى إن مدرسة محمد بك أبى الذهب قبيل عصر الشيخ الخرشى بقليل لما وظف بها المدرسون وكانوا ستة عشر مدرسا ، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية وستة من شيوخ المالكية ، وثلاثة من شيوخ الحنفية .

وكان الإفتاء فى ذلك الوقت لايقتصر على مذهب بعينه ، بل كان لكل مذهب مفت . وكان المفتون يجلسون بعد دروسهم لافادة الناس ، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن برسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين ، وكان منهم الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية ، والشيخ الكفراوى مفتى الشافعية .

وكان الأزهر يتولى شئونه فى أول عهده رجل يسمى مشرف . وفى عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً ، منهم الأمير الطواشى بهادر المقدم على المماليك السلطانية ، ولى نظره فى سنة ٨٧٤ ﻫ وهو الذى أنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضا إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعى . ومنهم الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب ، ولى نظره سنة ٨١٨ .. أما تلك الرياسة الدينية العلمية فعرفها الأزهر فى العهد التركى بلقب « شيخ الأزهر » .. ولقد توالى على هذه الرياسة منذ إنشائها حتى الآن أربعون شيخا ، وأولهم الشيخ الخرشى هذا .

٢ ـ وتقلدها على الأرجح بعده الشيخ إبراهيم بن محمد البرماوى الشافعى وبقى فيها إلى أن توفى سنة ١١٠٦ هـ .

٣ ـ الشيخ محمد النشرتى المالكى وقد توفى عام ١١٢٠ هـ (١) وهو ثالث شيخ للأزهر

٤ ـ وخلفه الشيخ عبد الباقى القليني المالكى فى المشيخة والتدريس (٢) ، ولما مات تقلدها بعده الشيخ محمد شنن .

٥ ـ الشيخ العلامة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد شنن المالكى . . توفى سنة ١١٣٣ هـ عن سبع وسبعين سنة (٣) .

٦ ـ الشيخ ابرهيم بن موسى الفيومى المالكى شيخ الجامع الأزهر . . تفقه على الشيخ محمد بن عبد الله الخرشى ، قرأ عليه الرسالة وشرحها ، وكان معيدا له فيهما . وتلبس بالمشيخة بعد موت الشيخ محمد شنن ، ومولده سنه ١٠٦٢ .. وأخذ عن الشبراملسى والزرقانى والشهاب أحمد البشبيشى وغيرهم كالشيخ الغرقاوى وعلى الجزايرلى الحنفى . وأخذ الحديث عن يحيى الشاوى وعبدالرحمن الأجهورى والشيخ إبراهيم البرماوى ، وله شرح على العزية فى مجلدين ...

توفى سنة سبع وثلاثين ومائة وألف عن خمس وسبعين سنة (٤) .

٧ ـ ولما مات الشيخ الفيومى المالكى شيخ الجامع الأزهر عام ١١٣٧ هـ ، انتقلت المشيخة إلى الشافعية ، فتولاها الشيخ عبدالله الشبراوى . ويتحدث الجبرتى عن جاهه ومكانته ويذكر أسماء بعض شيوخه ، ومنهم : الشيخ خليل اللقانى ، والشهاب الخليفى ، ومحمد ابن عبدالباقى الزرقانى ، وأحمد النفراوى ، والشيخ منصور المنوفى ، وصالح الحنبلى ، وسواهم (٥) .

وكان طلبة العلم فى أيام مشيخته فى غاية الأدب والاحترام .

ومن آثاره : مفاتح الالطاف فى مدائح الأشراف ، وشرح الصدر فى غزوة بدر (١) وتوفى سنة ١١٧١ هـ ، عن ثمانين سنة ، وصلى عليه بالأزهر (٥) .

وصار لأهل العلم فى مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام ، ولم يزل يملى ويدرس ويفيد ، وعد إماما عظيما . وكان مقبول الشفاعة ، وهاداه الأمراء ،

(١) ٢٠٨ جـ ١ الجبرتى (٢) ٢٠٩ جـ ١ الجبرتى

(٣) ٧٣ جـ ١ تاريخ الجبرتى طبعة ١٢٩٧ هـ

(٤) ٨٧ جـ ١ الجبرتى

(٥) ٢٠٩ جـ ١ الجبرتى

وعمر داراً عظيمة على بركة الازبكية بالقرب من الرويعي . ومن آثاره « شرح الصدر في غزوة بدر » و « مفاتح الالطاف في مدائح الاشراف .

وهو ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع ، وقد ذهب الجبرتي وغيره إلى أن مفاتح الألطاف هذا كتاب غير الديوان ، وليس كذلك فانه يقول نفسه في مقدمه الديوان « وسميته مفاتح الالطاف . . . » وهو القائل (١) لهذه القصيدة العذبة التي تسيل عذوبة ورقة المشهورة على ألسنة بعض المغنين :

بحقك أنت المنى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب
ولي فيك يا هاجري صبوة تحير في وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما إذا لاح لي في الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلي في هواك إذا نم يامنيتي أو عتب
أمولاي بالله رفقا بمن إليك بذل الغرام انتسب
فاني حسيبك من ذي الجفا ويا سيدي أنت أهل الحسب
ويا هاجري بعد ذاك الرضا بحقك قل لي : لهذا سبب ؟
فاني محب كما قد عهدت ولكن حبك شيء عجب
متى يا جميل المحيا أرى رضاك ويذهب هذا الغضب ؟
أشاع العذول بأني سلوت وحقك ياسيدي قد كذب
ومثلك ما ينبغي أن يصد ويهجر صبا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع فيأخذني عند ذاك الطرب
ويعجبني منك حسن القوام ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح الكريم الجدود العريق النسب
أما والذي زان منك الجبين وأودع في اللحظ بنت العنب
وأنبت في الخد روض الجمال ولكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أوجرت أنت المراد وما لي سواك مليح يحب

٨ — الشيخ محمد بن سالم الحفني الشافعي الخلوتي الحسيني (١١٠٠ — ١١٨١هـ)
ولد في حفنا قرب بلبيس ، وقرأ بها القرآن إلى الشعراء . . ثم أكمله في القاهرة ثم اشتغل بحفظ المتون ، وأخذ العلم عن علماء عصره ، وأجازوه بالافتاء والتدريس ، فدرس الكتب الدقيقة كالأشموني وجمع الجوامع والمنهج ومختصر السعد ، وشهد له

(١) « ديوان الشبراوي » ص ٨ ، ٩

معاصروه بالتقدم فى العلوم . . وكان يتردد على زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل متحنثا . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ، وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره .

ومن تآليفه : حاشية على شرح رسالة العضد على السعد ، وعلى الشنشورى فى الفرائض ، وعلى شرح الهمزية لابن حجر ، وعلى مختصر السعد ، وعلى شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة .

وهو صاحب . . أحدثك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى تاجرها الخ .

وتوفى عام ١١٨١هـ(١) .

وكان قطبا وعلما شهيرا ، وأوحد أهل زمانه علما وعملا ، وهو الامام محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ولد بحفنة قرية من قسم بلبيس من مديرية الشرقية بالقطر المصرى على رأس المائة الحادية عشرة وهو شريف حسينى من جهة أم أبيه نشأ بالقرية المذكورة وحفظ بها من القرآن إلى سورة الشعراء وألزمه أبوه بالمجاورة بالأزهر فكمل حفظ القرآن ، ثم قدم مصر وحفظ المتون واجتهد فى تحصيل العلوم وأخذ من علماء عصره حتى مهر ، وأفاد حياة أشياخه وأجازوه بالافتاء والتدريس فدرس الكتب الدقيقة من غالب الفنون وكان فى ضيق من العيش فاشتغل بنسخ الكتب ، ثم من الله عليه بكرامات فترك النسخ فأقبلت عليه الدنيا وكان يتردد إلى زاوية الشيخ شاهين الخلوتى فى سفح الجبل ، وكان يمكث فيها الليالى متحنثا أى متعبدا وتخرج من درسه غالب علماء عصره ، وله مؤلفات كثيرة منها حاشية على شرح العضد للسعد وحاشية على الشنشورى فى الفرائض وحاشية على مختصر السعد وحاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة وحاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير .. وكان كريم الطبع جدا وليس للدنيا عنده قدر .

٩ — الامام العلامة الفقيه شيخ الاسلام الشيخ عبد الرؤوف بن محمد السجينى الشافعى الأزهرى شيخ الأزهر . . تولى مشيخة الأزهر بعد الحفنى إلا أنه لم تطل مدته . . وتوفى سنة ١١٨٢هـ (٢) .

وقد أخذ العلوم عن عمه الشمس السجينى ولازمه ، وبعد وفاته درس فى موضعه

---

(١) ٢٨٩ — ٣٥٣ جـ ١ الجبرتى

(٢) ٣١٦ جـ ١ الجبرتى .

وبعد أن تولى مشيخة الأزهر سار فيها بشهامة وصرامة وتوفى سنة ١١٨٢ ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بجوار عمه بأعلى البستان ، واتفق أنه وقعت له حادثة قبل مشيخته على الجامع الأزهر بمدة وهى التى كانت سببا لاشتهاره بمصر ، وذلك أن تاجرا من تجار خان الخليلى تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلك الخادم وفر من أمامه فتبعه هو واثنان من أبناء جنسه فدخل الفار بيت الشيخ السجينى فدخل التاجر خلفه وضربه برصاصة فأصابت رجلا من أقارب الشيخ فمات وهرب الضارب وطلبوه فامتنع عليهم وتعصب معه أهل خطته فاهتم الشيخ وجمع المشايخ والقاضى وحضر إليهم جماعة من أمراء الوجاقية وانضم إليهم الكثير من العامة وثارت الفتنة وأغلقت الناس الأسواق واعتصم أهل خان الخليلى بدائرتهم وأحاط الناس بهم من كل جهة وقتل بين الفريقين عدة أشخاص واستمر الحال على ذلك أسبوعا ، ثم اجتمعوا بالمحكمة بعد حضور على بك واجتمع الأمر على الصلح ونودى فى صبيحتها بالأمان ، وفتحت الحوانيت والأسواق .

١٠ ـ الشيخ الامام أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى الأزهرى (١١٠١ - ١١٩٢ ﻫ) .

ولد بدمنهور وقدم الأزهر وهو صغير فجد فى الطلب ، وأجازه علماء المذاهب الأربعة ، وولى مشيخة الجامع الازهر بعد الشيخ الحفنى عام ١١٨٢ ﻫ .

وله مؤلفات كثيرة ، منها حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ، والقول الصريح فى علم التشريح ، والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك . وكان مسكنه ببولاق وصلى عليه بالأزهر(١) .

وكان يدرس بالمشهد الحسينى فى شهر رمضان وهابته الأمراء لكونه قوالا للحق أمارا بالمعروف ، وقصدته الملوك من الاطراف وهادته بالهدايا ، ومن مؤلفاته شرح الجوهر المكنون ومنتهى الارادات فى تحقيق الاستعارات ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الاهتداء بأحكام الامة والابتداء على مذهب الامام الاعظم وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد والرقائق الالمعية على الرسالة الوضعية وعين الحياة فى استنباط المياه والوفق المئينى ، والقول الصريح فى علم التشريح وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة والزهر الباسم فى علم الطلاسم .. وله غير ذلك من غالب الفنون ، وتوفى سنة ١١٩٢ ﻫ

(١) ٢٥ - ٢٧ ج ٢ الجبرتى

وكان منزله ببولاق، فخرج بمشهد حافل، وصلي عليه بالازهر ودفن بالبستان رحمه الله .

١١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن عمر الحنفى الازهرى ولد بقلعة العريش من أعمال غزة وبها نشأ وحفظ بعض المتون ثم حضر فى الازهر وتولى مشيخة رواق الشوام، وعين مفتى الحنفية .

وأقيم وكيلا للشيخ الدمنهورى ، فلما توفى الشيخ الدمنهورى تولى المشيخة ، ولكن علماء الأزهر لم يرضوا عنه وكتبوا للأمراء بأن مشيخة الازهر من مناصب الشافعية ، وليس للحنفية فيها قديم عهد أبدا ، وخصوصا إذا آفاقيا ليس من أهل البلدة ، ورشحوا للمشيخة الشيخ أحمد العروسى ، واستمر الاضطراب سبعة أشهر ، ثم ثبت العروسى للمشيخة(١) . . وتوفى سنة ١١٩٣

١٢ ـ الشيخ أبو الصلاح أحمد بن موسى العروسى الشافعى ، ولى المشيخة وبقى فيها إلى أن توفى فى أواخر شعبان سنة ١٢٠٨ ﻫ ، ومولده ١١٣٢ ﻫ ، ومن تآليفه شرح على نظم التنوير فى إسقاط التدبير ، وحاشية على الملوى على السمرقندى

١٣ ـ الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى شيخ الجامع الازهر ، ولد بالطويلة بشرقية بلبيس عام ١١٥٠ وتعلم فى الازهر ، وصار من شيوخه ومدرسيه

ولما مات الشيخ أحمد العروسى تولى مشيخة الازهر بعده ، وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ مصطفى الصاوى ، ثم انتهى الامر باسنادها إليه

وتوفى عام ١٢٢٧ ﻫ (٢)

كان لما ترعرع وحفظ القرآن قدم إلى الجامع الأزهر وسمع الكثير من العلوم عن الشهابيين الملوى والجوهرى والشمس الحفنى والشيخ الدمنهورى والسيد البليدى والشيخ عطية الاجهورى والشيخ محمد الفارسى والشيخ عمر الطحلاوى، وأخذ الطريق عن الشمس الحفنى ثم عن الشيخ محمود الكردى ولازمه وحضر معه فى اذكاره ، ودرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وتميز فى الالقاء والتحرير وأفتى فى مذهبه . وله مؤلفات دالة على سعة فضله منها حاشية على التحرير وشرح نظم الشيخ يحيى العمريطى ومتن العقائد المشرقية مع شرحها ، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ومختصر الشمائل مع شرحه وشرح الحكم

---

(١) ٥٣ و ٥٤ ج ٢ الجبرتى

(٢) ١٥٩ ج ٤ الجبرتى وما بعدها

لابن عطاء الله وشرح الوصايا الكردية فى التصوف وشرح ورد السحر للبكرى ومختصر مغنى اللبيب فى النحو وحاشية على شرح الهدهدى فى التوحيد وطبقات فقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين وتاريخ مصر، وله غير ذلك .. وكان فى قلة من العيش ثم بعد مدة اشتهر ذكره ووصله بعض التجار بالهدايا ، فراج حاله وتجمل بالملابس واشترى دارا بحارة كتامة وهى المعروفة الآن بالدوادارى قرب جامع العينى، واستمر حاله فى تحسن إلى أن مات الشيخ أحمد العروسى فتولى بعده مشيخة الأزهر ، وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ مصطفى الصاوى ، ثم حصل الاتفاق عليه . . وقد أنشأ رواق الشراقوة بالأزهر لأسباب عديدة ، وحصلت أيامه حوادث الحملة الفرنسية وتوفى فى يوم الخميس ثانى شوال سنة ١٢٢٧ ، ودفن بمدفنه الذى بناه لنفسه بقرافة المجاورين ، ثم عملت أتباعه وأولاده له مولدا فى ايام مولد الشيخ العفيفى وكتبوا بذلك فرمانا من الباشا .

١٤ - وتولى الشيخ محمد الشنوانى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى عام ١٢٢٧ هـ .

وقد توفى عام ١٢٣٣ هـ (١) . . ولتوليه المشيخة قصة ، هى أنه لما توفى الشيخ الشرقاوى فى السنة المذكورة طلع المشايخ إلى القلعة للباشا بعد وفاته بثلاثة أيام واستأذنوه فيمن يجعلونه شيخا على الازهر، فقال لهم اعملوا رأيكم واختاروا شيخا يكون خاليا عن الاغراض وأنا اقلده ذلك فنزلوا إلى بيوتهم واختلفت آراؤهم ، فالبعض اختار الشيخ المهدى الكبير والبعض اختار الشيخ الشنوانى وامتنع الشيخ الامير عن المشيخة وكذلك ابن الشيخ العروسى ، وكان الشيخ الشنوانى منعزلا عنهم يقرأ دروسه بجامع الفاكهانى وبيده وظائف خدمته وعند فراغه من الدرس يغير ثيابه ويكنسه ويغسل القناديل ويعمرها ويكنس المراحيض فلما بلغه أنهم ذكروه تغيب .. ثم ان الباشا أمر القاضى بهجت افندى أن يجمع المشايخ ويتفقوا على شخص يكون شيخا بالشرط المذكور ، فجمع القاضى أكابر العلماء كالقويسى والفضالى، إلا ابن العروسى والهيثمى والشنوانى فأرسلوا اليهم فحضروا ، ولم يحضر الشنوانى فارسوا اليه رسولا فرجع بورقة ويقول: ان له ثلاثة أيام غائبا عن داره وقال لأهله إن طلبونى فاعطوهم هذه الورقة ، فأخذ القاضى الورقة ففضها وقرأها فإذا فيها بعد البسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : لحضرات مشايخ الاسلام اننا نزلنا عن المشيخة للشيخ بدوى الهيثمى ، فعندذلك قام

(١) ١٦٤ ج ٤ الجبرتى ، ٢٩٤ ج ٤ الجبرتى أيضا ،

الحاضرون قومة واحدة واكثرهم من الشوام وقالوا هولم يثبت له مشيخةحتى ينزل عنها، وقال كبارهم لايكون شيخاً إلامن يفيدالطلبة، فقال القاضي ومن الذي ترضونه؟ فقالوا نرضى الشيخ المهدى، وقام الكل وصالحوه وقرؤا الفاتحة وكتب القاضي اعلاما بذلك، وركب المهدى إلى بيته فى كبكبة وحوله المشايخ والمجاورون وشربوا «الشربات» وهنئوه وانتظروا جواب الاعلام من الباشا فلم يأت، والمدبرون يدبرون شغلهم، وأحضروا الشيخ الشنونى من مصر القديمة وتمموا تدبيرهم،واحضروا الشيخ منصور اليافى ليعيدوه إلى مشيخة الشوام وجمعوا بقية المشايخ آخر الليل وركبوا فى الصباح إلى القلعة فخلع الباشا على الشيخ محمد الشنوانى فروة سمور وقرره شيخاً،وكذلك على السيد منصوراليافى وقرره على رواق الشوام كما كان، وأتى اليه الناس أفواجا يهنئونه بالمشيخة .

١٥ ـ الشيخ محمد العروسي. . وقد تولى المشية بعد الشيخ الشنوانى وتوفى فى عام ١٢٤٥ هـ (١) .

١٦ ـ الشيخ أحمد بن على الدمهوجى .. وتوفى فى ٩ من ذى الحجة عام ١٢٤٦ ، وهو نسبة إلى قرية دمهوج قرب بنها .

١٧ ـ الشيخ حسن بن محمد العطار ، توفى عام ١٢٥٠ هـ

وكان أبوه فقيراً عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا فى صغار شئون الدكان ويعلمه البيع والشراء فاختلف إلى الجامع الأزهر خفية عن أبيه حتى قرأ القرآن وجد فى التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الصبان والشيخ الأمير . ولما دخل الفرنسيون مصر فر إلى الصعيد كجماعة من العلماء . ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية وكان يقول : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ماليس فيها ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة .. ثم ارتحل إلى الشام وكان يقول الشعر دون اهتمام به كما هوعادة كثير من العلماء ، ومن شعره :

انى لأكره فى الزمان ثلاثة ... ما إن لها فى عدها من زائد
قرب البخيل وجاهلا متفاصحا ... لا يستحى وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى ... هذى الثلاثة جمعت فى واحد

وارتحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد إلى مصر وعقد مجلساً

(١) ٢٩٤ / ٤ الجبرتى .

لقراءة تفسير البيضاوى، كان يحضره أكابر المشايخ . وله تآليف كثيرة منها :

١ — حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين .
٢ — حاشية على الأزهرية فى النحو .
٣ — حاشية على مقولات السجاعى .
٤ — حاشية على السمر قندية .

وله رسائل فى الطب ، والتشريح ، والرمل ، والزيارجة وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

١٨ — الشيخ حسن القويسنى نسبة إلى قويسنا توفى سنة ١٢٥٤ هـ ، وكان مع انكفاف بصره مهيباً جدا عند الأمراء وغيرهم .

١٩ — الشيخ أحمد الصائم السفطى نسبة إلى سفط العرفاء قرية جهة الفشن بمديرية المنيا توفى سنة ١٢٦٣ هـ

٢٠ — الشيخ إبراهيم الباجورى من الباجور بمديرية المنوفية توفى سنة ١٢٧٧ هـ ، وكان قويا فى علمه ضعيفاً فى إداراته ، وكان عباس الأول يزوره فى درسه وبعـــد موته بقى الأزهر مدة بلا شيخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وكلاء تحت رياسة الشيخ مصطفى العروسى . وهم : الشيخ العدوى المالكى ، والشيخ الحلبى الحنفى ، والشيخ خليفة الفاشنى ، والشخ مصطفى الصاوى الشافعيان , وكان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشيخ الباجورى وكثرت حوادث الأزهر ، ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ تقلد المشيخة الشيخ العروسى .

٢١ - تقلد الشيخ مصطفى العروسى كأبيه وجده المشيخة إلى عام ١٢٨٧ هـ . ولقد أبطل الشيخ العروسى كثيرا من البدع كالشحاذة بالقرآن وعزم على ادخال الامتحانات بالأزهر ففاجأه العزل من المنصب فنفذ ذلك خلفه .

٢٢ - الشيخ محمد العباسى المهدى الحنفى (١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ) .

حضر فى الأهر ودرس فيه وتولى الافتاء عام ١٢٦٤ هـ وجلس للتدريس فى الأزهر أيضا ، وتولى مشيخة الازهر جامعا بين هذا المنصب ومنصب الافتاء ، ووضع أول قانون لأصلاح الازهر وعزل من المشيخة عام ١٢٩٩ وتولى بدله الشيخ الانبابى وانفرد هو بالإفتاء ، ثم استقال الانبابى فاعيد الشيخ المهدى للمشيخة ، ولكنه استقال بعد مدة فأعيد الشيخ الانبابى شيخا وعين الشيخ محمد البنا مفتيا ، ثم أعيد المترجم له

إلى الافتاء ـ وله الفتاوى المهدية (٦٧ ـ ٨٠ تراجم اعيان القرن الثالث عشر ـ أحمد تيمور) .

وقد عاش الشيخ محمد المهدى الحنفى ـ وهو من شيوخ الأزهر الأجلاء ـ إلى أن توفى عام ١٣١٥ هـ .

وكان المهدى العباسى الحنفى مفتى الديار المصرية ورئيس السادة الحنيفية ، وقد تقلد المشيخة أواخر سنة ١٢٨٧ هـ ، فسار فيها سيرا حسنا ودان له الخاص والعام وزاد الامراء فى تعظيمه ، وهو أول من تقلدها من العلماء الحنفية ، ولما تقلدها قلت على يديه الشرور والمفاسد فى الأزهر وكثرت به المرتبات من النقود والكساوى والجرايات المتجددة ، وصار لاكثر أهل الأزهر مرتبات من المالية وغيرها ، وأثرى كثير منهم بسببه ، وخلعت عليهم الخلع ودعوا فى الجامع الشريفة ، وكان له سير بليغ فى صرف الاستحقاقات والمشى على شروط الواقفين وقوانين الحكام وهو الذى سن امتحان التدريس للعلماء . . وذلك أنه استأذن ولى الأمر فى عمل قانون الامتحان ، واجتمع الرأى بينهم على تعيين ستة لذلك من أكابر العلماء من كل أهل مذهب من المذاهب الثلاثة اثنان ، سوى مذهب ابن حنبل لقلته ، وجعل الامتحان فى احد عشر علما من العلوم المتداولة بالازهر وهى ، الحديث ، والتفسير والاصول ، والتوحيد ، والفقه ، والنحو ، والصرف ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، ومن يريد الامتحان لابد أن يكون قد حضر هذه الفنون بالجامع الأزهر وحضر كبار الكتب مثل : السعد وجمع الجوامع ، ثم يقدم طلبا لشيخ الجامع يذكر فيها أنه يريد الدخول فى حومة العلماء المدرسين وينتظم فى سلك المعلمين ويبين انه حضر كذا وكذا من الفنون وحضر مختصر السعد وابتدأ فى جمع الجوامع مثلا ، فيؤخر الشيخ تلك الرغبة عنده حتى يستخبر عن أحواله ممن يعرف حقيقة أمره ، ثم يكتب للمشايخ باعطاء الشهادة فى حقه بالكتابة فيشهد له جمع من المشايخ اقلهم ثمانية ، ثم يعين له من كل فن درسا ويعطيه ميعادا يطالع فيه كل فن فى يوم وعلى رأس الأحد عشر يوما ينعقد مجلس الامتحان فى بيت شيخ الجامع (وصار ينعقد فى الازهر بالرواق العباسى) ، ويجعل مريد الامتحان بمنزلة الشيخ والممتحنين بمنزلة الطلبة فيدرس وهم يسألونه وهو يجيبهم ولا يحضر فى ذلك المجلس غيرهم فاذا أجاب فى كل فن كتب من الدرجة الاولى ، وإذا أجاب فى أكثر الفنون كتب من الدرجة الثانية ، وإذا أجاب فى الاقل كتب من الدرجة الثالثة ، وإذا

لم يجب لم يؤذن له فى شىء ، ثم تكتب الشهادة لصاحب الدرجة الاولى وترسل إلى الخديوى ، فتكتب له عريضة تشريف متوجة بختم الخديوى تكون معه ، ويخلع عليه فرجية وشريط مقصب يجمله فى عمامته فى موضع التشريفات ويكتب للجهات باحترامه ويخفف عنه فى السفر نصف الاجرة ، وكان قداستحسن أن لا يمتحن فى العام أكثر من ستة ، فاذا تراكمت الطلبات من طالبى الامتحان نظر الشيخ فى موجبات الترجيح كالشهرة بالعالمية أو الوجاهة أو سبق التاريخ أو كبر السن ... فكان هو أولى من سن قانونا لامتحان طلبة الجامع الأزهر ... وولد الشيخ المذكور بالاسكندرية سنة ١٢٤٣ وقدم مصر سنة ١٢٥٥ واشتغل بالعلم فى سنة ١٢٥٦ وتولى الافتاء سنة ١٢٦٤ وكان يحضر فى مقدمة السعد على الشيخ إبراهيم السقا وفيها جلس للتدريس ، ثم تولى المشيخة سنة ١٢٨٧ وانصرف عن المشيخة والافتاء ورجع اليهما مرتين ، ومن مؤلفاته الفتاوى المهدية الشهيرة المستعملة كثيرا فى أيدى القضاة والمفتين ، وكان له من الاولاد اثنان من المدرسين بازهر وارباب المكانة بمصر ، وهما الاستاذ الشيخ محمد أمين والشيخ عبد الخالق .. وتوفى الشيخ ليلة الاربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ ودفن بزاوية الاستاذ الحفنى بقرافة المجاورين ، ورثته العلماء والفضلاء بقصائد شتى قيل فى تاريخ بعضها « جزاؤك يامهدى فى جنة الخلد » ، وقال بعضهم فى مرثية له

عليه دمع الفتاوى بات منحدرا ... وللمحارب حزن ضاق عن حد
فيها المسائل قد باتت تؤرخه ... مات المجيب الامام المقتدى المهدى

٢٣ ـ الشيخ محمد الامبابى الشافعى ، وقد تولى المشيخة عام ١٢٩٩ ، ثم تركها وعاد إليها الشيخ محمد المهدى الحنفى ثانية ، وبقى فيها إلى أن استقال منها فى ١٣٠٤ هـ وتقلدها بعده الشيخ محمد الامبابى ثانية ، وبقى فيها إلى أن استقال منها عام ١٣١٢ هـ .

ولد الشيخ المذكور بالقاهرة سنة ١٢٤٠ وحفظ القرآن الشريف والمتون بالجامع الأزهر ، وفى سنة ١٢٥٣ شرع فى تلقى العلوم فاجتهد فى الطلب وأخذ عن شيخ الاسلام الشيخ البجورى والشيخ إبراهيم السقا والشيخ مصطفى البولاقى وأضرابهم وشغل ليله ونهاره بالمطالعة حتى فاق اقرانه وتمكن تمكنا زائدا ، ودرس فى سنة ١٢٦٧ وقرأ جميع الكتب التى تدرس فى الأزهر ، وكتب عليها تقارير وحواشى . . ومنها تقرير على حاشية العطار على الأزهرية ، وتقرير على حاشية السجاعى على القطر ، وتقرير على حاشية الأمير على شرح الشذور ، وتقرير على حاشية السجاعى على شرح ابن عقيل ، وتقرير على شرح الأشمونى ، وتقرير على التجريد حاشية

مختصر السعد، وتقرير على جمع الجوامع وتقرير على حاشية البجورى على السلم وتقرير على آداب البحث وتقرير على حواشي السمر قندية وتقرير على مختصر السنوسى وحاشية على رسالة الصبان، وحاشية على مقدمة القسطلانى شرح صحيح البخارى، وحاشية على رسالة الدردير فى البيان وتقرير على حاشية البرماوى على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعى .. ومنها فتاوى فقهية، ورسالتان فى البسملة صغرى وكبرى، ورسالتان فى «زيد أسد» صغرى وكبرى ورسالة فى علم الوضع، ورسالة فى «من حفظ حجة على من لم يحفظ» .. وله غير ذلك من التآليف النفيسة، وبالجملة فقد جمع بين العلم والعمل والدنيا والدين، وقد تخرج على يديه كثير ممن تصدروا للتدريس .. والانبابى نسبة إلى انبابة وهى تجاه بولاق مصر من الشاطىء الغربى للنيل ولم يكن الشيخ منها وإنما نسب اليها لكون والده كان منها واشتهر بالنسبة اليها وكان والده من أكبر التجار بالقاهرة، ولما توفى الشيخ حزنت عليه العلماء وأظهرت الأمة الحزن عليه، ورثته الشعراء بقصائد كثيرة .

٢٤ ـ الشيخ حسونة النواوى الحنفى (١٢٥٥ ـ ١٣٤٣)

تعلم فى الأزهر وصار مدرسا فى دار العلوم ومدرسة الادارة (الحقوق)

ثم عين رئيسا لمجلس الأزهر الأعلى عهد الشيخ الانبابى ـ ولما أقيل الشيخ الانبابى عام ١٣١٢ عين المترجم له شيخا للأزهر

وأضيف إليه منصب الافتاء بوفاة الشيخ محمد المهدى العباسى المفتى عام ١٣١٥ وأقيل أول عام ١٣١٧ وأقيم ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخا للأزهر والشيخ محمد عبده مفتيا . وتوفى ابن عمه بعد شهر من ولايته على الأزهر سنة ١٣١٧، فعين الشيخ سليم البشرى شيخا له عام ١٣١٧ ولما أقيل آخر عام ١٣٢٠ ولى الشيخ على البيلاوى على الأزهر، واستقال فى ٩ المحرم عام ١٣٢٣ ، وعين بعده الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخا ثم استقال فى ١٦ ذى الحجة عام ١٣٢٤ ، فعين النواوى شيخا للأزهر للمرة الثانية ، واستقال من المنصب عام ١٣٢٧ ، فأعيد الشيخ سليم للمشيخة ، (٥٦ ـ ٦٣ أعيان القرن الثالث عشر ـ أحمد تيمور)

وسن الشيخ قانونا لأهل الازهر، وفى أواخر مشيخته أسس مجلساً لادارة الازهر بأمر الخديو ، وسن قانونا لاصلاح الازهر .. وكان بعد استعفاء الشيخ الانبابى عن المشيخة تولاها فى سنة ١٣١٢ بأمر الخديوى وكانت جلة أكابر العلماء قدموا التماسا بطلب المشيخة فلم يلتفت الخديو إليهم ، ثم سن قانونا آخر مشتملا على ستة أبواب تشتمل على

اثنين وستين مادة .. ولنذكر بعض أبوابه .

الباب الاول فى الادارة العمومية ، وفيه تشكيل مجلس إدارة الازهر من خمسة أعضاء غير الرئيس منهم ثلاثة من أفاضل علماء الازهر واثنان من العلماء الموظفين بالحكومة وانعقاده على الاقل كل خمسة عشر يوما مرة واختصاصه بتصدير القرارات والقواعد التى يكون بموجبها سير التدريس وضبط الطلبة والاعمال وكل ما له علاقة بالازهر وغير ذلك .

الباب الثانى فى شروط الانتظام فى سلك طلبة الازهر ، ومنه أن لا يعتبر من طلبة العلم فى الازهر إلا من بلغ من السن خمس عشرة سنة على الاقل وأن يكون له دراية بالكتابة والقراءة وأن يكون حافظا لنصف القرآن ، ويتعين حفظ كله على كفيف البصر ، وغير ذلك .

الباب الثالث فى التعليم ، ومنه منع قراءة الحواشى والتقارير منعا باتا فى جميع العلوم فى الاربع سنوات الاول وبعدها تخير الطلبة والاساتذة فى النظر فى الحواشى ، أما التقارير فلا يجوز استعمالها إلا بقرار من مجلس الادارة ، وغير ذلك .

الباب الرابع فى الامتحان ، وفيه انقسام الامتحان إلى قسمين : الاول امتحان شهادة الاهلية لمن أمضى ثمان سنوات فأكثر فى الازهر وحصل ثمانية علوم على الأقل ، ويؤلف لجنة الامتحان من ثلاثة من العلماء تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر ، أما امتحان شهادة العالمية فلمن أمضى اثنتى عشرة سنة ، وتؤلف لجنة الامتحان من ستة من أكابر المدرسين من كل مذهب اثنان والدرجات التى يمنحها الطالب : أولى ، وثانية ، وثالثة .. ثم تكوين مجلس إدارة الأزهر وفى مقدمته صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وكان برئاسة الشيخ حسونه النواوى لإجراء مقتضيات هذا القانون ، فقرر قواعد الانتساب والانتظار والاستحقاق فى الرايات والتدريس والمساحات والعلوم ، وأوجدوا فى الأزهر نهضة علمية عظيمة ، واحضروا للعلوم الرياضية امهر المدرسين ، ووضعوا امتحانا سنويا ، وصرفوا ستمائة جنيه مكافأة للناجحين فى أى فن كان ، وتقدم طلاب الأزهر تقدما كبيرا . . وانضمت للشيخ وظيفة الافتاء سنة ١٣١٥ بعد وفاة الشيخ المهدى بعد مقام وكيلا عنه مدة ، وهو ثانى من جمع بين الافتاء والمشيخة الأزهرية من الحنفية . . وفى مشيخته انشئت المكتبة الأزهرية ، وبنى الرواق العباسى ، واكثر من امتحان طالبى التدريس ، وزيد فى مرتبات

العلماء ومشايخ الأروقة والحارات من الأوقاف ، وصرف عن الافتاء والمشيخة في ٢٥ محرم سنة ١٣١٧ ، وولد الشيخ سنة ١٢٥٥ بنواى قرية من أعمال أسيوط بمركز ملوى وقدم الأزهر وأخذ عن كبار المشايخ وتربى على يده كثير من المدرسين ودرس بجامع القلعة وألف كتابا في الفقه الحنفي يدرس بها .. ومن أولاده الشيخ محمد حسونة من علماء الأزهر .

٢٥ ـ السيد على البيلاوى المالكى (١٢٥١ - ١٣٢٣ ﻫ) حضر فى الأزهر ودرس فيه ، وتولى نظارة دار الكتب عام ١٢٩٩ ﻫ ثم عين شيخا لمسجد الحسين سنة ١٣١١ ﻫ ، وأقيم نقيبا للاشراف عام ١٣١٢ ﻫ .

وعين شيخا للأزهر عام ١٣٢٠ ﻫ بعد استقالة الشيخ سليم البشرى ـ وظل فى المشيخة إلى أن استقال منها أول عام ١٣٢٣ ﻫ (٨١ - ٨٥ أعيان القرن ١٣ - أحمد تيمور) .

٢٦ ـ الشيخ سليم البشرى المالكى ، وظل فيها إلى أن أقيل منها فى ذى الحجة ١٣٢٠ ﻫ ، بسبب حادث مسجد السيدة نفيسة مع حاكم مصر وقتئذ .

ولد الشيخ بمحلة بشر سنة ١٢٤٨ ، وهى قرية من مديرية البحيرة بمركز بلاد الأرز شرق ترعة الخطاطبة بالقطر المصرى ، وقدم إلى مصر بعد ما حفظ القرآن الكريم واشتغل بالعلم على مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وجد فى التحصيل على كبار العلماء كالشيخ البجورى والشيخ عليس واضرابهما حتى مهر ، ودرس فى سنة ١٢٧٢ ، ودرس جميع الكتب المعتادة بالأزهر مرات عديدة وتخرج من درسه كثير من أكابر ومشاهير العلماء المدرسين بالأزهر كالشيخ الفاضل الشيخ محمد راشد أمام المعية والمرحوم الشيخ البسيونى البيبانى والمرحوم الشيخ محمد عرفه ، وغير هؤلاء من افاضل المدرسين بالأزهر ، ولما عين شيخاً للجامع الزينى وكان خالياً من المدرسين رتب نحو السبعة من العلماء للتدريس به منهم من يقرأ الحديث ومنهم من يقرأ الفقه على الاربعة المذاهب ومنهم من يقرأ الاخلاق وغير ذلك ، وطلب لهم مرتبات من الاوقاف ، ورتب لهم ذلك حتى صار ذلك الجامع كانه قطعة من الأزهر ، وفى ١٣٠٥ﻫ صار شيخا للمالكية وكانت قد ألغيت نحو خمس سنوات بعد الشيخ عليش فأحياها الشيخ وقد جمع بين المشيختين ،. ومن تآليفه تحفة الطلاب فى شرح رسالة الآداب ، وحاشيته على رسالة عليس فى التوحيد . وكان ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى من أفاضل العلماء والكتاب ، وتوفى عام ١٩٤٣ .

٢٧ - السيد على محمد البيلاوى المالكى وقد بقى فيها إلى أن استقال منها فى أوائل محرم سنة ١٣٢٣ هـ .

٢٨ - الشيخ عبد الرحمن الشربينى ولى المشيخة فى ١٣ محرم ١٣٢٣ هـ وبقى فيها إلى أن استقال منها فى ذى الحجة ١٣٢٤ هـ .

٢٩ - الشيخ حسونة النواوى للمرة الثانية ، واستقال فى السنة نفسها فتولاها مرة ثانيـة .

٣٠ - الشيخ سليم البشرى ، وتوفى سنة ١٣٣٥ هـ .

٣١ - « محمد أبو الفضل الجيزاوى ولى المشيخة إلى سنة ١٣٤٦ هـ ، ثم خلفه فى ذى الحجة ١٣٤٦ هـ ٢٢ مايو ١٩٢٨ المراغى .

٣٢ - الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ولى المشيخة إلى أن استقال فى سنة ١٣٤٨ هـ اكتوبر سنة ١٩٢٩ .

٣٣ - محمد الاحمدى الظواهرى (المتوفى فى ١٣ مايو سنة ١٩٤٤) ، وقد عزل من المشيخة فى ٢٣ محرم ١٣٥٤ هـ - ٢٦ ابريل ١٩٣٥ .

٣٤ - الشيخ محمد مصطفى المراغى للمرة الثانية .

وظل فى المشيخة الشيخ المراغى رحمه الله . . حتى توفى فى ١٤ رمضان عام ١٣٦٤ هـ - الموافق ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٥ . . وقام بأمر المشيخة بعده الشيخ محمد مأمون الشناوى وكيل الأزهر فى ذلك الحين . . ولما استقال من الوكالة خلفه الشيخ عبد الرحمن حسن فى وكالة الأزهر والاشراف عليه .

٣٥ - ثم عين الشيخ مصطفى عبد الرازق - شيخا للأزهر فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٥ - وظل فيها حتى توفى فى منتصف فبراير عام ١٩٤٧ (١٣٦٤ هـ - ١٣٦٥ هـ)

٣٦ - وعين الشيخ محمد مأمون الشناوى فى المشيخة عام ١٣٦٧ هـ ، ١٨ يناير ١٩٤٨ وظل فيها حتى توفى فى ٢١ من ذى القعدة عام ١٣٦٩ هـ ، ٤ سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وامتاز عهـــده بضعف أثر العصبيات فى الأزهر ، وبالقضاء على الفتن والاضطرابات وبزيادة البعوث الاسلامية الوافدة على الأزهر ، وزيادة العلماء الذين أرسلوا إلى الأقطار الاسلامية ، وبمكانة الأزهر فى المجتمع ، وبإلغاء البغاء وتحديد الخمور وجعل الدين مادة رسمية فى المدارس ، وبارتفاع ميزانية الازهر إلى نحو مليون وثلث ، وبكثرة خريجى الأزهر فى مدارس الحكومة . . وأنشىء فى عهده معهد محمد على بالمنصورة ، ومعهد منوف ، وضم معهد سمنود إلى الأزهر . وكذلك

معهد الفيوم والمنيا . . وقد شيعت جنازته إلى مقرها الأخير يوم الثلاثاء ٥ سبتمبر عام ١٩٥٠ (١) .

٣٧ ـ وعين بعده الشيخ عبد المجيد سليم شيخا للأزهر فى يوم الأحد ٢٦ من ذى الحجة ١٣٦٦ هـ ، ٨ أكتوبر عام ١٩٥٠ ، وظل فى المشيخة إلى أن أعفى منها فى اليوم الرابع من سبتمبر عام ١٩٥١ ، لمناهضته للحكومة القائمة وعدم الاستقرار والهدوء فى الأزهر ، وذلك فى ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ .

٣٨ ـ وأسندت المشيخة ـ إلى الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش .. وفى عهده قامت الحركة الوطنية لمناهضة الانجليز والاستعمار ، وكان للشيخ مواقف مشهودة فى هذه الحركة . . وقد ظل فى المشيخة إلى أن أعفى منها فى اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٩٥٢ .

٣٩ ـ وأسندت المشيخة فى هذا اليوم نفسه إلى الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم للمرة الثانية .. وقد ظل فيها حتى استقال منها فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ (٢) ، وقد توفى عليه رحمة الله فى صباح يوم الخميس ١٠ صفر ١٣٧٤ هـ ـ ٧ أكتوبر عام ١٩٥٤ وكان رحمه الله مثلا كريما فى الغيرة على الازهر واصلاحه ، وترك فيه آثارا كثيرة ، وكانت له شهرة عالمية فى الإلمام بشتى العلوم والمعارف الاسلامية . . وقد ترك فراغا كبيرا لايسد ، كما ترك تلاميذ ومريدين يذكرونه بالخير والاجلال والوفاء .

---

(١) راجع كتابى « الاسلام ومبادئه الخالدة » الذى ترجمت فيه للشيخ العناوى وذكرت فيه الكثير من دراساته الاسلامية .

(٢) نص استقالة الشيخ سليم : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد المجيد سليم شيخ الجامع الازهر إلى السيد الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ، رئيس مجلس الوزراء .. سلام الله عليكم ورحمته . أما بعد ، فقد علمت أن الحكومة لم تر اجابتى إلى مطلبى بشأن المناصب الأزهرية الأربعة ، ولما كنت لاأستطيع القيام بواجبى على النحو الذى أعتقد أنه يرضى ربى إلا بتحقيق ماطلبت ، فإنى أبعث اليكم بهذا الكتاب راجيا ان ترفعوا استقالتى من مشيخة الجامع الازهر إلى مجلس الوصاية المؤقت ، والله أسأل أن يوفقنى وإياكم إلى مافيه الخير للأمة ولدين الله القويم ، والسلام عليكم ورحمة الله ... القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ ـ ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

٤٠ ـ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ عبد المجيد سليم ، وبدأ عمله بإحالة وكيل الازهر الشيخ عبد الرحمن حسن إلى المعاش وتعيين الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ محمد نور الدين الحسن وكيلين ، وبالغاء منصبى السكرتير العام ومدير المعاهد ـ واستمر فى المشيخة إلى أن استقال منها فى اوائل يناير ١٩٥٤

٤١ ـ الأستاذ الاكبر الشيخ عبد الرحمن تاج ، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ محمد الخضر حسين فى يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ - ٨ يناير ١٩٥٤ ، وبدأ عمله بإحالة الوكيلين الشيخ دراز والشيخ نور الدين الحسن إلى المعاش ، وبتخفيض سن الإحالة على المعاش لعلماء الأزهر إلى الخامسة والستين ، وبإحالة أعضاء جماعة كبار العلماء الذين بلغوا هذه السن إلى المعاش كذلك .

والشيخ تاج مولود عام ١٨٩٦ بأسيوط ونال العالمية عام ١٩٢٣ وشهادة التخصص عام ١٩٢٦ ، وسافر عام ١٩٣٦ إلى فرنسا ، حيث عاد منها عام ١٩٤٣ بلقب دكتور ، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء ١٩٥١ م .

الفصـــل الثانى

تراجم لبعض شيوخ الأزهر

الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى

توفى رحمه الله فى ١٣ مايو عام ١٩٤٤ ، وقد تولى المشيخة خمس سنوات كان الأزهريون والشيخ فيها فى نضال مستمر ؛ معما كسب الأزهر فيها من استتباب الدراسة وقوة الروح العلمية .

ولى مشيخة معهد طنطا ، فى سن مبكرة ، وبقى شيخا له ، إلى أن نقل شيخا لمعهد أسيوط ، فى أكتوبر - ١٩٢٣ فأحسن الناس استقباله وراقهم فيه فخامة مظهره ، وفصاحة منطقه ، وسخاء يده . وسرهم أن يروا لشيخ العلماء مهابة خاصة .

ولكن الشيخ فى أسيوط ، لم يكن يفارقه الحزن إلا قليلا ، لأنه نقل إلى أسيوط ، وهو غير راض بنقله ، لذا كان كثير المرض ، كثير السفر قليل الاهتمام . بالحياة .

وله على معهد أسيوط فضل كثير ، إذ نقل الدراسة من المساجد وأنقذ الطلاب من افتراش الحصر ، واستأجر للدراسة قصورا فخمة واسعة ، فى مناطق عامرة . وتنازل للحكومة عن مستشفى الحميات ، وأخذ بدله تلك البقعة التى أقيم عليها المعهد الجديد ، على شاطىء النيل بالحمراء ، سنة ١٩٢٤ . وحينما وضع الحجر الأساسى فى بناء المعهد ، سنة ١٩٣٠ كان الشيخ شيخا للأزهر .

ولما عين الأستاذ المراغى ، شيخا للأزهر سنة ١٩٢٨ وشاع الخبر فى أسيوط ، اتفق أن أصيب الشيخ الأحمدى بمرض شديد ، أثار حوله الأقاويل ، ولكنه شفى منه ، وبعد قليل نقل شيخا لمعهد طنطا ، فى يوليو - ١٩٢٧ .

وفى أكتوبر ١٩٢٩ استقال الشيخ المراغى ، وعين الشيخ الأحمدى ، شيخا للأزهر .

وفى ٢٨ ابريل ١٩٣٥ استقال من وظيفة المشيخة وعين الشيخ المراغى مكانه ... ويقول الدكتور عثمان أمين عنه من كلمة له :

« يرجع اهتمامى بالشيخ الظواهرى إلى ماقرأته عند لأحد المستشرقين ، فى النسخة الفرنسية لدائرة المعارف الاسلامية ، تعريفا بكتاب له عنوانه « العلم والعلماء » نشر بطنطا سنه ١٩٠٤ ، وقد أحببت أن اقتطف من مقال ذلك المستشرق ماترجمته إلى العربية : « إن روح الاخلاص والصفاء التى تظهر فى هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين ، فمابالك بوجودها فى الاسلام الذى دب فيه الجمود ، ومن العجب جدا فى هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الاسلامية والاحساس بفائدة مايأتى من مصادر أخرى . فالمؤلف يرى أنه يجب أن يأخذ المسلمون ليس عن أوربا فحسب ، بل عن الصين واليابان أيضا . ويرى أن من بين المواد التى ينبغى دراستها الدعوة للاسلام ، ويرغب المؤلف فى عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الاسلامية ثم يعين وسائل الثقافة التى تتطلبها لجان من العلماء ، واخراج دائرة معارف ، ونشر التعليم الجامعى بين أفراد الامة ، كما قال إنه يجب تطهير الاسلام من الخزعبلات والعوائق التى تبهظه . والكتاب على كل حال برهان ساطع على عقيدة الكاتب الراسخة وإيمانه بالمثل العليا » .

أغرانى هذا الوصف الذى قرأته فى باريس بالبحث عن الكتاب فى مصر . فلما قرأت الكتاب بنفسى انكشف لى منه أمران : أولهما أن مؤلفه كان من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده : فهو يذكره فى الكتاب صراحة ، وهو ينهج فى التعليم

نهجه ، ويدعو الأزهريين إلى ترسم خطاه ، وثانيهما أن هذا الشاب كان فيلسوفا ناشئا ، وإن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه ، فانه حين تكلم فى كتابه عن الكمال الروحى وعن الصوفية عالج هـذه الأمور بروح فلسفية ، ولعل الفلسفة أخذت سبيلها إلى نفسه ، دون وعى ظاهر منه عن طريق أستاذه محمد عبده .

ويرجع توثق الصلة بين الاستاذ والتلميذ إلى سنه ١٩٠٢ حين تقدم الظواهرى لنيل شهادة العالمية إلى لجنة الامتحان المنعقدة برياسة محمد عبده ، فأجاد فى الاجابة إجادة أعجب بها الاستاذ الامام ، فأثنى عليه على مسمع من الحاضرين ، ويقال إنه طلب له شيئا من شراب الخروب وقال له « لقد فتح الله عليك يا أحمدى ، ووالله إنك أعلم من أبيك ، ولو كان عندى أرقى من الدرجة الاولى لاعطيتك إياها . ولهذه الحادثة نفسها دلالتان : الاولى أنها تشير إلى ذكاء الاحمدى الظواهرى وسعة علمه اللذين اشتهر بهما منذ نشأته ، والثانية أنها تشير إلى ما اتصف به الاستاذ الامام من الانصاف وقوة الاخلاق : فقد كان بينه وبين الشيخ إبراهيم الظواهرى ـ والد الشيخ الاحمدى ـ خلاف فى الرأى والمنازعات ، لان إبراهيم الظواهرى كان من الشيوخ المحافظين الميالين إلى تصديق الكرامات والاعتقاد بقصص المجاذيب والاولياء ، وكان الشيخ محمد عبده يستنكر ذلك ، لكنه لم يتأثر فى حكمه على الابن بما كان بينه وبين أبيه .

وفى مكتبته ذخيرة من العلم المخطوط بيده ، هى مجموعة من مؤلفات كتبها فى شبابه منها « خواص المعقولات فى أصول المنطق وسائر العقليات » و « التفاضل بالفضيلة » و « الوصايا والآداب » و « صفوة الاساليب » و « حكم الحكماء » و « براءة الاسلام من أوهام العوام » و « مقادير الاخلاق » ولكن مخطوطا منها استوقفنى لطرافته ، وعنوانه « الكلمة الاولى فى آداب الفهم » . وقد أراد به أن يكون بمثابة ضابط عقلى أو قانون كلى ، لرفع الخلاف القائم فى كيفية فهم المتأخرين لاقوال المتقدمين من المؤلفين فى العلوم الدينية . وقد جاء فى مقدمة المخطوط : « لقد دعانى داعى الاستكمال والتمسك بأذيال الامتثال إلى مطالعة أسرار الدين للوصول إلى عين اليقين ، والنهوض من مراقد الوهم وظلمات الجهالة إلى مراقى الفهم ونور الحق المبين » . . . « بيد أنه قد تباينت الطرق ، وتنازعت الفرق ، واختلفت أهواء الخلف فى كيفية الوصول إلى مرامى أنظار الاول ، وإصابة الغرض المقصود من عباراتهم ، وتفرقوا شيعا فى تقرير المسائل ، فكانت همة قوم فيما يرجع إلى المعانى

الاصلية ، ومال قوم إلى الخطابة والجدل ، وآخرون إلى التخريج على المعنى البعيد أو التنبيه على احتمال جديد ، وتنافس البعض فى الاستشكال والتغليط ، حتى إنه ليخيل إلى الناظر فى ظرائفهم أن الحقيقة صعبة المنال ، وأن اليقين مطلب محال . . فدفعنى ذلك إلى أن أضع علما شاملا وقانونا جامعا به تستفاد حقائق المعانى من أصداف الكلام ، ويجمع الناظرين على أقوم طريق به يمكن الوصول إلى تمام المعنى بحيث يوقف القارىء البصير فى وقت قصير على كل ما فى الحواشى والتقارير . ويرفع الخلاف القائم فى كيفية الفهم ، ويزيل التشويش والابهام ، ويمكن أهل العلم من الانتصار على جيوش الاوهام » .

وقلما تحمس الظواهرى فى شبابه لاعلاء شأن الازهر وإصلاح المسلمين ، كما يتضح من كتاب « العلم والعلماء » ، فأصابه من جراء ذلك ما أصاب غيره من المصلحين، كما يتضح ذلك من مذكراته التى نشرها ابنه بعنوان « السياسة والأزهر » . ويتبين من الرسالة التى نشرتها مشيخة الأزهر هذا العام لمناسبة المعرض المصرى الأخير أن أكثر ما استحدث من منشآت وما تم من إصلاحات فى الأزهر الحديث كان للظواهرى فيه أثر بارز .. وبمقتضى القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذى صدر فى عهد مشيخته أنشئت الكليات الازهرية الثلاث ، وبمقتضى القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٣٢ الذى صدر فى عهده أيضا نظم التخصص ، وغيرت مناهج التعليم فى الجامعة الأزهرية لكى تتمشى مع التقدم العلمى الحديث . وبذلك دخلت الازهر على يد الظواهرى دراسات لم يكن للازهريين عهد بها من قبل ، كاللغات الأجنبية ، من شرقية وغربية والاقتصاد السياسى والقانون الدولى الخاص ، وأصول القوانين ووسائل الدعوة إلى سبيل الله ، والخطابة والالقاء والمناظرة ، وعلم النفس والتربية البدنية وغيرها ، ويتبين من رسالة مشيخة الازهر أيضا أن الظواهرى قد سبق إلى التفكير فى إيفاد بعوث من الازهر للدعوة للاسلام فى الخارج ، فأوفد بعثتين للصين والحبشة وأنشأ مجلة « نور الاسلام » ، ووضع مشروع الابنية الفخمة للجامعة الازهرية الحديثة ، وقد تمت فى عهده ثلاث من عمائرها الكبرى .

وللشيخ الاحمدى أثر ظاهر فى ميدان آخر نحب أن لا يفوتنا التنويه به هنا . ويتجلى ذلك الاثر فى تقرير محفوظ بوزارة الخارجية المصرية عن المؤتمر الاسلامى الذى دعا إليه الملك ابن سعود ، وعقد فى مكة سنة ١٩٢٦ ، ويتبين منه أن الشيخ الظواهرى استطاع وهو رئيس وفد مصر فى ذلك المؤتمر أن يكون واسطة العقد

بين المؤتمرين ، وأن يكون رسول سلام وتوفيق بين المتنازعين فى موضوع الحرية المذهبية فى أرض الحجاز ، كما استطاع بقوة حجته وإقناعه أن يستصدر من المؤتمرين قرار يصرح على رؤوس الاشهاد بوحدة مصر والسودان . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن عبد الخالق ثروت وزير الخارجية المصرية وقتئذ قال حين علم بنجاح الشيخ الظواهرى فى ذلك المؤتمر : « لم أكن أعلم أن الازهر يخرج سفراء فى السياسة » .

الشيخ محمد مصطفى المراغى

علم من أعلام الفكر الاسلامى المعاصر ، وشخصية نادرة من أشهر الشخصيات الاسلامية فى القرن العشرين . ورجل غريب بين زملائه وأقرانه فى العصر الذى عاش فيه ، وزعيم روحى ألقيت إليه مقاليد الازهر فترة طويلة .

ذلكم هو الشيخ محمد مصطفى المراغى ، تلميذ محمد عبده ، والعالم الازهرى الواسع الافق ، العميق الثقافة ، وقاضى القضاة المصرى فى السودان ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، وشيخ الازهر من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٢٩ م ثم من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥ م (١٣٦٤هـ) حيث وافاه أجله المحتوم .

كان المراغى مثالا نادرا فى الاعتزاز بالنفس ، والشعور بالكرامة ، والايمان بالاصلاح ، وفى عهد توليه مشيخة الازهر ، وضع أساسا قويا لصرح الازهر العلمى برعايته لأقسام الدراسات العليا فيه ، وتشجيعه لطلابها وخريجيها ، وإشرافه على مواسمها العلمية ، ومناقشته لرسائلها . وكان الشيخ المراغى ذا فكرة قوية عن الثقافة الحديثة ، ورغبة حافزة فى صبغ الازهر بصبغتها . وقد عمل على إخراج جيل جديد من العلماء المثقفين بشتى الثقافات ، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، وكانت صلات المراغى بأقطاب المجتمع والسياسة والفكر والادب فى عهده عونا له على بلوغ آماله فى إصلاح الازهر ، وقد جاهد جهادا حثيثا للنهوض بهذه الجامعة الاسلامية الكبرى ، ولبث روح الحياة والاصلاح فيها . وكانت مكانته فى نفوس الجماهير من العلماء والطلاب تساعده على الاصلاح . وكان أكثر الازهريين تقديرا للكفايات من العلماء والطلاب وتشجيعا لها ، كانوا يأخذون عليه تدخله فى السياسة ، وقيام إدارته فى الازهر على العصبية ، ولكن ذلك شىء تافه لا يقاس بجانب ما أحدثه فى الازهر من ثورة وحياة وتجديد .

لقد انتهت بعد المراغي الاجتماعات فى المناسبات الدينية التى كانت تضم الالوف

من القادة والعلماء والطلاب والجماهير . وحوربت وعطلت أقسام الدراسات العليا في الازهر . وساءت أمور الازهر ، وضعف نشاطه العلمي .

استقال رحمه الله من مشيخته الاولى في آخر سبتمبر سنة ١٩٢٩ على أثر تأخر صدور المرسوم الملكي بقانون الازهر الجديد ، وقد حاول رئيس الوزراء آنئذ وهو المرحوم محمد محمود باشا إقناعه بالعدول عنها ، ولكنه لم يقبـــل ، وصدر المرسوم الملكي بتعيين الشيخ الظواهري شيخا للأزهر في أوائل اكتوبر سنة ١٩٢٩ .

وأذكر أنه لما تولى المراغي مشيخة الازهر للمرة الثانية ، استقبله الأزهر استقبالا كريما ، وأقام له حفلة تكريم في يوليو عام ١٩٣٥ بسراي معرض الجيزة بالقاهرة حضرها حشد كبير من الشخصيات الكبيرة ورجال الدين ، ودعى ممثلو طلبة المعاهد الدينية لالقاء كلمات في هذه الحفلة ، وكنت ممثلا لطلاب معهد الزقازيق الديني ، وكان ممثل الاساتذة الاستاذ الكبير الشيخ محمود النواوي وكنت قد أعددت حينئذ كلمة لألقائها في الحفلة ، ولكن عدل عن إلقاء ممثلي المعاهد لكلماتهم ، لضيق الوقت وكثرة الخطباء ، وكان من هذه الكلمة التي أعددتها حينئذ ، وأنا طالب في السنة الرابعة الثانوية بمعهد الزقازيق الديني :

« في هذا اليوم الخالد والحفل الحاشد تتحدث الاجيال عن الازهر الشامخ وشيخه الجديد حديثا ملؤه الاعجاب والاجلال ، لأنه حديث الأرواح ونجوى القلوب . أما الأزهر فهو الأزهر كما يعرفه الخاصة والعامة وكما يعرفه المسلمون في مشارق الارض ومغاربها وكما تعرفه الاجيال الغابرة والأجيال الحاضرة .. هو محط الرحال ، وكعبة الامال ، ومجمع الدين والعلم والأدب ومفخرة مصر والشرق والعرب ، هو قلب الاسلام الخافق ولسانه الناطق ، وعلمه المرفوع ، هو تلك الجامعة العظيمة التي أضفى عليها الزمان ثياب الجلال واسبل عليها الخلود ستور الجمال ، فحفظت للاسلام مكانته ورفعت للدين رايته ومدت على العربية ظلها الممدود ، وحملت لواءها المعقود ، وخرجت أئمة الهدى ومصابيح الحكمة وشعت منها أشعة النور في كل بقعة ومكان ـ فالأزهر هو دعامة الاخلاق وحصن الفضيلة ومفخرة القاهرة وصرح مصر الخالدة ، بل هو معجزة الدهور وآية القرون .. ومادام الأزهر وجود فله رسالة في الحياة تضارع في جلالها رسالة الانبياء ووحي المرسلين ، وان استمدت آيتها من آيتهم ، وهديها من هديهم .

رسالة الأزهر هي العناية بنشر الدين ، والسهر على مصالح المسلمين ، واحياء الأخلاق

الفاضلة، وإقامة المبادىء العادلة التي جاء بها القرآن الكريم، وايقاظ الشرق الراقدمن غفلته، ليكون مهبط الوحي ومبعث النور ومصدر الهداية ورسول الحضارة ، وقائد العالم كما كان الأزهر فى أيامه الماضية .

وإذا كان للأزهر مكانة وجلالة ومهمة ورسالة، فله رئاسة جليلة نصبها الاسلام عنه وكيلا وأقامها الأزهر له كفيلا، فالتفت حولها القلوب ، وشايعتها الأرواح وآوى إليها الخائف والمظلوم والمكروب .

ولقد أدت مشيخة الأزهر للشرق والاسلام خدمات جليلة، فحفظت تراث السالفين وسهرت على تهذيب الناشئين ، وأطفأت نار الشك ببرد اليقين .

ولما ظفر التعليم المدنى فى مصر أقبل عليه الناس وجحدوا ما للازهر من فضل وجميل ، وطفقوا ينعون عليه جهوده ، ويعيبون عليه جموده ، حتى هزمتهم صيحة الاصلاح من رجل الاصلاح الاول حكيم الاسلام وفقيد الشرق المغفور له الامام محمد عبده ، فعارضها المعارضون وسخر منها الجامدون ، ولم يقدرها إلا أفراد قلائل كان من بينهم شاب ذكى وفى نابه اقتفى أثر أستاذه الحكيم ، هو الشيخ المراغى .

وجاء من خطبة فضيلة الأستاذ الشيخ على سرور الزنكلونى فى حفلة تكريم الأستاذ المراغى عام ١٣٥٤ - ٣ يوليو ١٩٣٥ مايلى : «الأزهر كما تحدث عنه التاريخ وكما تصورناه نحن حين رحلنا اليه فى نعومة الأظفار ، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم ، ويحجون اليه لطلب العلم . هو هذه الشخصية الكبرى البارزة فى العالم ، والتى ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين والتى عاشت ألف سنة إلا قليلا ، وهى تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء فى التاريخ، ولولا سر الله الخفى لتلاشى، فهو الذى حفظه ولا يزال يحفظه ويجدد مجده إلى اليوم . . إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذى تحيا عليه علوم الإسلام والقرآن ، وهى أسمى ماتستكمل به النفس الإنسانية قواها . والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصاً لله وحده ، فاذا ألمت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فللهفيه نصيب كبير: دينه، وعلومه . . وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون اليه بنية صادقة ليتفقهوا فى دين الله ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ، لله فيهم النصيب الأوفر ، والله غيور على دينه ، وعلى وحيه . وعلى هذا الشباب الغض الذى يحب الخير ولا يريد

إلا الخير .. ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر وثباته على كثرة ما نزل به من احداث ... ماهي مشيخة الأزهر ؟ لا أريد أن أتعرض إلى مشيخة الأزهر بالنظر إلى ماورثته عن العواصم الاسلامية من خلافة العلم والدين ، ولا إلى ماقامت به من جلائل الأعمال فى عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة فى وجوه الظالمين ، فذلك للتاريخ وحده ، ولكنى أتحدث عنها الآن بالنظر إلى طبيعتها وإلى مايفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد . إن مشيخة الأزهر الكبرى هى التى تقوم بمعونة الاساتذة والطلاب على حراسة الدين واحياء تعاليمه ، فاذا فكر العقل تفكيراً مستقيماً ولم يلتفت إلى زخارف الحياة الكاذبة ، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا فى كنف هذه الرعاية السامية ، لأن شرف الأشياء بشرف غاياتها ، ومشيخة الأزهر تقوم على حراسة مابه تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووظيفة الرسل إذا أديت على وجهها فكلها خير وكلها سعادة ، فاذا تنكب الأزهر الطريق يوماً ، فليس ذلك من طبيعة الدين الذى يقوم على حفظه ، ولا من طبيعة علومه التى هى نور للعقل وقوة للإنسان ، وإنما منشأ هذا التنكب هو القوى التى تتسلط عليه وتوجهه إلى طريقها ، وإذن لا تلوموا الأزهر مادام غير قائم على قدميه بنفسه ، وإنما اللوم على من يملكون أمره ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه ... إن أعدل ميزان تعرفون به الفرق فى كل عصر بين رجل الأزهر القائم على حراسة دين الله وبين عبد الشهوات الجامحة وان تربع بين الأزهريين ونال أكبر مناصبهم أن ترى عزة النفس وخشية الله ماثلتين فى رجل الأزهر خصوصـــا إذا عظمت المحنة واشتد البلاء ، أما عبد الشهوات فتراه دائماً مغموراً بخشية الناس والطمع فيما بأيديهم . وقلب المؤمن الصادق فى إيمانه لا يتسع لخشيتين ، فأظهر مظاهر الإيمان العميق خشية الله وحده إذا اشتد الخطب ، وأظهر مظاهر الايمان الرقيق الذى لا يزن مثقال ذرة أن يخشى صاحبه الناس أشد من خشية الله ، وان كثرت وتفرعت صور عبادته لأنها فى ميزان الدين والعلم ليست أكثر من صور كاذبة تولدها العادة أو الرياء .. ان الحقائق لا يغيرها ولا ينقص من جلالها الذاتى ماقد يطرأ عليها من أمراض وعلل تدفعها يد الشهوة على غفلة من أهلها ، ولهذا يعاقب الله حراس الحقائق أولا فأولا ، بمقدار غفلتهم وإهمالهم ، ثم يكتب النصر لهم فى النهاية إذا ماانتبهوا .. أما المبطلون المفتونون باستشراء الضعف ليتمتعوا بباطلهم فلا يعاقبهم الله أولا فأولا ، وإنما يمهلهم لتتجلى حكمة الله فى قوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » . ان من

الغرور وعدم الانصاف أن يقال: مافائدة الأزهر وأين جلال مشيخته ؟ . وأقوى رد على هذه الغفلة وهذا الغرور أن نقول لأصحابهما: اذن مافائدة علوم الحياة كلها ؟ وهى اليوم تولد الجشع فى قلوب الأمم وتقلبها سباعاً كاسرة وحيوانات مفترسة . . فالدين خير كله والعلم خير كله بمقتضى طبيعتهما فعليهما أن يتنبها إلى من يعمل على تغيير وضعهما ، فاذا حرص الاشرار على أداء وظيفتهم بمقتضى طبعهم ، فحرص الاخيار يجب أن يكون أشد وألزم . . هذا هو الأزهر على ما يجب أن يكون وهذه هى مشيخته كما نفهم عظمتها وجلالها . فاذا ظهرا يوما ما فى غير مكانهما فالمصريون شركاء فى المسئولية أمام الله وأمام التاريخ ، لأن العلماء غير معصومين . والأمم الحية هى التى تقوم على حراسة قواها الطبيعية والمعنوية ، ولا ترتفع المسئولية عن الأمم إلا إذا كانت فى طفولتها أو فى شيخوختها ، وقد أدت الأمة المصرية والحمد لله واجبها نحو مشيخة الأزهر .

وقد ألقى المراغى كلمة فى حفلة تكريمه جاء فيها :

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة فى نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية فى قولهم وفعلهم فى شعرهم ونثرهم ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذى أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم .

ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لى فى صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصى الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذى تجلونه جميعاً ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الاسلامية فى مصر وغيرها من البلاد .

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الاول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة على ماهو أسمى من غرض التكريم .

دل على أن الأزهر خرج عن حالته التى طال أمدها ونهض يشارك الأمة فى الحياة العامة وملابساتها وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد ، وهذه ظاهرة من من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه وعن شعوره بأن فى الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق فى التعليم يجب ان تحتذى ويهتدى بها . ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الازهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره على شرط أن نكتم الامر لئلا ينتبه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة .. والآن تدرس فى كلية أصول الدين الفلسفة

القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات ، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية . ومن الحق علينا ألا ننسى فى هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة ، ويهتدى به علماء الاقطار الاسلامية فى فهم روح الاسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الاخلاق ، ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن فى التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الامام محمد عبده قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة ، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الاول فى هذا الحفل ، فهو مشرق النور وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التى نلجأ اليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير

والازهر كما تعلمون هو البيئة التى يدرس فيها الدين الاسلامى الذى أوجد أمماً من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان لهذا الاثر الضخم فى الارض فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وابنائه واجبات انسانية ، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا فى ادائها وانهم لا يستطيعون اداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف القدامى ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة اليه مما هو متصل بالدين ، أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم وتمكنهم من نشر الثقافة الاسلامية فى البلاد التى لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم ، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طى مراحل السير فى هدوء ونظام وحب وصدق نية وكمال توجه إلى الله وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

وللمسلمين فى الأزهر آمال ، ومن الحق أن يتنبه أهله لها وهى :

أولا — تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الاسلامى وتاريخ الاسلام ورجاله ، وقد كثر

تطلع هذه الأمم إلى الأزهر فى هذه الأيام وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون اليها لأداء أمانة الدين وهى بيانه ونشره .

ثانياً — إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض ، وتاريخها متصل الحلقات، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر ، كما هو الحال فى دراسة الأزهر.. فاذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة دراسة قديمة حديثة ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث وإذ ذاك يكونون أداة تصال جيدة بين الحاضر والماضى ويطلعون العالم على مايبهر الانظار من آثار الاقدمين ، وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت اليه هو الذى يرجى لتحقيق الأمل، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثا — عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل عليه وزيد فيه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا — العمل على ازالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فان الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرقة ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات، وان بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لاترتكز إلا على مايصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن وجعلتها شيعا فى الأصول والفروع ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء بين من يلبسون ثوب الدين، ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه الصحيح ان ولد الشافعى كفء لبنت الحنفى ، ومثل مايرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى حتى ان بعض الطوائف لاتستحى اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين .

إن من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشا للحق مستعدا لقبوله عاطفا على إخوانه فى الانسانية كارهاً للبغضاء والشحناء بين المسلمين .. قد أتهم بأنى تخيلت فخلت ، ولا أبالى بهذه التهمة فى سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر اليها وفضل الله واسع وقدرته شاملة ، وماذلك على الله بعزيز .

والآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين فى الأزهر ، ترون أن العبء الملقى على عاتق الازهر ليس هين الحمل ، فانه فى حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون : إما بالمال أو العقل ، أو بالمعارف والتجارب ، وكل شىء يبذل فى طريق تحقيق هذه الآمال هين ، إذا أنتج الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة» .

ولقد ولد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ فى المراغة من أعمال مديرية جرجا بمصر العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالازهر ، واتصل بالأستاذ الامام محمد عبده فثقف نفسه عليه فى دروس التفسير التى كان يلقيها بالرواق العباسى .

ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٤ ، وكانت سنه إذ ذاك أربعا وعشرين سنة ،وكان بذلك من أصغر الحاصلين على هذه الشهادة يومذاك .

وكان تاريخ دخوله امتحان الشهادة العالمية هو ١٢ ربيع الثانى ١٣٢٢ ﻫ ، وقد أعجب به الأمام محمد عبده إعجابا شديدا .

ولم يكن رحمه الله ، من العاكفين على تناول علوم الأزهر وحدها وإنما كان يضيف اليها مايشعر به هو نحو العلم من احتياجات ، شأن الشبان الفائقين ، فلقد أخــذ دراساته الشخصية ، من بطون الكتب ، ومن منابعها الأصيلة فى المخطوطات والهوامش والمتون .. كما كان عاكفا على دراسة الادب ، ودراسة الفلسفة وعلم الكلام ، وما ذلك إلا استجابة منه الوقوف على روح الثقافة ، ولذلك فقد نشأ صاحب عقلية مرنة مبسوطة ، تمضى إلى الدقائق وما يخفى امره على الكثيرين .

ولا جرم بعد ذلك أن يشيع اسمه بين الطلبة الذين أقبلوا حول حلقته بالجامع الأزهر ، وهو يلقى عليهم الدروس بعد تخرجه ، بطريقة جديدة ، كان هدفها البحث عن الحقيقة ، ووسيلتها التعريج بعقلية السامع إلى فنون الأدب وأشتات الفلسفة وأمشاج الكلام .

ورشح بعد لمنصب كبير ، هو منصب القضاء لمديرية دنقلة فى السودان ، ذلك المنصب الذى ساعده على تسلق الحواجز السياسية ، واعلاء شأن كلمة الدين والحق بين الشمال والجنوب ، فتتلمذ عليه الكثيرون من أبناء الجنوب ، بعد أن استساغوا لذة الوطنية الاسلامية من شروح الشيخ الجليل لقضايا الوطن بين خلصائه وصفوة تلاميذه فى السودان ، وكان يعنى بذلك المسلك أن رجل الدين انما هو من رجال السياسة يدلى بدلوه فيها دون انغماس ، حتى يكون القائد إلى تحقيق الوطنية الاسلامية ، وفقا لتعاليم الدين ، لا انحيازا إلى المعتقدات السياسية .

لقد كان الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ يعرف رسالة رجل الدين تماما ، وهى رسالة العالم الذى يعمل للحياة كلها ، وللوطن الاسلامى كله ، فلا يصدر رأيا إلا إذا كان الرأى لبنة فى بناء هذا الوطن الكبير .. ومن ذلك ، أن سلاطين باشا يوم أن عرض عليه قبول منصب قاضى قضاة السودان ـ قبل أن يتولى منصب رئيس المحكمة الشرعية العليا ـ اشترط لقبول المنصب أن يكون تعيينه فيه بأمر يصدره خديو مصر ، لا رجال السلطة الانجليزية فى السودان .

وفى عام ١٩٢٣ عين رئيسا للمحكمة العليا الشرعية ، فواجه بمنصبه ذلك تلك الحوائل التى تمنى أن يقضى عليها بالمحاكم

وكانت المحاكم الشرعية فى ذلك الوقت تحكم فى قضايا الزواج والطلاق وسائر الاحوال الشخصية ، وفق القول الراجح من مذهب أبى حنيفة .

ولما كانت هناك أحكام أخرى تحقق التيسير على المتقاضين ، فقد رأى أن يؤخذ بهذه الاحكام ، وأن يعدل قانون المحاكم الشرعية .

وكان من رأيه الأخذ برأى ابن تيمية ومحمد بن القيم الجوزية فى جعل الطلاق الثلاث فى لفظ واحد طلقة واحدة ، وما كاد يجهر بهذا الرأى فى مشروع أعده ، حتى استهدف لحملة عنيفة من بعض العلماء ورجال القضاء الشرعى .

ولكن تاريخه فى العلم ، والدراسة ، وتشربه من روح الامام الاكبر الشيخ محمد عبده مكنته من الثبات للمعركة ، والعمل على تيسير القضاء ، وتم له ما أراد .

ولعل ما كتبه فى الرد على العلماء الذين تناقشوا معه فى تيسير تعاليم الاسلام فى المحاكم الشرعية مما يشرح عقلية الرجل المبسوطة فى ثقافة الاسلام الممدودة فى بطون أسفار العلوم الاسلامية ، قال رحمه الله :

أثار مشروع قانون الزواج والطلاق حركة فكرية اجتماعية دينية، فنشط العلماء للبحث والاستنباط والرجوع إلى كتب الشريعة المطهرة، وتطبيقها على القانون، ونشط غيرهم إلى بحثه من الوجهة الاجتماعية، وما لنا لا نغتبط بهذا، وقد تستمر هذه الحركة، ويتجدد نشاط الفقه الاسلامى بعد ركوده فى المتون والشروح، وتتجه اليه الانظار وتتولد فكرة تهذيبه باختيار ماصح دليله وما قام البرهان على أن فيه مصلحة للناس من أقوال أئمة الهدى وفقهاء الاسلام.

وقد يقضى على تلك الفكرة الخاطئة فكرة وجوب تقليد الائمة الاربعة دون سواهم سواء أوافقت مذاهبهم أم خالفتها مصلحة المجتمع.

أما جهوده فى إصلاح الازهر والعناية باعادة سالف مجده اليه كأقدم جامعة فى التاريخ، والجامعة الكبرى التى قامت على حفظ التراث الاسلامى ولغة القرآن لحديث معاد.. ويقول فيه الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم:

« لقد كان المراغى ذا فطرة سليمة صافية، يمدها ذكاء شديد، واستعداد طيب، وكان مما أفاده وخرجه تخريجا قويا تلمذته على الرجلين العظيمين المغفور لهما الشيخ أحمد أبى خطوة والشيخ محمد عبده، فمنهما اكتسب الاستقلال فى التفكير والميل إلى الحرية، والقصد فى الاعتقاد بما يراه أهل التقليد، وكان له مع هذا كله قدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، فى لفظ رائق وأسلوب قوى وبيان فصيح، وهذا هو السر فى أنه ظهر بين شيوخ الأزهر مبرزا قويا، مجلجلا مدويا، وإن لم يكن أكثر علما من الشيخ أبى الفضل ولا من الشيخ الشربينى.

إن العلم كسائر ما وهبه الله للناس، منه مبارك فيه، يجل به النفع، ويسرى من صاحبه إلى غيره سهلا مفيدا، ومنه ما ليس كذلك، وليست العبرة على كل حال بالقلة أو الكثرة، وقد كان المغفور له الشيخ المراغى كالمغفور له الأستاذ الامام الشيخ عبده من أصحاب العلم النافع المبارك فيه.. ثم قال:

لقد كنت أنا والشيخ المراغى صديقين حميمين، كلانا يحب صاحبه، ويقدر فيه مواهبه، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة، مرت بها عهود، وأعمال مختلفة اشتركنا فيها، ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد لأى من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الأزهريين وغيرهم، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله إلى ناحية السياسة الحزبية وشدة نفورى من ذلك، فانى أرى أن الخير

كل الخير فى أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية ، وينأوا عن مكايد الحزبية ومتاعبها التى تفضى إلى ما لا يحمد من العواقب ، ولكن هذا الخلاف لم يخرج بى ولا به عن الجادة ، وما ينبغى أن يكون عليه أهل العلم من المودة والنصيحة ، فكنت أبدى له ودى ونصحى ، وأنقد مع ذلك بعض تصرفاته التى أرى أن مبعثها غالبا هو ذاك ، وكان يتقبل ودى ، ويبادلنى إياه ، ويعتذر عن عدم مشاطرتى الرأى فيما أنقده فيه ، أو يبدى من المبررات ما يراه لفعله . وعلى كل حال لم يكن هـــذا الخلاف بالذى يقطع ما بيننا من محبة وتعاون ، بل كان خلاف الشرفاء والحمد لله .

لقد كان رحمه الله فى عهد مشيخته الأولى مؤيدا تمام التأييد ، وكنت معجبا بآرائه وأفكاره الاصلاحية وطريقته فى الادارة ، وتركيزه قواه وما آتاه الله من مواهب فى الأزهر وإصلاح شأنه ، ولقدكنت أعاونه معاونةقوية ، وقد ظللت أقوم على رياسة قسم التخصص وأنا فى منصب الافتاء مدة طويلة ، أشرفت فيها على تخريج مئات من العلماء الأقوياء الذين يحملون الآن على عواتقهم أهم أعباء الأزهر ، وكنت أشترك معه فى كثير من اللجان العلمية : كلجنة الاحوال الشخصية ولجنة مناقشة الرسائل العلمية التى كان يتقدم بها طلاب شهادة العالمية من درجة أستاذ ، وقد كانت هذه اللجنة تعقد أحيانا فى الرواق العباسى ، ويشهدها — والمناقشات العلمية على أتم ما تكون قوة ودقة — علماء الازهر وطلابه والراغبون فى العلم والبحث من غير الازهريين .. وكم كان يتجلى فى هذه المناقشات الحرة ذكاء الشيخ المراغى وعلمه وقوة تفكيره وإخلاصه للفكرة العلمية وحرصه على تبين الحق ، وضرب المثل لأبناء الازهر فى تقبله والنزول على حكمه .

وكتب الاستاذ محمد فريد وجدى بمناسبة وفاته يقول : رزئت أسرة العلم فى العالم الاسلامى كله بوفاة عميدها ، غير مدافع ، الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر ، فلا نقول : كان لها أثر بالغ فى النفوس ، ولكننا نقول : إنها كانت كارثة على الجهود النبيلة التى يبذلها العارفون بأمور الازهر ، ويعملون على إحلاله المكانة التى تناسب عظمة الاسلام ، وتمثله على حقيقته فى نظر العالم . نعم إن البذر الذى وضعه رحمه الله ، لينتج هذا الاثر الفخم ، بطىء النمو ، ولكنه

هو الدواء الوحيد لداء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها . ألسنا نعنى باصلاح الازهر ترتيب الدروس فى أوقاتها ، وتوزيع مقررات الدراسات عليها ، وتعيين المدرسين الاكفاء لتدريسها ، ومراعاة كفاياتهم فى تحديد مرتباتهم ، كل هذه الشؤن أعراض لا تمت إلى اللباب فى شىء ، وإنما إصلاحه الصحيح ينحصر فى أن يصبح جهة دينية يسندها العلم وتؤيدها الفلسفة ، بحيث يتفق ذلك وحقيقة الاسلام ومعناه ، ولا يدع فى صدر مستشكل اعتراضا بأن الازهر يمثل عهدا لا يمت إليه اليوم أحد بسبب . هذا الاصلاح، إن لم يصل إليه الأزهر فى يوم من الايام ، فى غير تطرف ولا تعسف ، تلمس المسلمون ما يمثل مطالب روحهم فى مكان آخر ، أو — وهو الأرجح — اندفعوا فى تيار الفلسفة المادية لا يلوون على شىء ، على مثال غيرهم من الامم الاخرى . إن الشيخ المراغى كان يجيد فهم هذه الناحية من نفسية المعاصرين ، وكان يعمل فى سبيل الوصول إلى ما أشرنا إليه فى تؤدة ورفق ، صابرا على ما يحتوش هذه التؤدة، مما يخيل أنها الوقوف بل القهقرى بل الانحلال الذريع ، والحقيقة كانت غير ذلك لمن يتأملها تحت ضوء النظر البعيد ، والتفكير العميق فى مستقبل العقيدة الاسلامية .

كان المراغى يعلم أن العالم المتمدن اليوم انتهى إلى حد من عقائده ، أملته عليه فلسفة بوخنر وهايكل ومولاخوت الخ . وأن العالم الاسلامى يترسم خطواته شبرا بشبر ، مدفوعا بطبيعة الدراسات العلمية التى لا بد له منها ، وكان يعلم أن الازهر فى حالته التى هو عليها لا يصلح أن يقف حائلا دون هذا التطور ، وأنه لا بد له من انقلاب ذريع يطرا عليه ليصبح جدرا بالمهمة التى أرادها مؤسسوه منه فى كل عهد فماذا يفعل ؟ وليس بين يديه ممن يحسبون بهذا الخطر سوى عدد نزر ، لا يكفون لاحداث انتقال خطير ، يتأدى به إلى غرضه بالسرعة المرجوة ؟

اضطر لان يسير وئيدا ، والسير الوئيد فى مثل هذا العهد جريمة . فماذا يعمل والأحوال حوله تجرى فى تيار معاكس ؟ وكثيرا ما رأى أن الأولى به التخلى عن وظيفته ، لولا أن الشعب كان يرى أن ليس لهذه المهمة العالمية غيره فيتمسك به .

فالذى يهم العارفين اليوم أن يخلف المراغى من يشاركه فى هذا الشعور ويجرى على سنته فيه ، مشجعا العوامل التى تكسب الاسلام المظهر الذى صورناه

فى مقدمة هذه الكلمة ، ولا شيء ينتج هذا الأثر أكثر من تشجيع الارساليات إلى أوروبا ، والاستكثار من خريجيها فى كليات الأزهر ، وكل مانطلبه أن ينتخب الذين يرسلون إلى أوروبا من ذوى العقليات الواسعة ، ومن الذين لايحجب عنهم الحقائق مايسدل عليها من حجب مهلهلة ، والذين يعرف عنهم ميل إلى للترقى العقلى ، وعدم الجمود على الوراثة . وهذه الناحية فى المراغى كانت أظهر مافيه ، وهى أكرم جميع نواحيه ، وأحقها بالاحترام ، لأن ثمرتها تمثيل الاسلام دينا يصح أن تعتصم العقلية العصرية بحماه من وخزات الشكوك والريب ، فى عهد الفلسفة الحسية .

فان كانت الثمرة المرجوة لما تنضج ، ومظاهرها غير مشجعة ، فانها لامحالة ستصل إلى حالة النضج ، إذا صادفت من يسلك طريقة الشيخ الراحل .

توفى رحمه الله فى ليل الثلاثاء بمستشفى المؤاساة فجاة ، وكان أوى اليه ليستجم ، فأبلغ الأمر إلى ولى الأمر فزار المستشفى وقرأ له الفاتحة ، وكان لوفاته أثر مؤلم فى نفوس الناس كافة ، وخاصة فى نفوس الذين كانوا ينتظرون أن يظهر الأزهر على يديه بمظهره الجديد .

الشيخ مصطفى عبد الرازق

ولد رحمه الله عام ١٨٨٥م بابى جرج من أعمال مديرية المنيا ، وهو الابن الثانى من أولاد المرحوم حسن عبد الرازق باشا ، وبعد أن أتم تعليمه الاولى حفظ القرآن الكريم وجوده ، ثم التحق لطلب العلم بالازهر الشريف وتخرج فى سنة ١٩٠٦ وحصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى بين زملائه الشافعية . وعين للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ، وفى سنة ١٩٠٩ سافر إلى فرنسا والتحق بجامعة السربون ليضم إلى ثقافة الشرق ثقافة الغرب وندبه مسيو لابيير لتدريس بعض المباحث الاسلامية بجامعة ليون ، ثم عاد من فرنسا فى أوائل الحرب الكبرى وعين سكرتيرا لمجلس الأزهر وكان ذلك فى سنة ١٩١٦ وفى سنة ١٩٢١ عين مفتشا فى المحاكم الشرعية ، ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذ للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وظل فى كرسى الأستاذية حتى اختير فى سنة ١٩٣٨ وزيرا للاوقاف فى وزارة المغفور له محمد محمود باشا الثانية واختير عدة مرات فى وزارات مختلفة لتولى هذا المنصب حتى انتقل المغفور له الشيخ المراغى شيخ الأزهر إلى جوار ربه ، فاختير لهذا المنصب وهو وزير الاوقاف وصدر الأمر الملكى بتعيينه شيخاً للأزهر فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وظل فى هذا المنصب حتى لقى الرفيق الأعلى

ثم اختير أمير للحج فى العام الذى توفى فيه ، فكان خير مبعوث لمصر بين أبناء البلاد الاسلامية عند البيت الحرام . ويقول عنه الأستاذ محمد فريد وجدى حين وفاته :

انتقـــل إلى عالم الأرواح الخالدة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق ، شيخ الجامع الأزهر ، وهو أصح مايكون جسما وعقلا ، فكان لهذه الفجاءة أثر فى النفوس لم نشهد مثله لأحد قبله ؛ لأن الناس كانوا أحوج مايكونون إلى مثله فى هذا العهد من الانتقال ، وفى هذا الدور من الاعتراك بين القديم الحديث ، وكان الاستاذ بشخصيته الممتازة ، وسعة أفقه الثقافى خير من يدرك آثار هذا العهد فى حياة الامم ، وأصلح من يوكل اليه أمر التوفيق بينهما لمصلحة الدين والدنيا معا . فلا غرو إن ساور الهلع كل نفس تنتظر عهد الاستقرار والهدوء والتقدم . لم أر فيمن قابلت من القادة والاعلين أكرم خلقا فى غير استكانة ، ولا أهدأ نفسا فى غير وهن ، ولا أكثر بشاشة فى غير رخوة ، من الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكل ذلك إلى حزم لايعتوره لوث ، واحتياط لايشوبه تنطع ، وأناة لايفسدها فتور ، وإدمان على العمل ينسى معها نفسه ، وهى صفات كبار القادة . وعلية المصلحين ، ممن خلقوا لمعالجة الشئون المعقدة ، وحسم المنازعات الشائكة ، والتوفيق بين المطالب المتنافرة ، وهذه مواقف كما تقتضى مضاء العزيمة ، تحتاج إلى هوادة الاناة ، وكما تستدعى سرعة البت ، لا بد لها من القدرة على إزالة الحوائل ، وقديما قالوا : رب عجلة أورثت ريثا ، ورب إقدام جر إلى نكوص ، فكان بما حباه به بارئه من هذه المواهب النادرة ، كفاء المهمة التى وفق المسئولون فى إسنادها اليه ، وكنت لا أشك فى أنه بما جبل عليه من حب الإصلاح ، وما اتصف به من الصفات التى سردناها آنفا ، سيصل إلى حل مشكلة الازهر حلا حاسما ، يعيش تحت نظامه آمنا شر العوادى ، وفى منجاة من عوامل القلق والاضـــطراب . ذلك أنه بما تضلع من إلمام بنظم الجامعات ، وما حصل من علم بمقوماتها وحاجاتها ؛ لتضيته فى صميمها سنين طوالا من حياته طالبا ومدرسا ، يعرف من أسرار حياتها وبقائها وبواعث عللها وأعراضها ، مالا يعلمه إلا الاقلون ، والازهر لايخرج عن جامعة قديمة فى دور انتقال ، تتفاعل لتناسب والعهد الذى تعيش فيه ، فهى فى حاجة الى أن تحصل على المقومات التى تواتيها بهذا التناسب ، وهو لاينحصر فى زيادة ميزانيتها ، ولا فى تهذيب برامج دراستها ، ولكنه يتعداها إلى ماهو إيجاد المجال الحيوى لخريجها . وهو أمر

لا يستطاع حله إلا بعد تمهيد الطريق اليه ، ورفع العقبات دونه ، والشيخ الراحل لما اتصف به من بعد النظر ، وتخير الظروف ، كان أجدر الناس باصابة هذا الغرض البعيد ، ولكن الله آثر له الدار الآخرة ، فكان ما أراد ، وترك الامر لمن بخلفه ، ولله فى ذلك حكمة ، وهو يتولى الصالحين .

ولد فقيدنا أجزل الله ثوابه فى قرية أبى جرج بمديرية المنيا سنة (١٣٠٤) ه الموافقة لسنة (١٨٨٥) م وتلقى التعليم الاولى فيها ، ثم بعث به والده إلى الازهر فلبث فيه اثنتى عشرة سنة . ولما نال درجة العالمية فيه أسندت اليه مهمة التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى . ثم رأى أن الأولى به أن يتم ثقافته بالمعارف الغربية ، فأم باريس ، والتحق بجامعة (السوربون) المشهورة ونال إجازة فى الأدب الفرنسى والفلسفة ، وانتقل من السوربون إلى معهد الدراسات الاجتماعية العليا لينال حظا من معارفها . ثم دعاه الأستاذ لامبير إلى ليون ليلقى محاضرات فى الشريعة الاسلامية، ويقوم بتدريس اللغة العربية هناك ، فلم تمنعه هذه الاعمال من متابعة دراساته فى الفلسفة والادب الفرنسى . وفى هذه الاثناء تتلمذ للأستاذ جوبلو ، الذى كان مرجع علم المنطق فى فرنسا إذ ذاك ، ولما عاد إلى مصر سنة ١٩١٦ ، عين سكرتيرا لمجلس الازهر الاعلى ، ثم مفتشا للمحاكم الشرعية سنة ١٩٢١ . وفى سنة ١٩٢٧ عين أستاذا للمنطق والفلسفة الاسلامية بجامعة فؤاد ، واليه يرجع الفضل فى إحياء المصطلحات العربية القديمة واستعمالها فى تعليم فروع الفلسفة .

ومما هو جدير بالذكر أن جميع مدرسى الفلسفة فى عهدنا الحاضر بجامعتى فؤاد والاسكندرية من تلاميذه ، ولم تنقطع صلتهم به ، وقد أسندت اليه وزارة الأوقاف مرتين ، ولما توفى الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وعز وجود من يملأ مكانه ، أسندت المشيخة إليه فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

ومن مؤلفاته العديدة :

١ ـ ترجمة فرنسية لرسالة التوحيد تأليف الشيخ محمد عبده ، وضعها بالاشتراك مع الأستاذ ميشيل ، وحلاها هو بمقدمة طويلة .

٢ ـ رسائل صغيرة بالفرنسية عن المرحوم الأثرى الكبير بهجت بك ، وعن معنى الاسلام ومعنى الدين فى الاسلام .

٣ ـ كتاب التمهيد لتاريخ الفلسفة ا

٤ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثانى . لاسلامية .

٥ ـ الدين والوحي في الاسلام .

٦ ـ الامام الشافعي .

٧ ـ الامام محمد عبده ، وهو مجموع محاضرات ألقيت في الجامعة الشعبية سنة ١٩١٩ . . . وكلها مؤلفات تعتبر غاية في الإفادة .

وله كتب لم تنشر ، منها مؤلف كبير في المنطق ، وكتاب في التصوف ، وفصول في الأدب تقع في مجلدين كبيرين . وكان رئيسا لمجلس إدارة الجمعية الخيرية ، التي كان والده من مؤسسيها ، وكان عضوا في مجمع اللغة العربية ، والمجمع العلمي المصري .

وفي ٢٧ مارس عام ١٩٤٧ أقيمت حفلة لتأبينه في جامعة فؤاد الأول ، ألقى فيها لطفي السيد وعبد العزيز فهمي والدكتور حسين هيكل ومنصور فهمي وإبراهيم دسوقي أباظة وطه حسين وامين الخولي والعقاد وسواهم كلمات وقصائد في الاشادة بمناقبه . وألقى الشيخ محمد عبد اللطيف دراز في الحفلة كلمة جاء فيها :

عرفت مصطفى عبدالرازق سكرتيراً عاما لمجلس الازهر الاعلى ، وعرفته موظفا في وزارة العدل بعد إبعاده عن الازهر بسبب موقف وطني كريم ، وعرفته أستاذا في الجامعة ، ووزيرا ، وشيخا للجامع الازهر ، وخالطته أطول مخالطة ، وخبرته أشد الخبرة في كل ما ينبغي أن يعرف صديق عن صديق ، وأخ عن أخ ، فاشهد ما تقلب به دهر ، ولا حاد عن عهد ، ولا زال عنه من خلق الرجال ما يزول عن المسترجلين والمتعاظمين ، إذا دالت الدولة ونبا الزمان وتقطعت بهم الاسباب ، فهو واض وإن سخط غيره ، وهو سمح وإن تعسر الزمان .

كان مصطفى عبد الرازق مثقفا ، ولكن أية ثقافة هي ؟ هي الثقافة الاسلامية التي أفنى العمر في تصويرها والدعوة إليها ، وحمل الامة عليها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد مصطفى المراغي وغيرهم من قادة النهضة وأئمة الاسلام في عصرنا القريب . كان هو المثال الذي تمثلت فيه هذه الثقافة الحية الناهضة الجامعة بين خير ما في الشرق وخير ما في الغرب من تراث الاسلام الطاهر ، وثمرة العقول الناضجة ، وبهذا نعلم مقدار خسارتنا وخسارة الازهر والاسلام بفقد هذا الرجل . كان مصطفى عبدالرازق مؤمنا ، وإيمانه هو الذي كون له

هذه النفس القوية العظيمة ، فان الثقافة وحدها لاتصنع النفوس ، فنحن نرى بعض المثقفين يتخذون من ثقافتهم طريقاً لمجرد كسب العيش ، وهي في البعض الآخر طريق إلى الشرور والمآثم والفتن ، تشقى ولا تسعد ، وتدمر ولا تعمر ، وتهلك الحرث والنسل ، ويبغي بها الناس بعضهم على بعض ، ويسعون بها في الأرض فساداً ، فما أبعد الفرق بين هذه الثقافة وبين كرائم الإيمان ! . تلك مادية صرف ، وليس من هذا فقط كان فسادها فقد تنفع المادة وتصلح ، ولكن فسادها كان من أن الشيطان تولى زمامها فصرفها عن غايتها المثلى وأركسها في الشهوات والأهواء . أما مواهب الايمان فهي نفحات قدسية تملأ القلب هداية ونورا ، وسكينة وثباتا ، وأمنا وسلاما ، ومحبة ورضا ، وأملا في الله ومراقبة له ، وعملا لوجه ربك ذي الجلال والاكرام . وهـــذه هي السعادة التي جاء بها المرسلون وجاهد في سبيلها المصلحون ، وسعد بها المؤمنون ، فاذا هيء لنفس طيبة نبيلة أن تجمع بين هبة الدين الحق والعلم الصحيح ، فقد أشرقت بنور على نور ، ونور الايمان بالله يملأ القلب ، ونور العلم يهتدي به العقل في الوصول إلى الحق . وكذلك كان فضل الله ونعمته على فقيدنا الكريم عليه رحمة الله : جمع الله له من خير مايحمد لعباده الصالحين . فمنحه سلامة الفطرة ، فكان من أسلم الناس نفسا ، ومنحه سداد العقيدة فكان من أنفذ الناس بصيرة في الدين ، ومن أشدهم استمساكا به واعتصاما بهديه ، ومنحه العلم الصحيح والمعرفة الواسعة فكان من أجمع الناس لعلوم الشرق والغرب ، تمثلهما عن خبرة ودراية وإمامة ، وهو بهذا من الأمثلة الكاملة في الشرق للثقافة الاسلامية الكاملة . فاذا أراد الأزهر مثالا أعلى لأبنائه وإذا أراد الأزهر مثالا أعلى لشيوخه ورؤسائه، فإن مصطفى عبـــد الرازق هو المثل الذي يعز نظيره ويندر وجوده .

وهل هناك أدلة على بنوته الأصيلة للأزهر من أن ثقافته الحديثة لم تحل بينه وبين أزهريته في جميع مراحل حياته ، وبقي ابناً للأزهر في روحه وعمله وفي وفائه لأصدقائه ؟ وقد بالغ في التمسك بأزهريته إلى حد أنه وقد تقلد منصب الوزارة لم يستطع أن يغير زيه الأزهري وقد قبل منه ذلك على روى . وهل هناك دليل على تأصل الروح الازهري في نفسه أظهر من هذا ؟ إن الطلبة الازهريين الآن يحاولون أن يخلعوا أزياءهم ليبرزوا في صورة أخرى زعموا أنها هي الموافقة لروح العصر ، فكيف نقول في رجل سافر إلى أوربا وتولى من المناصب وخالط من الاشخاص والهيئات والبيئات ماكان يلح في دعائه إلى تغيير زيه فلم يجد منه ذلك كله إلا إباء

وامتناعا واعتصاما بكل مايدل على أنه ابن الأزهر ؟ ومسألة الزى عندنا مسألة شكلية ، ولكنى قصدت أن أشير إلى مظهر للأزهرية الأصيلة فى نفس مصطفى عبد الرازق، وهذه الأزهرية الصحيحة هى التى مكنت له أن يجمع بين ثقافة الشرق والغرب فلم يختلفا عليه ، ولم يستعص عليه أمرهما كما استعصى على غيره . وإذا تحدث متحدث عن مصطفى عبد الرازق فلن يستطيع أن يغفل الحديث عن سماحة نفسه وعطفه على المحتاجين ، وإن كان حديثه معادا ، لأن فى تكرار هذا الحديث متعة لنفس المتحدث ونفوس السامعين ، يعرف هذه السماحة كل موطن من المواطن التى عاش فيها الفقيد موظفا وغير موظف ، فى الجامعة وفى الأزهر ، يعرف الطلبة الذين كاد الفقر أن يحول بينهم وبين غايتهم ، فكان مصطفى عبـــد الرازق هو الذى يكفيهم ، وهو الذى يفرج عنهم — بفضل الله عليهم وعليه — هذه الشدة ، وتعرفه عائلات فقيرة أخنى عليها الدهر ، فكان مصطفى عبد الرازق غوثها ومددها وعائلها ، يخفى ذلك عن الناس ، ولو استطاع لاخفاه عن نفسه ، حتى لا تعرف شماله ما تنفق يمينه .

وفى مارس عام ١٩٤٧ أيضا أقام معهد المنيا الدينى حفلة تأبين للمغفور له الاستاذ الاكبر الراحل ، ألقى فيها صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون خطبة بليغة جاء فيها : لجع الازهر فى شيخه فجأة ، فكانت صدمة الفجيعة فيه شديدة ، صدمة روعت القلوب ، وأذهلت النفوس ، وأدهشت العقول . وقعت الواقعة فى وقت كان الازهر يستشرف بواكير أعمال شيخه الجليل وإصلاحاته التى وضع أسسها فى أيامه القليلة التى قضاها بين ربوعه .. إن الشيخ مصطفى كان يحمل على أطواء قلبه النابض بالخير للأزهر والاسلام بنود العمل المجيد ، والنهضة الصالحة للجامعة الأزهرية بما يكفل لها الحياة الازهرية القيمة ، والمستوى الرفيع بين جامعات الأمم المتحضرة . وكان طموحه وهدفه أن ييسر للأزهر النهوض برسالته الدينية والجماعية ، ونشر السلام والطمأنينة فى هذا العالم المملوء بالشرور والقلق الروحى .

كان يجمعنا اليه ويضع الاقتراح فى مسألة معينة من مسائل الإصلاح فى الازهر، ونتداول الرأى فيها ويدلى هو برأيه كالمستفهم ، وفى النهاية يستقيم الامر على الأساس الذى ارتآه فى نفسه وفى سريرته . وهكذا دواليك ، حتى اجتمع من ذلك جملة مسائل للإصلاح الذى انتواه ، ووضع أساسه، وأزمع إجراءه . وفى الحق : انه ما كان يقطع برأى دون الإجماع منا على استحسانه ونفعه ، وكان سبيله فى الإقناع

الرفق واللين ، والحجة الناطقة ، والبرهان الواضح . وضع مرة مسألة أمامنا : فقيدنا العظيم ، ووكيل الازهر ، ومديره ، والماثل أمامكم . تداولنا الرأى فى المسألة فكان رأيى مخالفاً للجميع فى صلابة . فابتسم المغفور له ابتسامة عميقة الإحساس ، ثم قال : لعل لفلان حجة يكون فيها مقنع لنا . ومازال بى يلطف ويرق ، ويعالج ويقنع ، حتى جرنى اليه وأساس قيادى ، فكنت فى صف الجماعة . وكان شيخنا كثير الحلم والأناة . وأذكر أنه عرض من بعض الطلبة شيء مخالف قبيل وفاته مما يستفز صدر الحليم ، فرعد وزمع ، وتمعر وجهه على غير عادته ، فقلت : سيدى أين غاب عنك حلمك ، ولم تغيرت عادتك فى هذه المرة ؟ ! فقال مبتسما ، وفى صوت مرنان : ومن ذا الذى ياعز لا يتغير ؟ إن الأزهر حين فجع فى شيخه الاكبر ، فإنما فجع فى أسمى وأطيب وأعرق الخلال الكريمه التى لو وزعت على جماعة كثيرة لوسعتهم جميعا ، وكان أجلى ما فى خلاله الوفاء ، الوفاء الخالص المتصل ، لأصدقائه ولداته ، والعفاة المحرومين الذين اتصلوا به ، وكان إلى جانب الوفاء الكرم والسماحة ، كرم النفس ، وسماحة الصدر إلى حد التضحية بكل نفيس فى سبيل ذلك . وفى جانب الوفاء والكرم والسماحة والحياء .

ومن كلماته كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيسا فخريا لجمعيات المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراغى ، قال فيها :

« القرآن مصقلة القلوب كما ورد فى الحديث ، وما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها ويجلو منها الصدأ ! والقرآن هدى ونور ، فهل إلا القرآن لما يغشى العالم اليوم من ظلام وضلال ، والقرآن من بعد هذا ثقاف للألسن ، يقوم عوجها ، ويصلح عجمتها ، ويغذى من البلاغة مادتها ، فمن عمل على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن وترتيله ومدارسته ، فإنما يصلح القلوب ، ويقوم الأخلاق ، ويخدم العربية ، وما أشرف ذلك مقصداً وأعظمه نفعاً ! ويتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوى بعد وفاة الرئيس الفخرى السابق رضى الله عنه أن نذكر مآثره الباقيات فى خدمة القرآن الكريم : كان رحمه الله مسلما صادقا ، وكان يحب القرآن حبا جما ، وقد عنى فى أكثر دروسه الدينية بالتفسير فى أسلوب يلائم جلال كتاب الله ، ويوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة ، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الامام « الشيخ محمد عبده » . ووجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالية لعلوم القرآن ، وقد أنشأ معهد القراءات والتجويد ، والمرجو أن يتابع الأزهر السير فى هذه السبيل ، فيقوى

معهد القراءات ويكمله ، وينشيء إلى جانبه دراسات عالية للحديث وعلومه ، حتى يستوفى الأزهر جميع الوسائل التى تعده لأن يكون كعبة المسلمين فى كل ما يتصل بالقرآن والحديث . وفي مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق الشاعر (١)

الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى

١٨٨٠ — ١٩٥٠ م

كان رحمه الله من أمثل العلماء فى خلقه ودينه وورعه وتقواه .. ولد عام ١٨٨٠ ونال العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٠٦ وعين مدرسا بمعهد الاسكندرية الدينى ثم اختير للقضاء الشرعى عام ١٩١٧ ، وفى عام ١٩٣٢ اختير شيخا لكلية الشريعة فى عهد الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر الشريف ، وفى عام ١٩٣٤ منح عضوية جماعة كبار العلماء ، ثم اختير وكيلا للأزهر عام ١٩٤٤ ؛ فى ١٨ يناير ١٩٤٨ اختير شيخا للأزهر بعد وفاة شيخه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، واستأثرت به رحمة الله فى ٤ سبتمبر ١٩٥٠ .

وقد ترك رحمه الله آثارا عديدة فى الأزهر ، وتلاميذ عديدين معجبين بفضله وعلمه ! وفى عهده أنشيء معهد المنصورة الدينى وسواه من المعاهد الدينية ... وقد ترجمت له بإفاضة ، وذكرت كثيرا من آثاره العلمية والدينية فى كتابى «الاسلام ومبادئه الخالدة» ، فلا داعى لإطالة الحديث عنه فى هذا الكتاب .

الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

كان الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من العلماء القلائل الذين قل أن شهد لهم الأزهر مثيلا : فى سعة الافق ، وجلال الخلق ، وعظمة النفس ، وقوة النزوع إلى المثل العليا ، فهو بحق خلف عظيم لاسلاف كرام .

تتلمذ على الامام محمد عبده ، فتخرج عالما قديرا ، وشيخا جليلا ، ومالبث أن جعلته مواهبه وكفايته وشخصيته علما بين زملائه العلماء . وشاهد الاحداث الكبرى فى تاريخ الوطن الدينى والفكرى والاجتماعى والسياسى ، واشترك فيها موجها وهاديا وشغل الكثير من المناصب الدينية الجليلة فى الأزهر والقضاء الشرعى والافتاء ، وكان لآرائه الدينية صداها البعيد فى العالم الاسلامى كافة ، ثم عهد اليه بالاشراف على

---

(١) عدد شعبان ١٣٧٠ .

الدراسات العليا فى الأزهر الجامعى ، ثم صارت اليه رياسة لجنة الفتوى ، فكان له فى كل ناحية أعمال خالدة مأثورة .. وإصلاح الازهر الجامعى فى شتى أطواره المختلفة فى العصر الحديث مدين لفضيلته بالرأى والتوجيه .

وقد ولد الشيخ عبد المجيد سليم فى ١٣ أكتوبر ١٨٨٢ ، وتخرج من الازهر عام ١٩٠٨ ، حاملا العالمية من الدرجة الأولى .. وشغل وظائف التدريس والقضاء والافتاء ومشيخة الجامع الازهر . ومكث فى الافتاء قرابة عشرين عاما . وله من الفتاوى مايربو على خمسة الفا

ولقد تولى مشيخة الأزهر مرتين ، أقيل فى أولها لأنه نقد الملك .

وقد ركز نشاطه فى السنوات الاخيرة فى الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، وقد جعلت هذه الجماعة من اهدافها أن تتفاهم الطوائف الاسلامية على ماينفع المسلمين ، وان تعمل على نسيان الخلاف واستلال الضغائن من بينهم ، وله فى هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات بينه وبين كثير من علماء البلاد الاسلامية ، فلم يقتصر فضله على العلم فى مصر ، ولكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الاسلام ، وإلى كل الطوائف .

ولفضيلته عدة رسائل مخطوطة ، وقد أثر عنه الشجاعة فى قول الحق والجهر به أمام الحكام دون خوف أو حذر ، وقد استقال من الافتاء عام ١٩٤٦ حين وجد حكومة ذلك العهد تريد التدخل فى شئون الأزهر ، وقال لرئيس ديوان الملك حين حذره من الخطر الذى سيلحقه : « إننى مادمت اتردد بين بيتى والمسجد فلا خطر على» . عين فضيلته فى مشيخة الأزهر للمرة الأولى يوم ٢٦ ذى الحجة عام ١٣٦٩ هـ - الثامن من شهر اكتوبر عام ١٩٥٠ وأعفى من المنصب فى ٤ سبتمبر ١٩٥١ ثم تولى المشيخة لثانى مرة فى ١٠ فبراير ١٩٥٢ واستقال من المنصب فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، وتوفى عليه رحمة الله فى صباح يوم الخميس ١٠ من صفر ١٣٧٤ هـ - ٧ من اكتوبر ١٩٥٤ ، تاركا ذكريات إسلامية لاتنسى .

الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش

ملء القلوب والأسماع ، وحديث الخاصة والعامة ، وشخصية تكاد من جلالتها وتواضعها تعد مع الخالدين الأوائل من كبار أئمة الاسلام .. حجة فى علوم الدين واللغة والأدب ، وإمام فى المعقول والمنقول ، وشيخ كثير من علماء الأزهر المعاصرين ، تتلمذوا عليه ، ونهلوا من معين علمه الفياض ، واستمعوا لأحاديثه وآرائه فى اللغة والبلاغة والأدب ، وفى علوم الشريعة وأحكامها ، وفى دقائق الاجتماع والتاريخ ، فكان لهم من

ذلك علم غزير ، ومدد فياض . ، ومجلسه العامر يفيض بالجديد الطريف من معارفنا الحاضرة ، وبالتليد القديم من علوم الأوائل ومعارفها ، وإلى جانب ذلك النكتة الرائقة والفكاهة الشائقة ، والآداب الرفيعة ، فى سمت الصالحين الورعين ، والزاهدين العابدين ، مع التقوى والتواضع ، وعفة اللسان ، وطهارة القلب ، ويقظة الضمير. وهو صوفى ورع ، محب لآل البيت ، كثير الأجلال لذكرهم، مع التوكل على الله والتباعد عن السياسة . وهو من أرومة عربية طيبة ، من عرب إقليم البحيرة ، حفظ القرآن ، وجاور فى الأزهر ، وتتلمذ على الامام محمد عبده ، ونال العالمية من الدرجة الأولى، وشغل منصب التدريس فى الأزهر ، ثم فى مدرسة القضاء الشرعى ، ثم تدرج فى مناصب القضاء ، ثم اختير شيخاً لمعهد أسيوط ، فشيخاً لمعهد الزقازيق ، فعميداً لكلية اللغة العربية ، فشيخاً لكلية الشريعة . . ثم أسندت إليه رياسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، ثم منصب المشيخة العظمى ، والامامـــة الكبرى للأسلام والمسلمين . إلى جانب عضويته فى مجمع اللغة العربية منذ نشأته حتى اليوم ، ولقد عاش طول حياته يحلم بإصلاح الأزهر ويعمل مع العاملين لهذا الهدف ، ويشترك فى جميع اللجان التى ألفت لذلك .

ولقد تخرج الشيخ إبراهيم حمروش من الأزهر ، عام ١٩٠٦ ، وعين مدرسا فى الأزهر ، ثم اختير للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ١٩٠٩ ، ومكث مدرسا بها حتى سنة ١٩١٦ ، ثم عين قاضيا فى المحاكم الشرعية ، وظل يرقى فى مناصبها ، إلى أن اختير عام ١٩٢٨ شيخا لمعهد أسيوط ، ونقل بعد شهور شيخا لمعهد الزقازيق، ولما أنشئت الكليات الأزهرية اختير عام ١٩٣٢ شيخا لكلية اللغة العربية ، وفى عام ١٩٤٤ اختير شيخا لكلية الشريعة ، ثم استقال من منصبه عام ١٩٤٦ احتجاجا على السراى لتدخلها فى شئون الازهر، وعين عام ١٩٥٠ رئيسا للجنة الفتوى . . وهو عضو فى المجمع اللغوى بالقاهرة منذ إنشائه عام ١٩٣٢ . .

وللأستاذ الأكبر مكانته الكبيرة فى قلوب الازهريين ، فهو حيثما حل وحيثما كان موضع التجلة والاحترام والتقدير ، من كل أزهرى وكل مسلم . . ومكانته العظيمة فى العالم الاسلامى فى غنى عن البيان .

وإن معاهد الأزهر وكلياته لتفخر بجهوده فى تنظيمها وفى توجيهها لأداء رسالتها ، ولقد نال مكانته المرموقة بما فطر عليه من نبل خلق وعظمة شخصية وسعة علم وصلاح وإيمان . . . .

كان فى الوظائف الكبرى التى تقلدها مثالا عاليا للرئيس اليقظ العادل ، والإمام الراعى الساهر ، والشيخ الحكيم المدبر ، والعالم الحانى على طلاب العلم وشيوخه .

وقد تولى الشيخ حمروش مشيخة الازهر للمرة الاولى فى ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ وكانت له مواقف خالدة فى الحركة الوطنية المصرية الأخيرة ، وأعفى من منصبه فى ١٠ فبراير عام ١٩٥٢ لاشتراكه فى الحركة الوطنية التى قام بها الشعب وقيادته للمظاهرة الشعبية التى خرجت تهتف بحرية مصر ، ومقالاته عن وجوب محاربة الاستعمار ، وأذكر أنه لما تولى المشيخة للمرة الاولى استقبل فى الازهر استقبالا حافلا ، وهنأته بهذه الأبيات :

عاد للدين مجده وسلامه   وحمى الدين هذه أيامه
ودع الأزهر الغداة لياليـ   ـه ، ونادته بالمنى أحلامه
تلك آماله الكبار ، وهذا   شيخه الأكبر الحكيم إمامه
يشهد الله أنه كاهل الدين ،   وللأزهر العريق سنامه
إن (إبراهيم) الملاذ لبيت الله   تسمى بسعيه أعلامه
أمة وحده ، وفى الله مسعاه ،   وللحق عزمه ومقامه
أمل المسلمين ، والنور يهدى   ليس إلا للمكرمات اعتزامه
يا إمام الاسلام بايعك الأزهر   شيخا له ، وأنت سلامه
تلك آماله إليك ، وهذا   فى يديك الكريمتين زمامه
وعلى منكبيك بُرد جلال   صيغ من نسج الصالحات وسامه
سر على يمن الله تحرس بيت العلم   فى يمنى راحتيك وسامه
جمعت حولك القلوب وهذا البيـ   ـت جذلان من هداك ابتسامه

والشيخ حمروش ، هو البقية الباقية من علماء الأزهر الأعلام ، ومن الجيل القديم ، الذين يعتز بهم الأزهر الحديث ، والذين ليس لهم نظير فى العلم والغيرة على شئون الاسلام والعروبة ، أمده الله فى حياته . . وما من أزهرى اليوم إلا وهو من تلامذته ، أو من تلامذة تلامذته . .

ومن كلماته هذه الكلمة التى القاها فى الأزهر فى ذكرى الهجرة وهى : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين : شاعت فى الأمم السابقة خرافات وعقائد باطلة لم تكن وليدة بحث ودرس ونظر واستدلال ، وإنما هى أقوال ملفقة مما يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الأبناء

آباءهم، من غير فهم ولا روية، وهى موضع تقديرهم ، ومحل اعتبارهم ،وأشد الناس تمسكا بها ومحافظة عليها المترفون ، لأنهم يعتقدون أن فى الدين زوالا لهيبتهم وذهابا لعظمتهم ، قال تعالى ، وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . وقد أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بدينه الذى ارتضاه لخلقه ، واختاره لعباده ، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فكان موقف أمته منه موقف الأمم السابقة من رسلها ، ولم تستحدث الأيام خلقا ، ولا حالت من الزمن العهود .

بدأ محمد صلى الله عليه وسلم ، بدعوة العرب ، وكانوا وقتئذ أقل الناس حظاً وأشقاهم عيشا ، وأبينهم ضلالة ، بأسهم بينهم شديد ، يقتتلون لأقل الأمور وأحقر الأسباب ، وكانوا متفرقين لاتجمعهم وحدة ، ولا يشملهم نظام ، وكان يجاور العرب دولتان عظيمتان : دولة الفرس ، ودولة الروم الشرقية ، استولت كل واحدة منهما على ماجاورها من بلاد العرب ، وجعلت عليه حاكما من العرب ، يعمل لها وينفذ إرادتها ، ويرعى مصالحها ، وبهذا الوضع كان العرب محصورين فى جزيرتهم ، قانعين بما فيها من مفاوز وصحراوات . دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى خير الأمور ، وأفضل الاعمال . دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الاصنام ، لانها لاتضر ولا تنفع ، ولا تعطى ولا تمنع ، ولا تدفع عن نفسها أذاة ، ولا تميط قذاة ، ولا تخلق حصاة ، ومع ظهور الحجة ووضوح البرهان ، وتنبيههم للحق فى كثير من الآيات ، قال تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » إلى غير ذلك من الامثال التى صرفها الله تعالى فى كتابه ، ومع كل ذلك لم يؤمنوا به ، بل كذبوه أشد تكذيب وبالغوا فى الانكار ، وقالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . ومن جهلهم زعموا أن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الناس إلى عبادة الله ، وترك عبادة الاصنام ، لم تكن إلا لانه صلوات الله عليه يكره الاصنام ، ويريد الانتقام منها ، لان بعضها اعتراه بسوء ، وألحق به ضرراً ، فقالوا : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ، فكان ذلك صراعاً بين الحق والباطل ، وبين الحجة والبرهان ، والجهل والطغيان ، ولم يقفوا عند التكذيب والانكار ، بل تجاوزوا ذلك إلى إيذائه وإيذاء من شرح الله صدورهم للإسلام ، فقبلوا دعوته، وآمنوا برسالته . وفازوا بشرف السبق ،

وكلما بالغوا فى الإيذاء ، بالغ صلى الله علية وسلم فى الصبر ، واجتهد فى الدعوة . وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص ، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان والأنصار ، ليتمكن بذلك من أداء مهمته ، وتبليغ رسالته ، فكان عليه السلام يتلقى من أقبلوا إلى مكة فى موسم الحج ، فيدعوهم إلى الاسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، فما أجابه أحد ، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً . وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقابلة الوفود ، ولم يصرفه إيذاء قريش عن دعوته ، ولا الرد القبيح عن السعى فى إدراك طلبته ، فكان يقابل الوفود فى كل موسم ، ففى موسم التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجماعة من الخزرج ، ولما عرض عليهم الاسلام قبلوه ، فكان ذلك الاجتماع مقدمة النجح ووسيلة الفوز ، فانهم لما عادوا إلى اهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدين الذى يدعو إليه ، فأسلم منهم كثيرون ، وفى موسم آخر حضر جمع من مسلمى المدينة والتقى بهم رسول الله وبايعوه ، إن هاجر إليهم ، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وبعد ذلك أمر صلوات الله عليه ، أصحابه بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم ، وقال لهم : « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » فخرجوا أرسالا ، رجالا ونساء ، إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين ، ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ، وخرج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، ائتمروا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه . ولما علم رسول الله ما أجمعت عليه قريش ، وعرف الليلة التى يريدون الفتك به فى صبحها ، توجه صلوات الله عليه إلى أبى بكر ، وأخبره أن الله أذن له بالهجرة ، فسأله الصحبة ، فأجابه ، إليها واتعدا على الهجرة فى تلك الليلة ، وقد أمر النبى صلوات الله عليه على ابن أبى طالب أن ينام مكانه فى تلك الليلة ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده ، وأصبحت فتيان قريش ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم للفتك به ، فإذا بعلى يخرج إليهم ، فعلموا أنهم باتوا يحرسون عليا . ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتهم وأخذوا يقتصون الأثر ، وجعلوا لمن يأتى به حياً مائة من الابل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم بإذن الله وفى رعايته وحفظه إلى أن بلغ المدينة ، ولما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته ويبلغ رسالته إلى أن بلغ كل ما أمر بتبليغه ، وبذلك تمت الشريعة ، وكمل النظام الذى وضعه العليم الحكيم .

والشريعة التى بلغها سمو بالعقول عن التقليد ، واتباع القول بلا دليل ، وأمر بالنظر فيما بث الله فى الآفاق من آيات . ونصب فى الكون من دلائل تدفعها إلى الاذعان بوجود الله ، وبما له من صفات الكمال : من القدرة التامة والعلم المحيط والتفرد بالسلطان فيما عداه ، يمضى فيه حكمه وينفذ قضاؤه ، وعبادة وخضوع وتقرب وخشوع . شكرا لمن خلقهم ، وأسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة ، وتهذيب نفوس ، وتطهيرقلوب ، وبعد عنالآثام والذنوب ، وتنزه عن الصغائر ، وصدق فى القول ، وإخلاص فى العمل ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وشجاعة ونجدة ، وإعداد عدة لارهاب الأعداء ، ومساواة فكلهم عند الله سواء ، لافرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير ، لافضل لأحد على أحدإلا بتقوى اللهوالتقرب منه ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين ، وتعاون وتناصر ، وتواد وتراحم وتعاطف وطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين . الى غير ذلك مما امرت به الشريعة . وحثت عليه . ورغبت فيه . وقد أعد الله تعالى للذين يعملون الصالحاتسعادةالدنيا والآخرة ، قال تعالى : « وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضىلهم.وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، وقال تعالى : « انالذينآمنوا وعملوا الصالحاتكانتلهمجنات الفردوس نزلا » . وقد عملت الأمة بتلك الشريعة ، فآتت أعمالها الصالحة أكلها ، وأثمرت ثمرتها فى بناء الأمة على أسس متينة ، وأخلاق عظيمة ، وربطت بينها برباط التعاون والمساواة والألفة والمحبة ، والدين والخلق ، فاتحدت بعد تفرق ، وقويت بعد ضعف ، وسعدت بعد شقاء ، وعزت بعد ذل . فعظم قدرها وعلا شأنها ، وأحكم أمرها ، فغيرت وجه التاريخ ، وفكت الحصر الذى ضربته دولة الفرس ودوله الروم . وفتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها ويعملون على مضايقتها . ولا زالت الدولة الاسلامية تنتقل منفتح إلىفتح ومن نصرإلىنصر، وعاشت قوية عزيزة ، تقدرها الأمم ، ويرهبها الأعداء ولما انحرفت عن العمل بالدين ، واتباع هدى سيد المرسلين ، اعتراها الضعف والوهن ، فلانت قناتها . وذهبت هيبتها .

الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين

عين الشيخ محمد الخضر حسين شيخا للأزهر فى يوم الأربعاء ٢٧ من ذى الحجة ١٣٧١ هـ - ١٧ سبتمبر ١٩٥٢

وكان أحمد تيمور فى مقدمة الذين قدروا فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر السابق حين قدم مصر من أكثر من ربع قرن — وقد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين آثار العلامة أحمد تيمور على ترجمة لحياة الشيخ محمد الخضر حسين — هذا نصها :

ولد بمدينة نفطة بالقطر التونسى فى ٢٧ رجب سنة ١٢٩٣ واشتغل بالعلم وحفظ القرآن الكريم وقرأ بعض الكتب الابتدائية فى بلده ، وفى آخر سنة ١٣٠٦ رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية فاشتغل بالطلب ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧ فقرأ على أشهر أساتذتها وتخرج عليهم فى العلوم الدينية واللغوية ونبغ فيها وفى غيرها ، فطلب لتولى بعض الخطط العلمية قبل اتمام دراسته فأبى وواظب على حضور حلقات الأكابر مثل الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ محمد النجار وكانا يدرسان التفسير والشيخ سالم بوحاجب وكان يدرس صحيح البخارى .

ثم رحل إلى الشرق فى سنة ١٣١٧ ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياماً فلازم جامع الزيتونة يفيد ويستفيد ، إلى سنة ١٣٢١ هـ ، فأنشأ فيها مجلة — السعادة العظمى — ولاقى فى سبيل بث رأيه الإسلامى مايلاقيه كل من سلك هذا السبيل . وفى سنة ١٣٢٣ ولى القضاء فى مدينة بنزرت والتدريس والخطابة بجامعها الكبير ، ثم استقال ورجع إلى القاعدة التونسية ، وتطوع للتدريس فى جامع الزيتونة ، ثم أحيل إليه تنظيم خزائن الكتب بالجامع المذكور — وفى سنة ١٣٢٥ اشترك فى تأسيس جمعية زيتونية ، وفى هذه المدة جعل من المدرسين المعينين بالجامع المذكور . وفى سنة ١٣٢٦ جعل مدرساً بالصادقية وكلف بالخطابة فى مواضيع إنشائية بالخلدونية ، ولما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة ونشر بجريدة الزاهرة قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا   يكفى مضاجعنا نوم دها حقبا

ثم رحل إلى الجزائر فزار أمهات مدنها ، وألقى بها الدروس المفيدة ، ثم عاد إلى تونس وعاود دروسه فى جامع الزيتونة ونشر المقالات العلمية والأدبية فى الصحف وفى سنة ١٣٣٠ سافر إلى دمشق ماراً بمصر ثم سافر إلى القسطنطينية فدخل يوم

إعلان حرب البلقان فاختلط بأهلها وزار مكاتبها، ثم عاد إلى تونس فى ذى الحجة من هذه السنة ونشر رحلته المفيدة عنها وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف، ثم جعل عضواً فى اللجنة التى ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق فى تاريخ تونس ثم ترك ذلك لما عزم على المهاجرة إلى الشرق فرحل إليه، ونزل مصر وعرف بعض فضائلها ثم سافر إلى الشام ثم للمدينة المنورة ثم إلى القسطنطينية ثم عاد إلى دمشق معينا مدرسا للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بدمشق، وبقى كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سوريا بكتم حال المتآمرين على الدولة واعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يوما ثم حوكم فبرىء من التهمة فأطلق سبيله فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٣٥ ومن شعره فى حبسه وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابه :

غل ذا الحبس يدى عن قلم   كان لا يصحو عن الطرس فناما
هل يذود الغمض عن مقلته   أو يلاقى بعده الموت الزؤاما
أنا لولا همة تحدو إلى   خدمة الاسلام آثرت الحماما

ثم استمر على التدريس بالمدرسة بدمشق إلى أن دعى إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٦ . ثم هاجر إلى استنبول بعد عام وعمل محررا بالقلم العربى بوزارة الحربية ، ثم أرسلته الحكومة إلى المانيا للقيام بعمل سياسى وهو تذكير الاسرى هناك بظلم فرنسا ثم رجع إلى الشام فدرس الفقه بالمدرسة السلطانية العربية . . وبعد أن احتلت فرنسا الشام بعشرة أيام هاجر إلى مصر فى عام ١٣٢٩ هـ . ثم نال الشهادة العالمية بالازهر وتولى التدريس بكلية أصول الدين والتخصص اثنتى عشرة سنة .

وتولى رياسة تحرير مجلة الأزهر ولواء الاسلام ورياسة جمعية الهداية الاسلامية واختير عضوا بهيئة كبار العلماء ١٩٥١ ، وهو إلى ذلك عضوا بمجمع اللغة العربية منذ أنشىء . وقد استقال فضيلته من المشيخة فى ٢ جمادى الاولى ١٣٧٣ هـ - ٨ يناير ١٩٥٤

انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى
وأوله الباب الرابع : أعلام من الأزهر فى العصر الحديث
محمد عبده والإصلاح الدينى

فهرست الكتاب

استدراك

ص	س	الكلمة	صحتها
٩٤	١٦	وأظهر	وخلفه منو وأظهر
٩٤	٢٨	وزعت	فرض

من مطبوعات المؤلف

الذكر الحكيم
مذاهب الأدب
رائد الشعر الحديث
فصول فى النقد
الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى
البديع لابن المعتز
الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام
ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان
بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ـ ٩ أجزاء
الايضاح فى البلاغة ـ ٦ أجزاء
فن الشعر ـ جزءان
الشعراء الجاهليون
عبد القاهر والبلاغة العربية
الاسلام وحقوق الانسان
الاسلام رسالة الاصلاح والحرية
العربى : أوزانه وقوافيه
ة القصيدة فى الشعر العربى
التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى
حكومة القاضى الجرجانى فى النقد
موقف النقاد من الشعر الجاهلى
مرشد البيان
تهذيب الآجرومية
فصيح ثعلب
شفاء الغليل للشهاب الخفاجى
مقامات الحريرى للشريشى ـ ٤ أجزاء
قواعد الشعر لثعلب
رسائل ابن المعتز
إعجاز القرآن للباقلانى
أشعار الشعراء الجاهليين ـ جزآن
قصص من التاريخ
الصوفى المجدد
الحياة الأدبية فى العصر العباسى
الازهر فى ألف عام ـ ٣ أجزاء

الأزهر في ألف عام

موسوعة تاريخية كبرى ، فى تاريخ الأزهر ، وأعلامه ، ورسالته ، ومناهج الدراسة فيه ، ونشاطه العلمى ، والفكرى ، والروحى ، وذكرياته القومية ، ومواقفه الوطنية ، خلال ألف عام أو يزيد . .

٧٠٠ صفحة ـ ثلاثة أجزاء ـ كل جزء ثلاثة أبواب كبيرة